كتاب

العرب قبل الاسلام

يبحث في اصل العرب وتاريخهم ودولهم وتمدنهم وآدابهم
وعاداتهم من اقدم ازمانهم الى ظهور الاسلام

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الاول

يتضمن البحث في أصل العرب وتاريخ دولهم القديمة من القرن الخامس والعشرين
قبل الميلاد الى ظهور الاسلام . ويدخل في ذلك تاريخ دول العمالقة في بابل
ومصر وفي بطرا وتدمر وغيرهما . وتاريخ العرب القحطانية في اليمن
ودولها المعينية والسبأية والحميرية وتمدنهم في مأرب وظفار
وحضرموت . واخبار عرب الشمال من عدنان وما كان
لهم من الدول في الحجاز ومشارف الشام
والعراق وحروبهم وغير ذلك

(الطبعة الثانية)

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر سنة ١٩٢٢

المقدمة

غموض تاريخ العرب

ما برح تاريخ العرب قبل الاسلام مطلب القراء وعقبة الكتاب من صدر الاسلام الى الآن . وقد حال سقمه وغموضه دون ايفائه حقه . ويظهر مقدار ذلك الغموض على الخصوص لمن يتوخى التحقيق والضبط . أما غير المحقق فانما يهمه جمع ما يقال على علاته لا يبالي بما فيه من التناقض او التضارب ولو خالف المنقول والمعقول – ذلك كان شأن أكثر الذين طرقوا هذا الموضوع من اول عهد التدوين في اللغة العربية . على اننا لا نعرف من مئات المؤرخين وأصحاب الاخبار في أثناء التمدن الاسلامي واحداً أفرد كتاباً خاصاً في هذا الموضوع . وسنبين ذلك فصلاً في التمهيد الذي يلي هذه المقدمة

فبقي هذا التاريخ الى امد غير بعيد مجموع غرائب وخرافات ومبالغات تتناقلها الاجيال بلا تحقيق ولا تمحيص . لا تزداد بالنقل الا اضطراباً وابهاماً . وقد زادت في أثناء الاجيال الوسطى تلبكاً على اثر انحطاط شأن العرب وذهاب دولتهم اذ ارادوا ستر ضعفهم بما يروى عن اجدادهم فعمدوا الى التفاخر باسلافهم الفاتحين وما كانوا عليه من المناقب العربية فزادوا اخبارهم مبالغة أو جمعوها وأكثروا منها بلا تعديل ولا ضبط فغلبت الاوهام فيها على الحقائق وذهب الصحيح منها بجريرة الفاسد . والقوم في أثناء تلك الظلمة مقيدو الفكر واللسان انما ينقلون ما يسمعونه لا يلتفتون يمنة ولا يسرة . واذا أعملوا فكرتهم فلا يتجاوزون بها قيود التقاليد التي استرقت أفكارهم وقطعت ألسنتهم على غير قياس أو برهان — الا النذر اليسير من المفكرين

فلما انحلت تلك القيود في أثناء التمدن الحديث بما اكتشفوه من نواميس الكون وقواعد الوجود رجع الناس الى القياس وأخذوا في نبذ ما يخالف المعقول. فنبغ جماعة من المحققين نظروا في التاريخ نظر الناقد وفيهم جماعة يهمهم الاطلاع على تاريخ الاسلام فقرأوه في مصادره فادهشهم ما رأوه فيه من اعمال العرب في صدر الاسلام وما كان من اكتساحهم العالم المتمدن في ذلك العهد وهم شراذم من اهل البادية لا نظام لهم ولا دربة عندهم فغلبوا الروم والفرس واستولوا على المملكتين في بضع عشرة سنة مما لم يسمع بمثله

في تاريخ الامم قديماً ولا حديثاً ثم أنشأوا الدول ونظموا الحكومات وجندوا الجيوش . فاصبح من أقصى أماني المحققين معرفة حقيقة ذلك الشعب فاخذوا يبحثون في تواريخهم القديمة ويطبقون ما رواه العرب على ما ذكره اليونان أو غيرهم فعرفوا اشياء لم يعرفها العرب أنفسهم فزادوا رغبة في استيضاح ذلك التاريخ باستنطاق الآثار المكتوبة وغير المكتوبة في انقاض المدائن العربية في اليمن والحجاز ومشارف الشام . ولكنهم لم يكونوا يستطيعون الوصول الى تلك الاماكن الا بالعناء الشديد فلم يقفوا الا على القليل منها كما سنفصله في ما يلي . على ان هذا القليل ازاح الستار عن كثير من الغوامض وكشف عن دول وأمم لم يعرفها العرب ولا اليونان

ومع ذلك فالكتاب المحققون ما زالوا يتهيبون التأليف في تاريخ العرب قبل الاسلام وقد حاوله غير واحد منهم ورجعوا من نصف الطريق أو اوائله حتى اصبح الناس يعدون هذا الموضوع من الطلاسم التي ضاع سرها واستحال حلها . ولم يقدم على الكتابة فيه في عهد هذا التمدن الا كوسين دي برسفال المستشرق الفرنساوي الشهير في اواسط القرن الماضي . فوضع كتاباً في ثلاثة مجلدات خصص المجلدين الاول والثاني منه للعرب قبل الإسلام فكان له دويٌّ في عالم المستشرقين لان المؤلف بذل جهده في تبويب الكتاب وترتيبه وايضاح مشكلاته لكنه كتبهُ قبل اكتشاف الآثار وحل رموزها فعول على اقوال العرب واليونان وخرجها تخريجاً يدل على ذكاء وعلم غزيرين على انهُ لو قدّر له ان يعيد النظر فيه اليوم لفضل كتابة سواه على تنقيحه

ولم يقدم احد بعد برسفال على التأليف في تاريخ العرب على النسق الذي نحن في صدده الا ما ينشره النقابون واهل البحث من النقوش التي يقرأونها او الاطلال التي يكتشفونها او ما يتناقشون فيهِ من الآراء في بعض اجزاء التاريخ بناء على ما قاله اليونان او دلت عليه الآثار . ولم يكن ذلك الا ليزيد الناس رغبة في ظهور مثل هذا الكتاب حتى تبرع المغفور له اوسكار الثاني ملك اسوج منذ نحو عشرين سنة بجائزة سنية تمنح لمن يؤلف احسن كتاب في « العرب قبل الاسلام » فتصدى لاجابة الاقتراح غير واحد من ارباب الاقلام وعرضوا مؤلفاتهم في الوقت المعين على اللجنة المنوط بها فحص تلك المؤلفات وتعيين مستحق الجائزة منها . فقررت انه ليس بينها كتاب يستحقها على مقتضى الشروط المطلوبة لكنها اختصت كتاباً منها بالذكر ألفهُ السيد محمود الالوسي فضلته على رفاقه واجازت لصاحبه نشره فنشره في ثلاثة مجلدات واعتبر نفسه نال الجائزة وهو كتاب بلوغ الارب في احوال العرب يشتمل على اكثر ما جاء في الكتب العربية من اخبار العرب قبل الاسلام وايامهم ومشاهيرهم وادياتهم واوابدهم وعاداتهم رتبها

في ابوابها لكنه لم يتعرض لتمحيصها وقلما تصدى للتاريخ او التمدن على النمط الجديد

وكنا في أثناء ذلك قد اخترنا الخطة التي تمشينا عليها في خدمة اللغة العربية نعني نشر التاريخ وآدابه وفلسفته ودرس تاريخ الشرق ولا سيما تاريخ العرب والاسلام وآداب اللغة العربية . وقد علمنا ان درسنا لا يكون وافياً ان لم تفهم تاريخ اصحاب هذه الامة وهم الذين قاموا بالاسلام ونهضوا بالشرق . فوافق اقتراح ملك اسوج ما تمناه نفسنا ولبثنا ننتظر ما تجود به قرائح الكتاب . فلما رأينا خيبة الاقتراح كما تقدم عزمنا على درس الموضوع من كل وجوهه . فلم نغادر كتاباً او رسالة تتعلق به مما كتبه العرب او اليونان او اكتشفه الرواد من الآثار الا اطلعنا عليه وتفهمناه غير ما دار بين العلماء المستشرقين من الابحاث او المناقشات في هذا الشأن . فلم يفتنا شيء منها نشر بالانكليزية او الفرنساوية او الالمانية الا طالعناه ونحن صابرون حتى يستوفي البحث حقه ويتمكن العلماء من كشف ما يكفي من الآثار لايضاح ذلك التاريخ . واذا بالقراء يلحون في اقتراحهم علينا تأليف تاريخ الاسلام . ولا يكون هذا التاريخ واضحاً ان لم يتقدمه تاريخ العرب قبل الاسلام فاستخرنا الله في تأليف هذا الكتاب

وتبين لنا بعد استيعاب مواده انه لا يسعه جزء واحد فقسمناه الى جزئين الأول في تاريخ العرب يصدر الآن والآخر في آدابهم وعاداتهم يصدر في السنة القادمة ان شاء الله

موضوع هذا الجزء

فالجزء الاول الذي نحن في صدده موضوعه تاريخ العرب قبل الاسلام . وقد صدرناه بتمهيد في مصادر هذا التاريخ المدونة في الكتب والمنقوشة على الآثار . والمدونة اما عربية او يونانية . وذكرنا اهم المؤلفين العرب واليونان الذين تكلموا شيئاً عن العرب او بلادهم . واما المصادر المنقوشة فمنها ما وجدوه في بلاد العرب ومنها وجدوه خارجها . وفصلنا تاريخ الاكتشافات الأثرية في اليمن وحضرموت وبطرا وغيرها . وتكلمنا عن المصادر المنقوشة خارج بلاد العرب في بابل واشور ومصر . وختمنا هذا الفصل باسماء الكتب التي استعنّا بها في تأليف هذا الكتاب قسمناها حسب لغاتها ورتبناها باعتبار الهجاء . وذكرنا بجانب كل كتاب اسم مؤلفه وسنة طبعه حتى يتمكن الباحث من الرجوع اليها عند الحاجة

ثم اتينا على فصل خاص بجغرافية بلاد العرب بيّنا فيه حدودها القديمة وما كان

يعنيه القدماء بقولهم « بلاد العرب » وما معنى لفظ « العرب » في اصله وكيف تبدّل الآن واتسع . وبحثنا في من هم العرب واين هو مهد الساميين واختلاف الآراء فيه . ثم عمدنا الى موضوع الكتاب اي تاريخ العرب واعملنا الفكرة في افضل الطرق لتقسيمه . لان تقسيم الكتاب وتبويبه اكبر خطوة في تأليفه . فرأينا ان نقسمه الى ثلاثة اعصر او اطوار وهي :

اولا : الطور الاول سميناه الطبقة الاولى او العرب البائدة او عرب الشمال في الطور الاول . واردنا بهذه الطبقة اقدم امم العرب وفي جملتها الامم التي يسميها العرب بائدة ونعني بها الدول العربية التي ظهرت ودالت قبل ظهور عرب اليمن القحطانية . واطلقنا على عرب الطبقة الاولى ايضاً اسم العمالقة وجعلناهم قسمين كبيرين (١) عمالقة العراق وهي دولة حمورابي في بابل منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد واوردنا الادلة التاريخية واللغوية والاجتماعية على ان هذه الدولة عربية . ولا يخفى ما في ثبوت ذلك من الفخر للعرب لانه اذا صح كان العرب اسبق الامم الى وضع الشرائع وسن النظامات وترقية شؤون الاجتماع . وقد اتينا بامثلة من رقي تلك الدولة . (٢) عمالقة مصر وهم الذين يسميهم المؤرخون ملوك الرعاة او الهيكسوس وسميناهم « الشاسو » وختمنا الكلام في هذه الطبقة باخبار بقايا العمالقة ومنها عاد وثمود وطسم وجديس وغيرها من البائدة عند العرب واضفنا اليها دولتين عربيتين لم يعرفهما العرب هما دولة الانباط في بطرا ودولة التدمريين في تدمر . وبحثنا في بطرا واصلها من عهد الادوميين. وفي الانباط واصلهم وهل هم عرب واتينا باسماء ملوكهم وسني حكمهم ونقودهم ولغتهم واحرفهم وتمدنهم . وفعلنا مثل ذلك في التدمريين واصل تدمر وتاريخ زينوبيا واذينة وحروبها وهل هي الزباء عند العرب . وفصل في آثار تدمر وصورنا اهم انقاضها ومثالاً من نقودها

وقبل التقدم الى الكلام عن الطبقة الثانية ذكرنا امماً متفرقة في شمالي جزيرة العرب عرفها اليونان . ثم اجملنا القول في الامم التي غزت بلاد العرب في عهد الطبقة الاولى فاشرنا الى الفراعنة الذين اكتسحوها بين القرن السابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد . ثم الذين غزوها من ملوك اشور وهم ستة اولهم تغلات بلاسر في القرن التاسع وآخرهم نبوخذنصر في القرن السادس قبل الميلاد . ثم فتوح الفرس والروم وهي قليلة . ورسمنا لاخبار هذه الطبقة خريطة خاصة

ثانياً : الطبقة الثانية وقد اردنا بها سكان اليمن الذين يسميهم العرب بني قحطان ويسمون دولهم حمير والتبابعة . فقدمنا الكلام بجغرافية مختصرة ثم اتينا بقول العرب

عن دول اليمن وما يقوله اليونان عنها . وعمدنا بعد ذلك الى ما كشفه النقابون في الآثار من الدول الاخرى واخيرا بسطنا نتيجة ما وصلنا اليه بعد الجمع بين كل هذه المصادر وتمحيصها وتطبيقها فجملنا الدول التي حكمت اليمن ثلاثاً كبرى وهي الدولة المعينية والدولة السبأية والدولة الحميرية . وفصلنا احوال كل دولة على حدة باسماء ملوكها واصولها وبيّنا ان اصل الدولة المعينية من بابل هاجر اصحابها الى اليمن بعد ذهاب دولة حمورابي . واستدللنا على ذلك من المشابهة بين شكل حكومة المعينيين وديانتهم ولغتهم واسماء ملوكهم وما عند البابليين من ذلك . وذكرنا اسماء ملوك معين

واما الدولة السبأية فبحثنا اولاً في اصلها وترجح عندنا انها من جالية الحبشة نزل آباؤها بلاد اليمن قديماً وتوطنوها واتخذوا عادات البلاد ولغتها وتمدنها . حتى ظهرت فيهم دولٌ تولت حكومتها اولاً باسم سبأ ثم باسم حمير . وذكرنا اسماء ملوك كل منهما نقلاً عن الآثار وقابلنا بين ما في الآثار عن ملوك حمير وما ذكره عنهم العرب ومحصناه وعيّنّا سني كل ملك منهم بالادلة والقرائن . وختمنا تاريخ دول اليمن الكبرى بالكلام عن العصر الحبشي وسردنا علائق الاحباش باليمن منذ القدم حتى فتحوها في اوائل القرن السادس للميلاد وبسطنا سبب ذلك الفتح عند العرب وعند اليونان

ثم ذكرنا دول اليمن الصغرى فبدأنا بالاذواء والاقيال واثبتنا دولاً عرفها اليونان ولم يعرفها العرب وهي الجبائية والقتابية وغيرهما . واخيراً وصفنا تمدن اليمن القديم وقسمنا الكلام فيه الى عدة ابواب في النظام الاجتماعي والصناعة والزراعة والتعدين والعمارة والتجارة والحضارة والدين واللغة والكتابة وتركنا الكلام في الثلاثة الاخيرة للجزء الثاني من هذا الكتاب . اما تلك ففصلناها واتينا بامثلة من نقود اليمن وصورنا مدينة مأرب بعد خرابها وبقايا حرم بلقيس وانقاض غمدان . ووصفنا قصور اليمن وافردنا فصلا خاصاً للاسداد وخصوصاً سد مأرب او سيل العرم المشهور . ورسمنا لهُ خريطة واضحة تظهر فيها هندسة ذلك الخزان العظيم وسبب تهدمه . ورسمنا لتاريخ هذه الطبقة خريطة خاصة ذكرنا فيها البلاد التي كانت عامرة على عهدها

ثالثاً : الطبقة الثالثة اردنا بها العرب العدنانية او الاسماعيلية او عرب الشمال في الطور الثاني . مهدنا الكلام في اصولهم والفروق بينهم وبين القحطانية من حيث البداوة والحضارة واللغة والدين . واوردنا اقدم اخبار العدنانيين من ايام التوراة الى ظهور الاسلام واوضحنا تفرقهم وعلائقهم بشجرة الانساب من قضاعة وربيعة ومضر وغيرها . وذكرنا دول قضاعة وسائر اخبارها وتشعب سائر العدنانية

وقبل التقدم الى اخبارها وايامها وحروبها تكلمنا عن دول القحطانية خارج اليمن

مني ... سنة والمناذرة وكندة وغيرها ولنا رأي في انسابها . وبحثنا في كل دولة بحثاً دقيقاً جمعنا فيه بين ما قاله العرب وما قاله اليونان والسريان او دلت عليه الآثار والنقوش أو ارشدتنا اليه القرائن . واوضحنا ذلك كله بالخرائط والرسوم والجداول. وفي الختام اتينا على اخبار العدنانية اهل البادية وايامهم وكيف تخلصوا من سيطرة اليمن حتى جاء الاسلام وافردنا فصلاً لحضر العدنانية في مكة . ورسمنا لهذه الطبقة خريطة خاصة تعرف بها اماكن القبائل في نجد والحجاز ومشارف الشام والعراق وعيّنا اسماء الامكنة التي وقعت فيها الحروب بين تلك القبائل وغير ذلك

وقد بذلنا الجهد في تحقيق ما كتبناه وضبطه على ما وصل الينا علمه مما بين ايدينا من الكتب او النقوش . مع علمنا ان ما بقي مدفوناً من اخبار هذه الامم تحت الرمال اكثر كثيراً مما كشف لنا . ولذلك فلا نستغرب اذا رأينا بين مكتشفات المستقبل ما يحملنا على تعديل رأينا في بعض النقط المبهمة . واذا انتج بحثنا في هذا الموضوع فائدة فالفضل راجع الى رجال الهمة والنشاط الذين عرضوا حياتهم للخطر في التنقيب عن الآثار وحملها الى العالم المتمدن . وللذين حلوا رموزها واستخرجوا كنوزها من العلماء المستشرقين

ولا ينبغي لنا ان ننسى الفائدة التي استفدناها من دار الكتب الخديوية وما كان يمهده لنا حضرة ناظرها الدكتور مورتس تسهيلاً للوقوف على الكتب اللازمة للمطالعة او المراجعة او يرشدنا الى ما صدر منها حديثاً

وغاية ما نرجوه من وراء ذلك ان تزيد مواضع الاصابة في هذا الكتاب على مواضع الخطأ . ولا نقول ان كل خطإ سهوٌ جرى به القلم بل نعترف ان ما نجهل اكثر مما نعلم وما تمام العلم الا لمن علم الانسان ما لم يعلم

(سنة ١٩٠٨)



تمهيد

في

مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام

سقم هذا التاريخ

ليس في تواريخ الأمم الراقية اسقم من تاريخ العرب قبل الاسلام حتى تهيب الكاتبون الخوض فيه لوعورة مسالكه وتناقض الاقوال فيه . وبعكس ذلك تاريخهم بعد الاسلام فانهم لم يغادروا خبراً من اخباره أو روايةأو واقعةالا دونوها وفصلوها كانهم شغلوا بهذا عن ذاك او لعلهم ارادوا محو مفاخر الجاهلية واقامة مجد الاسلام مكانها . ولذلك لا تجد لهم كتاباً خاصاً بتاريخ العرب قبل الاسلام واذا ذكروا شيئاً من اخبارهم انما يريدون به العبرة والموعظة كاخبار عاد وثمود بما تحتويه من غضب الله على قوم خالفوا انبياءه وان التبابعة مع ضخامة ملكهم صاروا الى البوار . ولذلك رأيتهم يبالغون في تعظيم تلك الامم ليعظم القصاص الذي وقع عليها حتى اصبحت اخبارهم اشبه بالخرافات منها بالحقائق . واكثر مبالغات العرب في القبائل البائدة حتى سبق الى اذهان المحققين من غير المسلمين انها موضوعة ولولا ورود بعضها في القرآن والحديث لقال المسلمون ذلك ايضاً . على ان ورود اسمائها وبعض اخبارها في كتب اليونان وغيرهم اثبت وجودها وجاءت الاكتشافات الأثرية بما يؤيد ذلك مع اظهار المبالغة في روايات العرب

ويحسن بنا في هذا المقام ان نجمل الكلام في مصادر تاريخ تلك الامة على اختلاف الاعصر واللغات . وهي تقسم الى مصادر مدونة في الكتب او منقوشة على الآثار . والمدونة في الكتب إما عربية او غير عربية . وهذه إما عبرانية او يونانية او غيرها . والمصادر المنقوشة إما في اليمن أو الحجاز او وادي النيل او ما بين النهرين او الشام او غيرها واليك البيان :

المصادر الكتابية او الكتب المدونة

١ — الكتب العربية

اقدم المصادر العربية المدونة عن تاريخ العرب وافربها الى الصحة القرآن فقد جاء فيه ذكر بعض القبائل البائدة كعاد وثمود وبعض اخبار ملوك اليمن كسيل العرم وغيره . واذا قرأت تلك الاخبار فيه لا تجد فيها شيئاً من المبالغات التي وصلت الينا في كتب التاريخ بل تجد ما ذكره القرآن صحيحاً تؤيده الاكتشافات الحديثة كما ايدت معظم اخبار التوراة مما ستراه في اماكنه من هذا الكتاب . ويدلك ذلك على ان تلك المبالغات او الخرافات ادخلها اهل الاغراض او الطامعين ممن دخل الاسلام من اليهود او المجوس او غيرهم لان العرب كانوا يستفتونهم في تفسير ما اغمض عليهم فيفتونهم بما تعودوه في كتبهم من المبالغة في ضخامة الاجسام وطول الاعمار . فالقرآن لما ذكر عاداً قال « عاد ارم ذات العماد » فادخل المفسرون في شرحها وتفسيرها مبالغات رواها كعب الاحبار وعبد الله بن سلام اليهوديان ووهب بن منبه المجوسي [١] وغيرهم فوصل الينا من اخبارها ان رجالها كانوا طوالاً كالنخل لم يكن للطبيعة تأثير على ابدانهم لغلظها ومتانتها وان عاداً تزوج الف امرأة ورأى اربعة آلاف ولد من صلبه ورأى البطن العاشر من اعقابه وعاش ١٢٠٠ سنة وخلفه اكبر اولاده فعاش ٨٥٠ سنة وعاش اخوه ٩٠٠ سنة [٢] ونحو ذلك

فهذه المبالغات ادخلها اليهود في اخبار العرب قياساً على ما في كتبهم كالتلمود وغيره وناهيك بامثالها في كتب المجوس . فقد كان الفرس القدماء يبالغون في اعمار اسلافهم واطوال اجسامهم فدخل كثير من هذه المبالغات في التاريخ بطريق التفسير او الرواية . وحفظت بعد الصدر الاول لاقتصار العرب يومئذ على الاسناد تفادياً من انتقاد الأئمة في رواياتهم محافظة على صحة ما يروى من الاحاديث والاقوال فأفاد الاسناد في ضبط الحديث والتفسير ولكنهُ اضرّ باستبقاء الخرافات القديمة على حالها . ولما نشأت العلوم اللسانية واشتغل المسلمون بها واطلعوا على كتب المنطق والفلسفة وتعودوا الدليل والقياس اخرجوا اكثر هذه الخرافات من تفاسيرهم ولم يلتفتوا الى تنقيح التاريخ منها

ولم يختص العرب ولا اليهود او غيرهم من المشارقة بادخال الخرافات على التاريخ فقد كان ذلك شأن الامم القديمة بما يعتور كل خبر تنوقل اجيالا بالسماع . اعتبر ذلك بما

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٦٥ ج ٣ (طبعة رابعة) (٢) المسعودي ١٧٩ ج ١

كان عند اهل الاجيال الوسطى في اوربا من حوادث لا تقلُّ غرابة عن مبالغات الف ليلة وليلة — ادخلوا بعضها في تراجم مشاهيرهم فذكروا ان الاسكندر المكدوني لقي في اثناء فتوحه اقواماً رؤوسهم كرؤوس الكلاب او الطيور او غيرها وابدانهم كالتنانين او نحوها . غير ما رووه عن عجائب البحار كالحيتان التي تبتلع السفن الكبرى او تقلبها. وعرائس الماء او الاسماك بوجوه العذارى الجميلات او وجوه الشبان او الشيوخ والسمك ذي الرؤوس السبعة وغير ذلك من الخرافات التي لم يتصل العرب الى مثلها في تواريخهم

وقلد العرب اليهود وغيرهم في كثير من طرق العلم فاقتبسوا منهم ردّ كل امة الى أب من آباء التوراة حتى المغول والترك والفرس فردّوا نسب الفرس مثلاً الى فارس ابن ناسور بن سام وقالوا عن اهل الصين انهم من ولد عابور بن يتويل بن يافث بن نوح[1] وقس عليه تعليل اسماء البلاد وردّها الى اسماء مؤسسيها بما يشبه قول اليهود ان مصر مثلاً بناها مصرايم واشور بناها اشور . وقد ينسبون بناء البلد الى حادثة او ظرف فعندهم مثلاً ان دمشق سميت كذلك لانهم دمشقوا بناءها والاندلس من التدليس وان الهمزة والنون زائدتان : ويثرب من قولهم « ولا تثريب » والحيرة من « تحير » والعراق من عرق القربة وقس على ذلك اسماء الاشخاص . والواقع ان اندلس محرفة من « وندلوسا » نسبة الى الواندال قوم سكنوا الاندلس قبل الاسلام. ويثرب محرفة في الغالب من « اتريبس » اسم بعض بلاد مصر . والحيرة من «حيرتا» في السريانية اي المعسكر والعراق من لفظ فارسي « ايراه » وهي وايران من اصل واحد فعرّبها العرب « عراق » ومن هذا القبيل قولهم « يعرب » من تكلم بالعربية « وسبا » سميت بذلك لتفرقها او لكثرة السبي وامثلة ذلك كثيرة لا تحصى

مصادر اخبار العرب

واقتبس مؤرخو العرب اخبار الجاهلية من عدة مصادر

١ : من اشعار العرب وامثالهم واقوال كانت شائعة بين العرب في صدر الاسلام يتناقلونها نظماً او نثراً ويدخل فيها اخبار البدو وايام العرب وحروبهم ووقائعهم وعاداتهم واخلاقهم فدونوها في جملة ما دونوه نقلاً عن الرواة كالاصمعي وابي عبيدة وغيرهما وقد ضاع اكثر ما دونوه

٢ : من الآثار الحميرية لانهم كانوا في صدر الاسلام يقرأون الخط المسند وكان في اليمن جماعة من علماء الفرس عندهم العلم والحكمة فاخذوا عنهم وعن الآثار تاريخ

(١) المسعودي ٥٥ ج ١

اليمن واخبار السد وغيره واقدم من دون ذلك ابن اسحق في السيرة النبوية

٣ : من اخبار اليهود بالحجاز واليمن وغيرهما

٤ : من كنائس النصارى بالعراق فقد كان في الحيرة لما ظهر الاسلام كتب في السريانية والفارسية واليونانية اقتبس المسلمون كثيراً منها . واكثر الذين اشتغلوا بتدوين التاريخ في صدر الاسلام من الاعاجم لاشتغال العرب بالسياسة او الحرب[١] واكثر ما اخذوه من الحيرة مختص بتاريخ الفرس والانباط والروم وقد نقلوا كثيراً من كتب اليهود والفرس واليونان والمصريين ضمنوه تواريخهم وربما اشاروا الى ذلك في عرض الكلام

فما عرفهُ المسلمون من اخبار العرب قبل الاسلام منقول عن هذه المصادر وقد وصل الينا مختلطاً غامضاً وقام من المسلمين بعد نضج تمدنهم غير واحد من المؤرخين النقادين كابن الاثير وياقوت وغيرهما فانتقدوا كثيراً من اخبار العرب . فذكر ياقوت مثلاً خبر مدينة النحاس ثم قال « ولها قصة بعيدة عن الصحة لمفارقتها العادة وانا بريء من عهدتها انما اكتب ما وجدته في الكتب المشهورة » ولما ذكر مطبخ كسرى ومائدته وقصته الغريبة قال « انها بالكذب اشبه منها بالصدق » ولما ذكر ناعطاً وانها قصر على جبلين يسير الراكب في ظله اربعة فراسخ قال « وهذا من المحال » وقس عليه كثيراً من نقده لكنه لم يتعرض للمبالغات المتعلقة بالدين وهو السبب في بقاء كثير من المبالغات ونسبة كثير من الوقائع الى الانبياء فكل مدينة فخيمة ينسبون بناءها الى سام بن نوح او الى سليمان بن داود او الى بلقيس او اسكندر ذي القرنين

مصادر احوال العرب

وقد ساعد على زيادة الالتباس والاختلاط في روايات العرب الخط العربي وكان يكتب اولاً بلا نقط ولم يكن عندهم ما يميز بين الباء والتاء والثاء أو بين الجيم والحاء والخاء أو بين السين والشين فيكتبون «بلقيس» مثلاً حروفاً بلا نقط فتقرأ بلقيس او يلقيس او نلقيس او بلفيش الخ وقس عليه ما تختلف به قراءتها بنقل النقط واختلاف مواضعها . فوقع بسبب ذلك التباس في قراءة الاسماء وظهر اثره في اختلاف المؤرخين والنسابين في اسماء الاشخاص والقبائل والاماكن — فمن امثلة ذلك أن ابن خلدون يسمي احد ملوك حمير افريقش والمسعودي وابو الفداء يسميانه افريقس وابن خلدون يقول الملطاط والمسعودي الملظاظ وابن خلدون يقول ناشر النعم والطبري يسميه ياسر انعم او ياسر ينعم والمسعودي نافس النعم ويسميه ابن الاثير ياسر بن عمرو وانعم

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٤٩ ج ٣ (طبعة رابعة)

الانعامة . وابن خلدون يقول كليكرب، والطبري وابن الاثير يسميانه ملكيكرب والمسعودي وابو الفداء يسميانه كليكرب . وابن خلدون يسمي والد بلقيس اليشرح والطبري يسميه ايليشرح وابن الاثير ايلشرح . وبلقيس يسميها بعضهم بلقمه وبعضهم يدعو أحد ابناء حمير وائل وغيره يدعوه وائل . فاعتبر ذلك ايضاً في الاسماء الاعجمية وما قد يأول اليه من تبديل الاعلام وتشويش الاخبار . وعلى هذا المبدأ تحول اسم « قايين » الى « قابيل » و « شاول » الى « طالوت » و « جليات » الى « جالوت » و « قورح » الى قارون »و « نقفور » او نيسوفورس الى « يعفور »

ولا يخفى ان ذلك الخلل قد يتطرق الى الافعال والاسماء المشتقة فيغير المعاني ويبدلها والظاهر ان تاريخ الطبري المطبوع باوربا منقول عن نسخة خطية غير منقطة كلها او بعضها لان الناشر ملأ الكتاب بالحواشي لايضاح ذلك الاختلاف في القراءة[1]

ومن أسباب الخلل في أخبار العرب تناقل الخبر أجيالاً على الالسنة بغير تدوين او ضبط فيعرض له تحريف لا يخطر بالبال . يشبهه ما يحدث لهذا العهد بين الامم التي لا تكتب كالاسكيمو مثلاً فانهم يصفون الرجل الانكليزي بابلغ من وصف العرب عاداً وابناءه فيقولون « انه عظيم الهامة له أجنحة اذا نظر الى الرجل قتله بنظره وانه يبتلع كاس الماء لقمة واحدة » فهذه المبالغة لا تنفي وجود الانكليز ولكنها تدل على قوتهم وشدة بطشهم فقس على ذلك مبالغات العرب ويندر ان يضعوا شيئاً من عند أنفسهم ولكن يغلب ان ينقلوه على علاته . وقد يشتبه عليهم الرجل بالآخر كقولهم ان اول من حكم الرومان اوغسطس قيصر وانت تعلم انه ليس اول من حكمهم ولكنه اول قياصرتهم . فهذا وأمثاله مما يروونه عن الامم البعيدة عنهم لا يخلو من حقيقة يجب تجريده منها . ولا ينبغي احتقار رواياتهم اذ قد يكون فيها الصحيح مبالغاً فيه فاذا قالوا ان سبا بن قحطان حكم ٤٨٠ سنة فلا ينبغي لنا ان نبذ هذا القول لبعده عن المعقول بل نؤوله الى ان المراد « دولة سبا » او « امة سبا »

ومن اسباب التعقيد والالتباس نسبة الحادثة الى غير صاحبها فاذا اشتهر رجل بنقبة نسبوا اليه كل ما ينطوي تحت تلك المنقبة . فالفاتح ينسبون اليه كل فتح عظيم والحكيم يروون عنه كل حكمة كما ينسبون كل بناء الى سليمان او ذي القرنين . وينبغي الانتباه الى ذلك في تحقيق الحوادث — لما فتح ابراهيم باشا الشام واشتهر بالصرامة والشدة كان من جملة ما ذكروه من أدلة ذلك ان امرأة شكت اليه جندياً اغتصبها لبناً شربه فامر

(١) الهلال ٥٣٧ سنة ٣

الباشا بيقر بطنه حتى اذا تحقق جنايته كان البقر قصاصاً له والا قتل المرأة . فلما بقر بطنه وجد اللبن فيه . وهذه الحكاية ذكرها ابن بطوطة في رحلته قبل ابراهيم باشا بنيف وخمسماية سنة وهو ينسبها الى امير اسمه كبك سلطان ما بين النهرين في ايامه[1] وقد اتفق كثير من امثله ذلك للعرب في اخبارهم القديمة فهم ينسبون بناء سد مأرب الى كل عظيم من عظماء اليمن

ومن أسباب الاختلال مزج الدين بالتاريخ فترى في ما يروونه عن القدماء أكثر ما يراد به اظهار التقوى والارهاب من العقاب والتنبيه الى زوال الدنيا فقد ذكروا كثيراً من مدافن حمير وقرأوا ما عليها من الآثار وتناقلوه فوصل الينا محشواً بمبالغات يراد بها العظة او الوعيد

واذا قرأت ما كتبه مؤرخو العرب عن تاريخ الجاهلية رأيت عجباً من الخلط والتناقض والاختلاف . ومن هذا القبيل اختلافهم في الانساب وهو كثير في كتبهم ولم يتفق النسابون الا في القليل من انساب الملوك او الامراء او انهم لا يتفقون غالباً الا في انساب قريش . اما في انساب الملوك الآخرين فيختلفون كثيراً فان ابن خلدون وابن اسحق يقولان في نسب تبع اسعد ابي كرب انه اسعد بن عدي بن صيفي والطبري وابن الكلبي وابن حزم وابن الاثير يقولون انه اسعد بن كليكرب بن زيد الأقرن ابن عمرو بن ذي الاذعار بن ابرهة ذي المنار الرائش بن قسيس بن صيفي وبين هذين القولين بون عظيم . وهم في اختلاف في نسب زبيد بين ان يكون ابن سلمة بن مازن ابن منبه بن صعب بن سعد العشيرة او ابن منبه بن صعب بن سعد او ابن صعب بن سعد . وابن خلدون وغيره يقولون ان يشجب ابن يعرب ويقول ابن اسحق ان يعرب هو ابن يشجب ونسابة اليهود يقولون ان عرب اليمن من نسل حام والعرب يقولون انهم من نسل سام

واغرب من ذلك انهم يختلفون في نسب قحطان نفسه فمنهم من جعله ابن عابر ابن شالخ بن ارفكشاد بن سام وبعضهم جعله ابن يمن بن قيدار وآخرون زعموا ان قحطان من نسل اسماعيل والاكثر على انه كان قبل اسماعيل باجيال . وقد صرح ابن خلدون ان العرب تتصرف في الاسماء الاعجمية بتبديل حروفها وتغييرها وهو ما يؤيد قولنا . ومن امثلة ذلك اختلافهم في ذي القرنين بين ان يكون الصعب ابن مدائر من ملوك اليمن او اسكندر المكدوني بن فيليب او غيرهما

(١) ابن بطوطة ٢٢٧ ج ١

واختلفوا في نسب الحرث الرائش اول ملوك التبابعة عندهم فقال ابن اسحق انه ابن عدي بن صيفي وابن الكلبي يقول ابن قيس بن صيفي والسهيلي يقول انه ابن همال ابن ذي سدد بن الملطاط بن عمر بن ذي يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن وائل . والمسعودي يقول انه ابن شداد بن الملطاط بن عمر . وأغرب من ذلك ان الواحد منهم قد يقول في نسب الواحد قولين مختلفين فالطبري يقول في موضع ان الحرث الرائش من نسل سبا الاصغر ويقول في موضع آخر ما يؤخذ منه غير ذلك . واختلفوا في نسب افريقش أحد ملوك التبابعة فقال ابن خلدون انه ابن ابرهة بن الحرث الرائش وقال ابن حزم انه اخو الحرث الرائش وقد ذكروا ان الرائش حكم ١٢٥ سنة وابرهة حكم ١٨٠ سنة فتكون بداية حكم افريقش بعد بداية حكم اخيه بثلاثمائة وخمس سنين ناهيك بمدة حكمه هو فربما عاش على حسابهم خمسمائة سنة او اكثر . وقس على ذلك اختلافهم في نسبة القبائل بعضها الى بعض فيزعم بعضهم ان قبيلة انمار من بني قحطان وبعضهم يقول انها من عدنان

على ان هـذا التناقض او الخلط لا يخلو من حقيقة تاريخية على المؤرخ الباحث تجريدها من تلك الشبهات

ما وصل الينا من اخبار العرب

ثم ان ما كتبه المسلمون في تاريخ الجاهلية على قلة العناية في تحقيقه لم يصل الينا منه الا فصول في مقدمات كتب التاريخ العامة ولم يصلنا شيء مما كتب في هذا الشأن قبل القرن الثالث للهجرة . واقدم ما وصل الينا من اخبار الجاهليـة على يد مؤرخي المسلمين فصول نشرها عبد الملك بن هشام المتوفى سـنة ٢١٨ هـ في السيرة النبوية المشهورة تطرق اليها في سياق كلامه عن النسب النبوي رواها عن محمـد بن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ وهي قاصرة على نسب العرب الاسماعيلية وشيء عن الغساسـنة والمناذرة وقصة سد مأرب واستيلاء تبان اسعد على اليمن وغزوة يثرب الى ملك ذلك نواس وقصة أصحاب الاخدود في نجران واستيلاء الحبشة على اليمن وعام الفيل وخروج الحبشة من اليمن ودخول الفرس اليها وشذرات عن ولد نزار ومضر كقصة عمرو بن لحي صاحب الاصنام وكلام في اوابد العرب وعاداتهم وبضعة فصول في عرب الحجاز وتاريخ مكة الى بيت عبد المطلب جد النبي فظهور النبي . وهذا كله لم يستغرق اكثر من ستين صفحة من سيرة ابن هشام

وعاصر ابن هشام جماعة من الرواة اشهرهم ابو عبيدة والاصمعي وتوفوا في اوائل

القرن الثالث للهجرة وهم أصل ما تنوقل من اخبار العرب وأشعارهم وآدابهم وعاداتهم ويتخلل ذلك بعض تاريخهم لكنهم لم يتركوا شيئاً مدوناً . ويلي ابن هشام ابن قتيبة صاحب كتاب المعارف (توفي سنة ٢٧٦ هـ) وفيه فصل في انساب العرب حسب التسلسل والتعاقب بلا حوادث الا شذرات عن اليمن وغسان والحيرة . ونحو ذلك الزمن ظهر اليعقوبي المشهور بابن واضح المتوفى سنة ٢٧٧ هـ والف تاريخاً في جزئين الاول في التاريخ القديم وفي جملته فصل في قدماء العرب

ويلي هؤلاء طبقت نبغت في القرن الرابع للهجرة اولهم الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ فقد صدّر كتابه الكبير بفصول في اخبار عاد وثمود وملوك اليمن والحجاز . وفعل مثل ذلك المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ في الجزء الاول من كتابه مروج الذهب . وممن دوّن تلك الاخبار بشكل تاريخ حمزة الاصفهاني المتوفى في اواخر القرن العاشر الميلاد له كتاب موجز في سني ملوك الارض ذكر فيه شيئاً عن أنساب حمير ودول العرب من غسان ولخم وكندة فضلاً عن ملوك الفرس وغيرهم وانما هو يهتم بسنة الولاية والوفاة . وعاصر هؤلاء اثنان من كتاب الادب ذكرا شيئاً عن حوادث الجاهلية وهما ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفي سنة ٣٢٨ هـ وابو الفرج الاصفهاني صاحب الاغاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ فهؤلاء وشعراء الجاهلية هم مرجع المؤرخين في ما كتبوه عن العرب قبل الاسلام . وعاصر هؤلاء كاتب له شأن كبير في هذا الموضوع نعني الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ ه صاحب كتاب « صفة جزيرة العرب » ويعرف بابن الحائك فقد وصف تلك الجزيرة كما كانت في ايامه وصف عالم محقق لم يغادر شاردة ولا واردة . وله كتاب آخر عظيم الاهمية اسمهُ « الا كليل » لم يوجد منه الا قطعة نشرها المستشرق مولر وفيها وصف ابنية اليمن وآثار ملوكها كما كانت في ايامه

ثم جاء البكري المتوفى سنة ٤٨٧ هـ صاحب جغرافية معجم ما استعجم فصدّر كتابه بمقدمة حسنة في هذا الموضوع غير ما جاء في تضاعيف الكتاب . وعقبه ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان المتوفى سنة ٦٢٦ هـ فضمن كتابه فوائد كثيرة مشتتة واخذ ابن الاثير عن الطبري . وعن ابن الاثير اخذ ابو الفداء واضاف شيئاً من تاريخ الجاهلية اخذهُ من سواه . واهم من كتب في تاريخ الجاهلية بعد هؤلاء واطال ابن خلدون فقد جمع في الجزء الثاني من تاريخه الكبير خلاصة ما قاله المتقدمون الذين ذكرناهم فافرد لكل دولة او أمة فصلاً فجاء ما كتبهُ اوفى من سواه ولكنهُ لا يزيد بجملته على مئة واربعين صفحة بقطع هذا الكتاب وهو اطول ما كتبهُ القدماء عنهم

ويعدُّ من المصادر العربية لتاريخ العرب قبل الاسلام أيضاً اشعار الجاهلية المجموعة في مثل حماسة ابي تمام وجمهرة ابي زيد وكامل المبرد وطبقات ابن قتيبة ونحوها . وافيدها في هذا الموضوع القصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميري من اهل القرن الخامس للهجرة ذكر فيها ملوك حمير والاذواء والاقيال متسلسلة . ومن قبيل الفوائد التاريخية الامثال العربية واجمعها كلها كتاب مجمع الامثال للميداني

٢ — الكتب غير العربية

والمصادر غير العربية لتاريخ الجاهلية اقدمها التوراة وفيها شيء عن احوال الامم العربية في سفر التكوين وجاء ذكر بعض ملوكهم وقبائلهم في سفر الايام وسفر نحميا وسفر المكابيين وغيرها وهو قليل

ويلي التوراة تاريخ هيرودوتس الرحالة اليوناني ابي التاريخ المتوفى في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد وقد جاء ذكر العرب فيه عرضاً في اثناء الكلام عن الحروب بين الفرس والمصريين على عهد قمبيز في القرن السادس قبل الميلاد . ثم بروسوس مؤرخ الكلدان المتوفى نحو سنة ٣٠٠ ق م ذكر منهم دولة حكمت بابل . ثم تيوفراست واراتوستنيس واغاثارشيدس وديودورس الصقلي وكلهم من مؤرخي اليونان وجغرافيهم قبل الميلاد ذكروا بعض قبائل العرب ومدنهم . وفي اوائل النصرانية نبغ سترابون الرحالة اليوناني المتوفى سنة ٢٤ م فافرد للعرب فصلاً خاصاً في الكتاب السادس عشر من مؤلفه الجغرافي ذكر فيه مدائن العرب وقبائلهم على عهده ووصف كثيراً من أحوالهم التجارية والاجتماعية وحملة اليوس غالوس الشهيرة لفتح جزيرة العرب وما كان من فشله في نحو اربعين صفحة . وجاء بعده بريبلوس ثم بلينيوس ثم يوسيفوس الاسرائيلي وكلهم توفوا في القرن الاول للميلاد . وقد ذكر يوسيفوس شيئاً عن عمالقة مصر في كتابه آثار اليهود . وفي أواسط القرن الثاني للميلاد نبغ بطليموس القلوذي فالف جغرافيته الشهيرة جمع فيها كل ما عرفه اليونان قبلهُ من احوال العالم كما فعل ياقوت بجغرافية العرب . وخصص بطليموس جزءا من كتابه لبلاد العرب فذكر مدنها وقبائلها وعين الاماكن باعتبار الدرجات طولاً وعرضاً بشرح وافٍ ووصف كثيراً من احوال العرب التجارية وغيرها . ويليه اريان وهيروديان واوسابيوس واثناسيوس وزينوفون وهيرونيموس وفيلوسترجيوس وبروكوبيوس واستفانوس ما بين سنة ١٦٠ و٥٦٧ للميلاد . وكل منهم اورد شيئاً من

أحوال العرب عرضاً لا يخلو من فائدة وانما المرجع في ما وصل الينا من كتابة اليونان عن العرب الى استرابون وبلينيوس وبريبلوس وبطليموس فانهم جمعوا ما قاله سواهم وفصلوه . ولهؤلاء المؤلفين على تشتت ما كتبوه فضل كبير على تاريخ العرب فانهم اوضحوا كثيراً من غوامضه فذكروا دولاً وقبائل واماكن لم يعرفها مؤرخو العرب على الاطلاق كدولة الانباط والمعينيين والسبأيين وغيرهم مما سنأتي على تفصيله

وهذا جدول باسماء علماء اليونان الذين ذكروا العرب او تاريخهم او ما يتعلق بهم مرتبة حسب سني وفاتهم اذ قد يجيء ذكر احدهم في اثناء الكلام فيجب على القارىء ان يعرف سنة وفاته

الاسم	سنة الوفاة	الاسم	سنة الوفاة
هيرودوتس	٤٠٦ ق م	ابولودورس	١٣٠ ب م
ثيوفراست	٣١٢ « «	بطليموس القلوذي	١٤٠ « «
روسوس	٣٠٠ « «	اريان	١٦٠ « «
ارسطون	٢٥٠ « «	هيروديان	٢٥٠ « «
ايراتوستنيس	١٩٤ « «	اوسابيوس	٣٤٠ « «
اغاثارسيدس	١٤٥ « «	اثناسيوس	٣٧٣ « «
ديودورس الصقلي	٨٠ « «	زينوفون	٣٥٩ « «
سترابون	٢٤ ب م	هيرونيموس	٤٢٠ « «
بلينيوس	٧٩ « «	فيلوسترجيوس	٤٢٥ « «
بريبلوس	٨٠ « «	بروكوبيوس البيزنتي	٥٦٥ « «
يوسيفوس	٩٣ « «	ستيفانوس «	٥٦٧ « «

المصادر المنقوشة على الآثار

١ — في بلاد العرب

قد رأيت في ما تقدم انه ليس في الكتب العربية او غيرها مما كتبه القدماء كتاب وافٍ بتاريخ العرب قبل الاسلام وانما هي نتف متفرقة يجتمع منها تاريخ ناقص كما كان تاريخ مصر القديم قبل حل القلم الهيروغليفي وقراءة الاثار المنقوشة به . وكما

كان تاريخ بابل واشور قبل حل القلم المسماري او الاسفيني . وللعرب آثارٌ رعا لا تقلُّ اهمية عن آثار مصر وبابل قد طمرتها الرمال في اليمن والحجاز وغيرهما عليها نقوش حميرية مكتوبة بالقلم المسند او نقوش آرامية مكتوبة بالقلم النبطي او غيره لو أتيح كشفها ودرسها لانجلى تاريخ العرب القديم انجلاء حسناً كما انجلى تاريخ الفراعنة وتاريخ بابل واشور . ولكن الوصول الى تلك الصحاري القاحلة شاق وفيه خطر . على ان ذوي الهمة والغيرة من اهل اوربا لم يدخروا وسعاً في كشف ما تيسر من الآثار بانحاء مختلفة من بلاد العرب شمالا وجنوباً فاوضحوا كثيراً من خفايا ذلك التاريخ وكشفوا اسماء ملوك ودول لم يكن العرب ولا اليونان يعرفونها . ولايضاح ذلك نذكر تاريخ التنقيب عن تلك الآثار ونقسم الكلام فيها الى قسمين : آثار الجنوب باليمن وحضرموت وآثار الشمال في الحجاز ومشارف الشام

آثار اليمن وحضرموت

الفضل الاكبر في فتح طريق الاكتشاف ببلاد العرب للجرمان من اواسط القرن الثامن عشر . وكان السبب في ذلك ان الافرنج في اسفارهم الى الهند عن طريق البحر الاحمر ومصر سمعوا ما يتناقله اهل شواطىء اليمن وحضرموت عن آثار الابنية المدفونة في رمال تلك البقاع وعليها كتابة لم يستطع اليهود ولا العرب قراءتها . واول من خطر له تحقيق ذلك والبحث في تلك الآثار وقراءتها عالم الماني اسمه ميخايلس من اسرة عريقة في العلم والفلسفة واللاهوت وُلد في هال سنة ١٧١٧ وتوفي سنة ١٧٩١ وكان فيه ميل الى نبذ التقاليد والعمل باحكام العقل والبحث عن الحقائق ويعدونه الحلقة الموصلة بين اهل التقليد واهل النظر . وانتقل سنة ١٧٤٦ الى غوتجن وتعين استاذاً للفلسفة فيها وظل هناك حتى مات . ولكنه كان كثير العلائق بسائر الممالك بما حازه من الشهرة العلمية وقد قربهُ الملوك والامراء فمنحه ملك اسوج رتبة نايت مع لقب سير . وكان كثير العناية في البحث عن آثار التوراة فبلغ مسامعه ما يتناقله الناس عن بلاد اليمن فاقترح على فريدريك الخامس ملك الدنمارك سنة ١٧٥٦ تشكيل لجنة تذهب لارتياد تلك البقاع فاجاب اقتراحه وامره بتشكيلها . فشكلها من خمسة علماء برئاسة كارستن نيبوهر وجعل غرض تلك الرحلة تحقيق بعض المسائل المتعلقة بالتوراة من حيث الجغرافية وعادات الشرق والمحصولات الوارد ذكرها في التوراة وبعض الاوبئة التي كانت وما زالت تفد على الشرق ونحو ذلك

تشكلت اللجنة من الاساتذة فون هافن عالم باللغات الشرقية وفورسكال عالم بالتاريخ الطبيعي والدكتور كرامر طبيب الوفد وبورنفايند الرسام الحفار واخيراً

نيبوهر الجغرافي . فاقلع الجماعة من كوبنهاجن في اول سنة ١٧٦١ فمروا بازمير فالاستانة وعرجوا بمصر ومنها بالبحر الاحمر الى اليمن فوصلوها في آخر سنة ١٧٦٢ وفي اواسط السنة التالية توفي فون هافن في مخا وفورسكال في بريم فشق ذلك على الباقين واعتقدوا فساد اقليم اليمن وخافوا على انفسهم فظلوا في طريقهم الى بومباي . فتوفي في ذلك الطريق بورنفايند ثم كرامر سنة ١٧٦٤ في بومباي ولم يبق الا نيبوهر فلم يتمكن من الايغال في بلاد اليمن . ولما رجع كتب في رحلته كتاباً وصف فيه ما شاهده او سمعهُ عن بلاد العرب طبع غير مرة ونقل الى معظم لغات اوربا وهو اول كتاب يبحث في آثار العرب القدماء ومن جملة ما قاله « ان مدينتي ظفار وحدافة فيهما نقوش لا يقدر اليهود ولا العرب على قراءتها »

وفي أوائل القرن التاسع عشر وفق شامبليون الفرنساوي الى حل الهيروغليف المصري فملقت آمال المستشرقين بحل كتابة اليمن واخذت الحمية المستشرق الالماني زتسن فسافر الى اليمن سنة ١٨١٠ مستضيئاً بما قاله نيبوهر فلم يجد حدافة ولكنه عثر في ظفار على ثلاثة نقوش نسخ واحداً منها ونقل الاخرين ورجع الى مخا فوجد هناك خمسة نقوش لم يستطع نسخ غير اثنين منها ونظراً لتسرعه في النقل لم يستفد العلماء من تعبه . وشاع ذلك في اهل الرحلة فاصبح الضباط الانكليز المسافرون الى الهند اذا مرت سفائنهم بشواطىء اليمن بحثوا في آثارها فعثر ضابط منهم اسمهُ ولستد سنة ١٨٣٨ على نقوش حميرية في صخر من بقايا قلعة يقال لها حصن غراب واهتم العلماء بقراءة ذلك النقش فذهبوا فيه كل مذهب ولم يضبطوا قراءته الا بعد اعوام

وكان مع ولستد على تلك الباخرة ضابط اسمه كروتندن وجد في صنعاء بضعة نقوش قيل لهُ انها محمولة من خرائب مأرب التي كان فيها السد المشهور ووقف غير هؤلاء على امثال هذه القطع مما لا اهمية كبرى لها . فالبادىء بالتنقيب عن آثار اليمن الالمان ثم الانكليز ثم اتى دور الفرنساويين وكانت خدمتهم اوسع مجالا واكثر ثمراً. واول من اقدم على ذلك ارنو (Arnaud) اخترق اواسط اليمن سنة ١٨٤٣ وعاد ومعه ٥٦ نقشاً نقلها عن آثار صنعاء والخريبة ومأرب وحرم بلقيس . وكان ارنو صيدليًّا لامام صنعاء وله معرفة بالموسيو فرسنل قنصل فرنسا بجدة فاشار فرسنل عليه ان يذهب لاكتشاف آثار مأرب التي يحدث الناس باخبارها وهي من عواصم مملكة اليمن الكبرى . فاطاعهُ واصطحب قافلة اظهر لرجالها الفقر والمسكنة فقاسى في تلك الرحلة مرَّ العذاب من الخوف والتعب لانهم كانوا يكلفونه ما لا طاقة به ثم استغشوه واختلفوا في ماهيته ولم يتركوا له فرصة ينسخ فيها النقوش او يطبعها فكان يفعل ذلك سراً تحت

خطر القتل . وقد أثر الاقليم في عينيه فاصيب برمد ذهب ببصره فعاد الى صنعاء أعمى فارسل ما كان قد نسخه الى صديقه فرسنل . وقد نشرت أخبار تلك الرحلة ونقوشها بالمجلة الاسيوية في عدة أجزاء منها . وفي بعض هذه الاجزاء خريطة سد مأرب وهو أول من تمكن من مشاهدة آثار ذلك السد.وقد حل نقوش ارنو التي نحن في صددها المستشرق اوسياندر الشهير سنة ١٨٤٥



ش ١ — يوسف هاليفي

وتكاثرت النقوش عندهم ولكنهم لم يكتفوا بما حلوه منها فتشكلت للعمل في هذا السبيل جمعية الآثار الساميّة (Corpus inscriptorum semitorum) واهتم ناظر المعارف في باريس بارسال المستشرق هاليفي سنة ١٨٦٩ م في الطريق الذي مشى فيه ارنو قبله فسار حتى بلغ مأرب ورجع ومعه ٦٨٠ نقشاً اكثرها لسوء الحظ منقول باحرف عبرانية فقلل ذلك من أهميتها . وانما اضطر هاليفي لنقلها على هذه الصورة التماساً للسرعة وخوفاً من مفاجأة العرب له وهو ينقل او يرسم . وكان اذا رأى نقشاً وأراد نقله تظاهر بالرقاد او احتال باظهار الصلاة ونقل ما ينقله خلسة . واكتشف هاليفي في رحلته هذه بلاد الجوف التي مرّ بها اليوس غالوس الفاتح الروماني ولم يكن الجغرافيون يعرفونها ولا يعرفها أهل صنعاء أنفسهم مع قربها منهم . وارتحل من الجوف الى نجران واكتشف « معين » عاصمة دولة المعينيين التي ذكرها اليونان بين دول اليمن والعرب لا يعرفونها وسيأتي تفصيل خبرها . وقرأ في النقوش التي

اكتشفها اسماء عدد غفير من ملوك اليمن وآلهتهم وبلادهم وقبائلهم لم يكن معروفاً من قبل



ش ٢ – ادوارد غلازر

ثم عاد الالمان الى الاهتمام بآثار اليمن مثل اهتمامهم بسائر أحوال الشرق واكثرهم عناء في خدمة هـذه الآثار ادوارد غلازر فقد ارتاد أواسط اليمن مراراً وصل في بعضها الى مأرب نفسها وهو ثالث افرنجي وطئها وتفقد آثارها وعاد سالماً . وقد نقل معه نحو الف نقش منها ومن غيرها بينها نقوش في غاية الاهمية بعضها تاريخي يذكر بناء سد مأرب وتصليحه وبعضها غير ذلك ولم ينشر منها الا القليل . والف كتاباً في تاريخ بلاد العرب القديمة وجغرافيتها لم ينشر منه الا الجزء الثاني وهو القسم الجغرافي سنة ١٨٩٠ والناس في شوق عظيم للاطلاع على سائر النقوش وعلى القسم التاريخي من كتابه . على انه الف كتباً اخرى عن الحبشة وغيرها كلها بحث ودرس

وحاول الوصول الى مأرب جماعة غير هؤلاء الثلاثة فاتوا في الطريق منهم هوبر الفرنساوي ولانجر النمساوي [١] . ومن الانكليز الذين ارتادوا جنوبي جزيرة العرب ثيودور بنت كشف في حضرموت آثاراً هامة وكذلك هريس وغيره [٢]

ففي متاحف اوربا ومكاتبها الان عدد كبير من آثار اليمن بعضها منقوش على الحجر او البرونز في ألواح او أحجار وبعضها منقول بالرسم او الطبع يزيد عددها على الفين نشر منها جانب كبير في المجلات الشرقية الالمانية والفرنساوية والانكليزية . واشهر الذين اشتغلوا في حلها اوسياندر وهاليفي ومورتمان ومولر وغلازر وديرنبورغ وهومل.

(١) Dussaut 35 (٢) Ency. Br. art. Arabia

ولهذا الاخير كتاب باللغة الالمانية في نحو اللغة اليمنية والسبأية (الحميرية) وصرفها وقراءتها جزيل الفائدة

آثار شمالي جزيرة العرب

اما شمالي جزيرة العرب فقد أصابها مثل حظ الجنوب من حيث اهتمام المستشرقين بارتيادها فعثروا فيهـا على آثار هامة ووقفوا على بقايا دولة الانباط التي لا يعرف العرب عنها شيئاً ولها في تاريخ اليونان ذكر كثير . وكتابتها تعرف بالنبطية وجدوا منها نقوشاً كثيرة على آثار بطرا مدينـة الانباط وآثار الحجر مدينة ثمود (مدائن صالح) واكتشفوا في العلا وحوران وغيرها آثاراً عليها نقوش بالمسند (الخط الحميري) مع بعض التغيير فسموه باسماء اصطلحوا عليها منها الآثار الصفوية في جبل الصفا بحوران واللحيانية والثمودية فضلاً عن آثار تدمر وغيرهـا مما سيأتي تفصيله في مكانه

واشهر الذين ارتادوا شمالي بلاد العرب او اكتشفوا آثارها أو قرأوا نقوشها بوركهارت وغراهام وورتشتاين وبلغراف وفوجه وودنتن ودوتي واويتن وبلنت ودوسو فضلا عن هاليفي ومولر وليتمن وهومل ودي نبورغ وغيرهم من الذين اشتغلوا باحوال اليمن . والآثار التي اكتشفها هؤلاء وغيرهم في شمالي جزيرة العرب ليست عربية وانما هي سامية بعضها فينيقي والبعض الاخر آرامي عثروا عليها في فينيقية ومواب وزنجرلي وتيماء وفي بطرا والعلاء والحجر والصفا وبصرى وتدمر

واقدم النقوش التي اكتشفوها في هذه الاماكن لا يتجاوز تاريخها القرن التاسع قبل الميلاد وأحدثها في القرن الثالث بعده . وهي مكتوبة باقلام مختلفة أشهرها الفينيقي والآرامي والنبطي والتدمري والمسند . واكثرها أدعية او أخبار محلية وقتية او دينية قلما افادت التاريخ على اجماله الا من حيث ورود أسماء بعض الملوك او القواد أو الالهة التي تساعد على تحقيق الحوادث المدونة في الكتب

وبالجملة ان ما اكتشفوه من الآثار المنقوشة في بلاد العرب على قلة وسائط الاكتشاف قد اوضحت كثيراً من الحقائق التاريخية وذكرت دولاً وحوادث لم يذكرها التاريخ العربي ولا اليوناني

المصادر المنقوشة خارج بلاد العرب

ونريد بها آثار بابل واشور ومصر وفينيقية وقد يتبادر الى الذهن ان هذه الآثار بعيدة عن احوال العرب وتاريخهم ولكنهم وقفوا في آثار بابل على نقوش بالحرف المسماري استفادوا منها شيئاً كثيراً عن تاريخ العرب القديم على عهد العمالقة اوالعرب البائدة مما لم يذكره العرب ولا اليونان ولا وجدوهُ في نقوش بلاد العرب باليمن او الحجاز او غيرها . فاستدلوا مثلاً من قراءة آثار بابل وأشور على تأييد ما ذكره بروسوس مؤرخ تلك الدول من قيام دولة عربية تولت بابل بضعة قرون في الالف الثالث قبل الميلاد . وآثار مصر ايدت سيادة العمالقة على مصر نحو ذلك الزمن على ما نفصله في مكانه . فضلاً عما كان من اكتساح المصريين والاشوريين لبلاد العرب بعد ذهاب سيادة هؤلاء عن ذينك البلدين

الخلاصة

فقد عولنا في تأليف هذا الكتاب على ما كتبه العرب بعد تمحيصه وتنقيحه وعلى ما جاء في التوراة وما كتبه اليونان والرومان وما استخرجه علماء الآثار من قراءة النقوش في بلاد العرب جنوباً وشمالاً وما استخرجوه من آثار بابل واشور ومصر الى هذا العام (١٩٠٨) — لم نغادر كتاباً يبحث في شيء من ذلك بالعربية او الانكليزية او الفرنساوية او الالمانية الا طالعناه وتفهمناه — وهذه أهم الكتب التي استعنا بها في تأليف هذا الكتاب نذكرها بحسب لغاتها ونرتبها باعتبار الابجدية :

اولا — الكتب العربية

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته		
الاغاني ٢٠ جزءاً	ابو الفرج الاصفهاني	بولاق	١٢٨٥	هـ
تاريخ سني الملوك	حمزة الاصفهاني	ليبسك	١٨٤٨	م
« الامم والملوك ١١ ج	الطبري	ليدن	١٨٨٥	»
« اليعقوبي	ابن واضح اليعقوبي	«	١٨٨٣	»
السيرة النبوية ٣ ج	« هشام	بولاق	١٢٩٥	هـ
صفة جزيرة العرب	ابو محمد الهمداني	ليدن	١٨٨٤	م
طبقات الشعراء	ابن قتيبة	«	١٩٠٢	»
العبر وديوان المبتدا والخبر ٧ ج	ابن خلدون	بولاق	١٢٨٤	هـ

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته	
العقد الفريد ٣ اجزاء	ابن عبد ربه	مصر	١٣٠٥ هـ
الكامل ١٢ جزءًا	ابن الاثير	«	١٣٠٢ »
«	المبرد	«	١٢٨٦ »
كتاب الاشتقاق	ابن دريد	غوتجن	١٨٥٤ م
« البدء والتاريخ ٤ ج	البلخي	شالون	١٩٠٧ »
« المعارف	ابن قتيبة	مصر	١٣٠٠ هـ
لطائف المعارف	الثعالبي	ليدن	١٨٦٧ م
المختصر في اخبار البشر ٥ ج	ابو الفداء	القسطنطينية	١٢٨٦ هـ
مروج الذهب جزآن	المسعودي	مصر	١٣٠٤ »
المشترك وضعاً	ياقوت الحموي	غوتجن	١٨٤٦ م
معجم البلدان ٦ اجزاء	» «	ليبسك	١٨٧٠ »
معجم ما استعجم جزآن	البكري	غوتجن	١٨٧٧ »
نهاية الارب في قبائل العرب	القلقشندي	خط	
هيرودوتس	هيرودوتس	بيروت	١٨٨٧ »

ثانيا — الكتب الانكليزية

Alexander, Biblical Literature, 3 vol.,	Philadelphia.	1866
Babylonian Expedition, vol. III	„	1905
Bent, The Sacred City of the Ethiopians,	London.	1893
Browne, Literary Hist, of Persia, 2 vol.,	„	1906
Brugsch Bey, History of Egypt Under the Pharaohs 2 vol.	„	1881
Burton, The Land of Midian,	„	1879
„ The Gold mines of Midian,	„	1878
Clare, Library of Universal History, 8 vol.,	New York.	1897
Clay, Light on the Testament from Babel,	London.	1907
Cooke, North Semitic Inscriptions,	Oxford.	1903
Doughty, Travels in Arabia Deserta,	Cambridge.	1888
Edwards, The Hammurabi Code,	London.	1904
Forster, Historical Geography of Arabia, 2 vol.,		1844
Gibbon, Roman Empire, 2 vol.		

Harris, Journey through the Yaman,	London,	1893
Heeren, Historical Research, II,	Oxford,	1833
Hill, With the Bedwins,	London,	1891
Josephus, Antiquities of the Jews,	„	
Journal of the Royal Asiatic Society, several volumes,	„	1834—1907
King, Egypt and Western Asia in the light of recent discoveries,	„	1907
Margoliouth, Mohamed & the Rise of Islam,	„	1905
Msapero, The Dawn of Civilisation in Egypt & Chaldæ,	„	1894
Merril, East of the Jordan,	New York,	1881
Nicholson, Literary Hist. of the Arabs,	London,	1907
Old Testament and Semitic Studies. 2 vol.,	Chicago,	1908
Palgrave, Personal Narrative of a year's Journey, through Central and Eastern Arabia,	London,	1873
Plate, Ptolemy's knowledge of Arabia,	„	1845
Rawlinson, Five great Monarchies, 4 vol.,	„	1867
Redhause, Were Zenobia and Zebba'u Identical ?, (J. R. A. S.)	„	1887
Sharpe, History of Egypt, 2 vol.,	„	1885
Sprenger, The Campaign of Aelius Gallus (J. R. A. S.),	„	1873
Smith, Dictionary of the Bible. 8 vol.,	New York,	1868
Universal History, vol. XVIII,	London,	1748
Wellsted, Travels in Arabia, 2 vol.,	„	1838
Wilkinson, The Ancient Egyptians, 2 vol.,	„	1878

ثالثاً ــ الكتب الفرنساوية

Arnaud, Plan de la Digue & de la Ville de Mareb, J. A. 7me, Serie, IV	Paris,	1874
„ Relation d'un voyage à Mareb, J. A. 4me. serie, V	„	1845
Berger, Histoire de l'Ecriture dans l'Antiquité,	„	1891
„ l'Arabie avant Mohamed d'après les Inscriptions,	„	1885
Desverger, Histoire de l'Arabie,	„	1847
Dussaud, Les Arabes en Syrie avant l'Islam,	„	1907
Duval, La litterature Syriaque,	„	1900
Ganneau, La Province romaine de l'Orient, (Et. Arch. Ar. II),	„	1897
Goeje Hadramut, Revue Coloniale Internationale, II.	„	1887

Halévy Etudes Sabéennes, J. A. 7me. Serie, I. II. IV, Paris, 1873—74
„ Essai sur les Inscriptions du Safa, J. A. 7me. S. X & XVII. Paris, 1877—81
Journal Asiatique, plusieurs volumes, „ 1822—1907
Labourt, Le Christianisme dans l'Empire Perse, „ 1907
Lenormant, Manuel de l'histoire Ancienne de l'Orient, 3 vol., „ 1869
Maspero, Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient, 3 vol., „ 1899
Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes, 3 vol. „ 1847
Renan, Histoire des Langues Semitiques, „ 1855
Strabon, Geographie, 4 vol., „ 1886
Vogué, Syrie centrale, 3 vol., „ 1877
Volney, Voyage en Syrie et en Egypte, 2 vol., „ 1798

رابعاً ـ الكتب الالمانية

Blau, Die Wanderung der Sabaeischen Volkerstamme (Z. D. M. G.) 1868
Baedeker's Palastina uud Syren, Leipzig, 1991
Brunnow & Pomarzauski, Die Pronvincia Arabia, 3 vol., Strasburg, 1906
Euting, Nabatäische Inschriften aus Arabien, Berlin, 1881
Glaser, Der Damme von Marib, O. M. O. XXIII, 1897
„ Abessiner in Arabien & Africa, München, 1895
„ Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens von den altesten Zeiten, Band, II, Berlin, 1890
„ Südarabische Streifragen, Prag, 1887
„ Zwei Inschriften uber den Dammbruch von Marib, (Mith. Vordras. Ges.), 1887
Grimme, Weltgeschichte in Karakterbilden, Mohamed, München, 1904
Hommel, Südarabische Chrestomatie, „ 1893
„ Der Gestirn dienst den alten Araber & die alter Rahitische „ 1901
Kremer, Die Südarabische Sage, Leipzig, 1866
Lidzbarski, Handbuch der Nordsemitische Epigraphik, Weimar, 1893
Mordtman, Himjarische Inschriften und altertümer in den Kon. Mus., Berlin, 1893
Müller, Die Burgen und Schlösser Südarabiens nach dem Jklil des Hamadani, 2 heft., Wien, 1881

Müller, Südarabische Altertumer in künsthistorischen Hohemuseum, Wien, 1899
Nielson, Die altarabische Mondreligion und die Musaische Uberlieferung Strasburg, 1904
Noeldeke, Die Ghassanische Fürsten ans dem Hause Gafna's, Berlin, 1887
Rothstein, Die Dynastie der Lahmiden in Alhira, " 1891
Sprenger, Die alte Geographie Arabiens, Bern, 1873
Wellhausen, Reste Arabischen Heidentum, Berlin, 1897
Weber, Arabien vor dem Islam, Leipzig, 1901
Wuṣtenfeld, Genea. Tab. der Arabischen Stämme und Familien, Göttengen, 1852
Zeitschrift Der D. M. Gesel., Berlin, 1845 – 1907

هذه أهم الكتب التي استعنّا بها في تأليف القسم التاريخي من هذا الكتاب فضلا عما رجعنا اليه من الموسوعات والمعاجم الكبرى التاريخية والاثرية وغيرها

وسنشير في ذيل الصفحات الى بعض هذه المصادر ونكتفي غالباً بذكر اسم المؤلف الا اذا كان اسم الكتاب غالباً على شهرة مؤلفه فنذكر اسم الكتاب . واذا كان له غير كتاب ذكرنا بجانب اسمه ما يميز أحدها من الآخر

فبعد أن طالعنا هذه الكتب وتفهمناها وقابلنا بينها تمثل لنا تاريخ العرب قبل الاسلام على شكل بسطناه في هذا الكتاب ربما خالف ما ذهب اليه سوانا في بعض الاحوال ولا سيما في التاريخ القديم لقلة النصوص الصريحة فعولنا على الاستنتاج والقياس . ومتى زادنا الباحثون من استخراج آثار بلاد العرب وبابل واشور يزداد هذا التاريخ وضوحاً . لان الباقي تحت الرمال من تلك الآثار اكثر كثيراً مما كشفوه لكثرة الاعاصير السافية في جزيرة العرب التي تقذف الرمال الى الاودية فتتراكم فيها بتوالي الاعوام حتى تجعلها سهولا . وكل ما وصل الينا خبره من انقاض تلك البلاد وجدوه ظاهراً على القمم التي لم تغطها الاعاصير — فاولئك اذا نقبوا عما في السهول والاودية . وقد يكون ما يكتشفونه ناقضاً لبعض ما ذهبنا اليه فيصلح في حينه

جغرافية بلاد العرب

حدودها

اذا أريد ببلاد العرب جزيرتهم فقط فحدودها الطبيعية اربعة : شرقي شمالي يبدأ في الجنوب بخليج فارس من شواطئ عمان فالبحرين الى مصب الفرات ودجلة ثم على طول الفرات الى أعالي سوريا . وغربي شمالي يمتد من الفرات شرقي سوريا وفلسطين الى خليج العقبة . وشرقي جنوبي على طول البحر الاحمر الى باب المندب . وجنوبي غربي هو بحر العرب على شواطىء اليمن وحضرموت والشحر الى شواطىء عمان

أما العرب فكانوا يدخلون في جزيرتهم برية سيناء وفلسطين وسوريا . فحدودها عندهم تبدأ من قنسرين في الشمال على شاطىء الفرات وهو رأس حدها الشرقي ويمتد مع الفرات في مسيره جنوباً شرقياً حتى يصب في البحر عند البصرة والابلة ومنها على شاطىء خليج فارس مطيفاً على سفوان والقطيف وهجر واسياف البحرين وقطين وعمان . ثم ينعطف غرباً جنوبياً بشواطىء بحر العرب على الشحر وحضرموت الى عدن وينعطف شمالا غربياً على شواطىء البحر الاحمر الى خليج ايلة وساحل راية الى القلزم (السويس) ومنها الى بحر الروم ويسير فيه على شواطىء فلسطين وسوريا فيمر بسواحل عسقلان والاردن وبيروت الى قنسرين حيث بدأ . فهي عندهم تشتمل على شبه جزيرة سينا وفلسطين وسوريا وذلك اقرب الى التحديد الطبيعي لان الاصل في الحدود ان تكون انهراً او ابحراً او جبالاً عالية

على اننا اذا اردنا بجزيرة العرب البلاد التي كان يسكنها العرب على الاطلاق فنرى حدودها تختلف باختلاف الاعصر والدول فقد كانت في الزمن القديم تمتد من ضفاف الفرات غرباً الى ضفاف النيل لان بعض قبائلهم كانت على عهد الفراعنة تضرب خيامها في البادية بين النيل والبحر الاحمر . وكان المصريون من قديم الزمان يعتبرون كل ما هو شرقي بلادهم الى حدود بابل بلاد واحدة يسكنها العرب على ما سنبينه في ما يلي . ونكتفي الآن بالحدود المعروفة وهي الفرات من قنسرين لخليج فارس فبحر العرب فالبحر الاحمر لخليج العقبة لحدود فلسطين وسوريا الى الفرات

أقسامها

واختلفت اقسامها ايضاً باختلاف الاعصر فكانوا يقسمونها قديماً باعتبار طبائع اقاليمها الى البادية في الشمال والحاضرة في الجنوب . والبادية تشمل القسم الشمالي من تلك الجزيرة من مشارف الشام الى حدود نجد والحجاز . والقسم الجنوبي يشمل سائر جزيرة العرب وفيها الحجاز ونجد واليمن وغيرها. ثم أضاف اليونان الى هذين القسمين قسماً ثالثاً سموه العربية الحجرية Arabia Petra نسبة الى بطرا في وادي موسى جنوبي فلسطين فاصبحت بلاد العرب عند بطليموس القلوذي ثلاثة اقسام : البادية Arabia Deserta والحجرية Arabia Petra والسعيدة Arabia Felix ومما ذكره بطليموس من مدنها في ذلك العهد تيماء وحويلة ودوماثه (دومة الجندل) واورانا (حوران) وغيرها في البادية . وبطرا وبصرا وجرش وعمان واذرع وليزا وغيرها في العربية الحجرية . وسبا ومأرب وظفار وحضرموت وعمان والحجر وغيرها في العربية السعيدة . غير ما ذكره من اسماء القبائل والامم ومنها ما لم يعرفه العرب — وظل تقسيم بطليموس مرعياً في اوربا الى عهد غير بعيد

اما العرب فيقسمونها الى أقسام طبيعية باعتبار المواضع واقاليمها . واساس تقسيمها عندهم جبل السراة وهو أعظم جبال جزيرة العرب عبارة عن سلسلة جبال تبدأ في اليمن وتمتد شمالا الى أطراف بادية الشام فتقسم جزيرة العرب الى شطرين غربي وشرقي : فالغربي وهو أصغرها ينحدر من سفح ذلك الجبل حتى يصل الى شاطىء البحر الاحمر وقد صار هابطاً او غائراً فسموه الغور او تهامة . والقسم الشرقي اكبرهما يمتد شرقاً وهو على ارتفاعه مسافة طويلة الى أطراف العراق والسماوة فسموه نجداً لذلك السبب . وسموا الجبل الفاصل بين تهامة ونجد « الحجاز » وهو جبال تتخللها المدن والقرى . وجعلوا ما تنتهي به نجد في الشرق حتى يصل الى خليج فارس بلاد اليمامة والبحرين وعمان وما والاها ويسمونها العروض وسموا القسم الجنوبي وراء الحجاز ونجد بلاد اليمن وحضرموت والشحر

فجزيرة العرب تقسم بهذا الاعتبار الى خمسة أقسام كبرى الحجاز وتهامة ونجد والعروض واليمن وكل منها يقسم الى اقسام اختلفت اسماؤها وحدودها باختلاف الاعصر والدول فالحجاز يشمل كل شمالي جزيرة العرب والطائف وجدة وينبع وغيرها . واليمن يشمل معظم بلاد الجنوب ويعدون حضرموت والشحر منها واشهر مدنها الآن صنعاء وشبوة وغيرهما . وتقسم اليمن الى مخاليف واحدها مخلاف وسنعود الى ذلك فى اثناء تاريخها

العرب

اذا قلنا « العرب » اليوم أردنا سكان جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والسودان والمغرب . أما قبل الاسلام فكان يراد بالعرب سكان جزيرة العرب فقط لان أهل العراق والشام كانوا من السريان والكلدان والانباط واليهود واليونان وأهل مصر من الاقباط وأهل المغرب من البربر واليونان والفندال وأهل السودان من النوبة والزنوج وغيرهم . فلما ظهر الاسلام وانتشر العرب في الارض توطنوا هذه البلاد وغلب لسانهم على ألسنة أهلها فسموا عرباً

أما في التاريخ القديم على عهد الفراعنة والاشوريين والفينيقيين فكانوا يريدون بالعرب أهل البادية في القسم الشمالي من جزيرة العرب وشرقي وادي النيل في البقعة الممتدة بين الفرات في الشرق والنيل في الغرب [١] ويدخل فيها بادية العراق والشام وشبه جزيرة سينا وما يتصل بها من شرقي الدلتا والبادية الشرقية بمصر بين النيل والبحر الاحمر . وكان وادي النيل هو الفاصل الطبيعي بين ليبيا في الغرب وبلاد العرب في الشرق . وكان المصريون يسمون الجبل الشرقي الذي يحد النيل في الشرق جبل العرب او بلاد العرب ويسمون الجبل الغربي جبل ليبيا

ولفظ « عرب » في التاريخ القديم كان يرادف لفظ « بدو » أو بادية » في هذه الايام وهو معنى هذا اللفظ في اللغات السامية ومنها ערבה في اللغة العبرانية « البادية » يقابلها في اللغة العربية « العرابة » في وادي موسى والاعراب سكان البادية خاصة ولا مفرد لها . على ان العرب كانوا يسمون جزيرتهم « عربة » [٢] ولما تحضر بعض قبائل العرب قديماً واقاموا في مدن اليمن والحجاز وحوران وغيرها لم يعد لفظ « العرب » محصوراً في « البدو » فتنوع معناه كما تنوع مسماه فاضطروا الى كلمات تميز بين الحالين فاستعملوا لفظ « الحضر » لاهل المدن و « البدو » لاهل البادية . ولم يبق للفظ « العرب » من معنى البداوة الآن الا في مثل قولهم اعرابي كما تقدم . وكان السبأيون (دولة سبأ) الى تاريخ الميلاد اذا ذكروا بعض قبائل الحضر وبدوها قالوا « القبيلة الفلانية واعرابها » . وكان أولئك العرب أو البدو سكان تلك البادية في شمالي جزيرة العرب يقسمون الى قبائل وبطون وعمائر كما كان حالها قبل الاسلام وبعده

(١) هيرودوتس ١١٢ (٢) ياقوت ٦٣٣ ج ٣

أما جنوبي جزيرة العرب بين خليج فارس والبحر الاحمر فكان اليونان القدماء يعدونهُ من اثيوبيا (الحبشة) فيجعلون الحبشة واليمن وضفاف خليج فارس اقليماً واحداً يسمونه «اثيوبيا آسيا» [١] وسكانه أمم وقبائل تعرف باسماء خاصة بها كالسبأيين والحجريين والمعينيين وغيرهم كما سيأتي

وما لبث اليونان ان استبدوا بالتمدن الشرقي واقاموا في الاسكندرية على عهد البطالسة حتى غيروا تلك الاسماء واطلقوا على الجزيرة كلها اسم بلاد العرب وقسموها الى أقسامها الثلاثة التي تقدم ذكرها. ثم قسمها العرب الى خمسة أقسام وسموا أهلها على الاجمال عرباً باطلاق الجزء على الكل كما أطلق الجغرافيون لفظ «آسيا» على قارة آسيا وكانوا يريدون بها على عهد اليونان آسيا الصغرى. واطلقوا أفريقيا على القارة كلها وكانت اسم جزئها الشمالي فقط. ولنفس هذا السبب اطلق اليونان على أهل جزيرة العرب لفظ ساراسين Saracen وهو اسم قبيلة من سكان اعالي الجزيرة يظن بعضهم انها منحوتة من «الشرقيين» لان تلك القبيلة كانت تقيم في شرقي جبل السراة. [٢] ولذلك ايضاً يعرف العرب عند السريانيين باسم «طاية» نسبة الى طيء احدى قبائلهم. وعلى هذا القياس يسمي العرب اهل اوربا «افرنج» وهو في الاصل اسم امة منهم هم «الفرانك» ويعرف السوريون اليوم باسماء تختلف باختلاف المهاجر فهم يسمون في الاستانة «حلبية» لان اقدم من نزح اليها منهم الحلبيون ويسمون في العراق البيارتة نسبة الى بيروت. وفي مصر «الشوام» نسبة الى الشام لان أهلها أقدم من هاجر الى مصر من السوريين

من هم العرب

واين هو مهد الساميين

اصطلح المؤرخون في هذا العصر ان يسموا الشعوب التي تتفاهم بالعربية والعبرانية والسريانية والحبشية والتي كانت تتفاهم بالفينيقية والاشورية والآرامية «شعوباً سامية» نسبة الى سام بن نوح لان هذه الامم جاء في التوراة انها من نسله وسموا لغاتهم اللغات السامية. ولا خلاف في ان هذه اللغات متشابهة في الفاظها وتراكيبها وانها من أصل واحد يسمونه «اللغة السامية» كما تتشابه فروع اللغة اللاتينية او فروع السنسكريتية فيقال

(١) Rawlinson, I, 61 (٢) Glaser, Geo. II, 230

مثلاً ان اللغتين الايطالية والاسبانية اختان امهما اللغة اللاتينية وان الفارسية والاوردية اختان أمهما السنسكريتية كما يقال ان لغات العامة في الشام ومصر والمغرب والحجاز اخوات امهنّ اللغة العربية الفصحى . فهذه الامهات لا تزال محفوظة يمكن رد بناتها اليها اما ام اللغات السامية فلا وجود لها الآن وقد ظن بعض فلاسفة اللغة انها العبرانية وزعم غيرهم انها العربية وغيرهم انها البابلية ولا تخرج أقوالهم عن حد التخمين

واختلفوا ايضاً في موطن الساميين الاصلي ولهم في ذلك ابحاث طويلة لا فائدة من ايرادها ويقال بالاجمال انها ترجع الى اثنين ــ الاول : رأي أصحاب التوراة ان مهد الانسان في ما بين النهرين ومنهُ تفرق في الارض فاشتق من الساميين الاشوريون والبابليون في العراق والآراميون في الشام والفينيقيون على شواطىء سوريا والعبرانيون في فلسطين والعرب في جزيرة العرب والاثيوبيون في الحبشة . ومرجعهم في اثبات ذلك الى أقوال التوراة . ولا يقول هذا القول من علماء هذا العصر الا قليلون [١]

أما المستشرقون فنظروا في ذلك باعتبار اللغات واشتقاقها فرأت طائفة منهم مشابهة بين اللغات السامية والحامية (لغات افريقيا) فذهبوا الى أن مهد الساميين في أفريقيا ونظراً لقرب الحبشة من بلاد العرب اقليما ولغة قالوا ان مهد الساميين الحبشة ومن أصحاب هذا المذهب سالت وريتر . وذهبت طائفة أخرى وفي مقدمتها سبرنجر وشريدر ونكلر الالمانيون وروبرتسن سميث الانكليزي ان مهد الساميين جزيرة العرب ومنها تفرقوا في الارض كما تفرقوا في صدر الاسلام . ولهم على ذلك أدلة وجيهة بعضها لغوي والبعض الآخر اجتماعي أو اخلاقي وتطرف بعضهم بذلك حتى حصروا ذلك المهد في بادية الشام الى نجد . ومن أدلتهم على صحة مذهبهم ان اللغة العربية أقرب اخواتها الى اللغة السامية الاصلية وان في العبرانية والآرامية آثار الحياة البدوية وهي عربية

وذهبت طائفة أخرى زعيمها اغنازيو جويدي المستشرق الايطالي ان مهد الساميين في جنوبي الفرات اسند اقواله الى أسباب جغرافية طبيعية تتعلق بتفرق النبات والحيوان واسمائها في اللغات السامية . وتوسع آخرون في آرائهم من هذا القبيل فقالوا ان أصل الساميين في الحبشة وانهم عبروا الى جزيرة العرب من بوغاز باب المندب الى اليمن قبل زمن التاريخ وتكاثروا هناك وانتقلوا من اليمن الى الحجاز ونجد والبحرين ثم نزحت

(١) Ency. Brit. Art. Arabia. & Dussaud. 18

طائفة منهم الى فلسطين وفيها الفلسطينيون القدماء وطائفة الى العراق وأهل العراق يومئذ السومريون أو الاكاديون [١] وهم طورانيون (من جنس المغول) وقد تمدنوا وتحضروا . وطائفة الى فينيقية فغلب الساميون على تلك البلاد وانشأوا دول بابل واشور وفينيقية وفلسطين وغيرها . ويرى أصحاب هذا المذهب ان العبرانيين نزحوا من الحجاز والاراميين من نجد لان آرام معناها الجبال ونجد جبلية . ويستشهدون على صحة رأيهم بما ذكره هيرودوتس عن نزوح الفينيقيين في الاصل من شاطىء خليج العجم

ويقال بالاجمال ان مسألة مهد الساميين لا تزال من المسائل الغامضة التي يجب تركها حتى تتسع معارفنا بما يكشفونه من الآثار العربية والاشورية والبابلية وغيرها . ومهما يكن من أمر ذلك المهد فان الامم التي تفرقت منه كانت تتكلم عند تفرقها لغة واحدة هي اللغة السامية الاصلية ثم تغيرت تلك اللغة حسب الاقاليم وعلى مقتضى ناموس الارتقاء وتباعدت الفاظها وتراكيبها ولا تزال تشترك في خصائص تميزها عن سواها من اللغات الارية والطورانية

البداوة غذاء الحضارة

فلندع البحث في ما هو قبل التاريخ ونأت الى زمن التاريخ فيظهر لنا ان أقدم الامم السامية التي تمدنت وخلفت آثاراً البابليون تمدنوا في الالف الثالث قبل الميلاد[٢] وهو الزمن الذين نزح فيه الفينيقيون من خليج فارس الى سوريا [٣] على ما يظن . وكانت بابل بلاد حضارة وتمدن قبل ذلك الحين باجيال وسكانها السومريون [٤] . فاقام الساميون اولا في غربيها ببادية العراق والشام وهم قبائل رحل يعيشون على الساعة والغزو مثل بدو هذه الايام هناك وكما كان بنو لخم وغسان في صدر الاسلام . فكان السومريون يستعينون بهم في محاربة اعدائهم كما كان الفرس والروم يستعينون باللخميين والغساسنة لان الغلبة كانت يومئذ للقوة البدنية . والحضارة تبعث على الرخاء والترف والانغماس بالملذات والاركان الى الراحة فتذهب تلك القوة وتأول الى الضعف . والبداوة تقوي الابدان وتربي النفوس على الاستقلال فلذلك كان أهل الحضارة أو المدن يستعينون باهل البداوة أو الجبال في ما يحتاج الى جهد . حتى اذا شاخت الدولة المتحضرة خلفها جيرانها البدو أو الجبليون بالفتح أو نحوه وقاموا مقامها واقتبسوا عادات أهلها ودياناتهم . ثم لا يلبثون أن يدركهم الهرم فيخلفهم سواهم من أهل البادية سنة

---

(١) Grimme, 10 & 14 (٢) Clay, 75 (٣) هيرودوتس ٤٦٨

(٤) King, 135—143

الله في خلقه . كان اهل البادية أو الجبال مصدر الغذاء للمدن يحيون أهلها بالنزول بينهم والتزوج فيهم ويربون لهم الماشية والساعة لغذائهم وركوبهم . وكان المدن مهلك الابدان والعقول يأتيها البدو بنشاطهم وانفتهم فلا يلبثون ان يتحضروا ويركنوا الى الرخاء حتى تنحل عزائمهم ويتولاهم الضعف ويتفشى فيهم الذل فيأتي من يقوم مقامهم . وقد يتسرب ذلك الغذاء تدريجاً عن يفد على المدن من أهل الجبال المجاورة كما يجري في سوريا لهذا العهد فان مدنها تجدد قواها عن ينزلها من أهل لبنان . واذا تأملت النهضة الاخيرة في الشام رأيت القائمين بها اكثرهم من أهل ذلك الجيل النشيط

هذا هو شأن العالم من قديم الزمان حتى الآن — فالعراق أو ما بين النهرين بلاد خصب ورخاء نزلها الطورانيون قديماً جاؤوها وهم أهل بادية أو جبال فطاردوا قوماً كانوا فيها من أهل الرخاء لم يصلنا خبرهم وانشأوا فيها تمدناً حسناً واتخذوا آلهة وشرائع واستنبطوا كتابة صورية تحولت بتوالي الاجيال الى الشكل المسماري المعروف. ولما تحضروا وغلب عليهم الرخاء جاءهم الساميون من البادية وغلبوهم على ما في ايديهم واخذوا آلهتهم وشرائعهم وزادوا فيها أو حسنوها . وقد تدرجوا في التغلب والتحضر على الاسلوب الآتي :

كان الساميون في اعالي جزيرة العرب وقد خيم بعضهم في البادية بين العراق والشام فالمقيمون منهم قرب الفرات كانوا يتسربون تدريجاً الى المدن المجاورة . فمن تحضر منهم هناك خدم دولتها في الحروب أو غيرها مما يحتاج الى قوة بدنية ثم يندمج في أهلها. وكان سكان المدن يسمون أهل تلك البادية « آراميين » [1] أي اهل الجبال . وأهل ما بين النهرين يسمونهم « عمورو » أي أهل الغرب لان بلادهم واقعة غربي الفرات وهو اسمهم القديم في بابل . وقد يراد بالعمورو أهل غربي الفرات من بدو وحضر الى البحر المتوسط [2] ثم سموهم « عربي » أو عرب ومعناها ايضاً في اللغة السامية الاصلية « الغربيون » وكانوا يسمون بلادهم « مات عربي » أي بلاد الغربيين أو بلاد العرب وبما أن تلك البلاد صحراء بادية صار لفظ « عرب » في اللغات السامية يدل على البادية ايضاً ومنها ערב في العبرانية والاعرابي في العربية كما تقدم . وبهذا المعنى سماهم المصريون القدماء أيضاً « شاسو » أي البدو أو أهل البادية كما سيأتي

ويشبه ذلك ما حدث في مصر لهذا العهد فانهم يعبرون عن الشمالي عندهم بالبحري

(١) Rawlinson II. 419—483 (٢) Clav 16. 138. 146

لان البحر في شمالي بلادهم وعن الجنوب بالقبلي ومدلوله في الاصل جهة قبلة الكعبة .
ومنها تسمية شرقي الدلتا بالشرقية وأهلها شرقاوية وما يليها الى الغرب « الغربية »
ويسمون اهل شمالي افريقيا مغاربة لانهم في غربي بلادهم
تلك كانت عادة القدماء في تسمية الامم عما كنهم بالنظر الى غروب الشمس أو
شروقها . ولذلك كان العبرانيون يسمون العرب « أهل المشرق » בני קדם لان مقامهم
في تلك البادية يقع شرقي فلسطين

أقسام تاريخ العرب

اصطلح مؤرخو العرب ان يقسموا تاريخ العرب قبل الاسلام الى قسمين : العرب البائدة والعرب الباقية . ويريدون بالبائدة القبائل القديمة التي بادت قبل الاسلام . والباقية عندهم قسمان (١) العرب القحطانية من حمير ونحوها من أهل اليمن وفروعها (٢) العرب العدنانية في الحجاز وما يليها . واختلف نظر الباحثين في العرب من هذا القبيل اختلافاً كثيراً لا فائدة من ذكره

وقد تبين لنا بدرس أحوال العرب وتاريخهم من اقدم ازمانهم الى ظهور الاسلام انهم مروا بثلاثة أدوار كبرى . كانت السيادة في الدور الأول أو القديم لقبائل القسم الشمالي من جزيرة العرب واكثرهم من العرب البائدة . وفي الدور الثاني المتوسط كانت السيادة فيه لعرب القسم الجنوبي واكثرهم من القحطانية . والدور الثالث أو الاخير عادت السيادة فيه الى الشمال وينتهي بظهور الاسلام واكثر قبائله من العدنانية . فلا بأس اذا تابعنا القدماء في تقسيمهم مع ما يقتضيه ذلك من التعديل في أثناء الكلام

فنقسم هذا التاريخ الى ثلاث طبقات

(١) العرب البائدة أو عرب الشمال في الطور الاول
(٢) القحطانية أو دول الجنوب
(٣) العدنانية أو عرب الشمال في الطور الثاني

فنتقدم للكلام في كل منها

الطبقة الاولى

العرب البائدة

أو عرب الشمال في الطور الاول

يقول العرب أن هذه الطبقة تشتمل على عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس واميم وجرهم وحضرموت ومن ينتمي اليهم ويسمونها العرب العاربة وانهم من ابناء سام — قال ابن خلدون « وكان لهذه الامم ملوك ودول في جزيرة العرب وامتد ملكهم فيها الى الشام ومصر في شعوب منهم ويقال انهم انتقلوا الى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام فسكنوا جزيرة العرب بادية مخيمين . ثم كان لكل فرقة منهم ملوك واطام وقصور الى أن غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان »[1] وقال في مكان آخر « ان قوم عاد والعمالقة ملكوا العراق »[2]

واذا تدبرت ما نقله العرب عن القبائل البائدة رأيتهم يقسمونهم الى قسمين العماليق من نسل لاوذ بن سام وسائر القبائل البائدة من نسل أرم بن سام[3] قال ابن خلدون « كان يقال عاد ارم فلما هلكوا قيل ثمود ارم فلما هلكوا قيل نمرود ارم فلما هلكوا قيل سائر ولد ارم ارمان »[4]

فالعرب يعدون العرب البائدة ساميين من نسل ارم أي آراميين الا العمالقة فيقولون انهم من نسل لاوذ بن سام أخي ارم ويقولون انهم ملكوا العراق « بابل » ثم نزحوا منها الى جزيرة العرب . فهذا القول على اختصاره يوافق خلاصة ما وصلنا اليه بعد النظر في ما اكتشفه العلماء في بابل واشور من النقوش أو قرأوه في كتب اليونان وغيرهم .

وايضاحاً للموضوع نقدم الكلام في العمالقة لانهم في اعتقادنا أصل سائر العرب البائدة أو هو اسم يشملهم جميعاً

---

(١) ابن خلدون ١٨ ج ٢ (٢) ابن خلدون ٢٥٩ ج ٢ (٣) حمزة ١٢٢ و ١٢٨
(٤) ابن خلدون ٧١ ج ٢

العمالقة

يريد المؤرخون بالعمالقة قدماء العرب وخصوصاً أهل شمالي الحجاز مما يلي جزيرة سينا الذين فتحوا مصر باسم الشاسو (البدو أو الرعاة) ويسميهم اليونان « هيكسوس » . وأصل لفظ « العمالقة » مجهول والغالب في نظرنا انهم نحتوه من اسم قبيلة عربية كانت مواطنها بجهات العقبة أو شماليها حيث كان العماليق على قول التوراة ويسميها البابليون « ماليق » أو « مالوق »[١] فاضاف اليها اليهود لفظ «عم» أي الشعب أو الامة فقالوا « عم ماليق » أو « عم مالوق » فقال العرب عماليق أو عمالقة ثم أطلقوه على طائفة كبيرة من العرب القدماء مجاراة لهم بهذه التسمية

وقد تقدم ان النسابين يرجعون بانساب العرب البائدة الى ارم وينسبون العماليق الى أخيه لاوذ وهم في خلاف كثير من هذا القبيل . وسنعول على ما شهده التاريخ من أحوال هذه الامم وما كان لها من السلطان في ذلك العهد . وكان للعمالقة دولتان كبيرتان احداها في العراق والاخرى في مصر

العمالقة في العراق

اقدم من ذكر سيادة العرب على العراق كاهن كلداني اسمه بروسوس من أهل القرن الرابع قبل الميلاد عاصر الاسكندر وبعض خلفائه . وكان عالماً باللغة اليونانية فنقل تاريخ بلاده اليها وجعل كتابه هدية الى انطيوخوس ملك سوريا . وقد ضاع ذلك الكتاب وانما عرفه الناس من نصوص نقلها عنه ابولودوروس وبوليسنور من أهل القرن الاول قبل الميلاد وعنهما نقل اوسابيوس وسنسلوس . ويبدأ بروسوس تاريخه بالخليقة حتى ينتهي الى ايامه . وقد وضع للدول التي توالت على ما بين النهرين جدولاً هذا نصه :

اسم الدولة	عدد ملوكها	سنو حكمهم
دول قبل الطوفان	١٠	٤٣٢٠٠٠
دول بعد الطوفان	٨٦	٣٤٠٨٠
دولة مادي	٨	٢٢٤

(١) Record of the Past I. 20, 57

دول أخرى	(ضاعت أرقامها)	
دولة الكلدان	٤٩	٤٥٨
دولة العرب	٩	٢٤٥
دولة الاشوريين	٤٥	٥٢٦

وقد انتقد المؤرخون هذا الجدول لما في قسمه الأول من المبالغات وعدّوه خرافياً الا كلامه عن دولة مادي وما بعدها فقد عدوه تاريخياً . وفي جملة ذلك دولة العرب التي يقول بروسوس ان عدد ملوكها تسعة وسني حكمها ٢٤٥ سنة تأتي بعد دولة الكلدان وتنتهي بدولة الاشوريين . ودولة العرب المشار اليها توافق ما يسميه المؤرخون الآن الدولة البابلية الأولى او دولة حمورابي نسبة الى حمورابي الشهير أكبر ملوكها وصاحب أقدم كتب الشريعة في العالم [1] والمعول عليه اليوم ان حمورابي هذا من أهل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد . وبروسوس لم يذكر دولة العرب بتفصيل يدل على كيفية تسلطها على بابل بالفتح او بالصلح او بالغزو

وللمستشرقين أقوال في دولة حمورابي هذه هل هي دولة العرب التي ذكرها بروسوس ؟ واختلفت آراؤهم في ذلك . وقبل التقدم الى ابداء رأينا في هذه الدولة نذكر فذلكة من تاريخ تلك البلاد وأحوالها في أول أمرها

حكومة ما بين النهرين قديماً

كانت حكومة ما بين النهرين قديماً أقرب الى شكل الاقطاع منها الى الدولة المنظمة فكانت تقسم الى امارات او مشيخات تفصل بينها مجاري الماء او الجداول أو الاقنية المشتقة من الفرات ودجلة تتألف كل مشيخة من هيكل وكهنة عليهم رئيس يسمونه « باتيسي » هو الحاكم وصاحب الاقطاع وتحته نائب يباشر الحكومة وله قصر او قصور لخاصته من الشرفاء وحول تلك القصور أكواخ او بيوت صغيرة يقيم فيها العمال والفلاحون . وتسمى تلك « المملكة » الصغيرة باسم اله ذلك الهيكل . فكان في ما بين النهرين عشرات او مئات من أمثال هذه المشيخات او الممالك الصغيرة يتفاوت رؤساؤها قوة وسطوة بتفاوت مواهبهم . فيتفق ان يطمع أحدهم بجيرانه ويكون فيه الاستعداد للفتح فيغلب على بعضهم او كلهم وينشىء دولة يذيع خبرها ويبقى ذكرها [2]

(١) الهلال سنة ١٣ جزء ٤و٥ (٢) Der Alte Orient, IX. 3

فيصبح ذلك الرئيس ملكاً عاماً تعرف دولته باسم اله هيكله وتبقى سائر المشيخات او الامارات او الممالك الصغيرة مستقلة بامورها الدينية تحت سيطرته — ذلك كان شأن ما بين النهرين قبل تمدنها . فلما نزلها السومريون والاكاديون عم كل منهما سطوته على احد قسميها الشمالي والجنوبي وفتحوا ما حواليها

ولما جاءها الساميون نزلوا أولا في القسم الشمالي منها ثم الجنوبي وانتشروا انتشاراً كثيراً . ثم نبغ سرجون الاول سنة ٣٨٠٠ ق م واستقل بمملكة بابل هو وابنه نرام سين . ويؤخذ من نصب اكتشفوه هناك في العام قبل الماضي . ان هذا الملك سامي العنصر لانه كتب فتوحه بلغة سامية . فيكون الساميون قد شاركوا السومريين في الحكم من ذلك العهد البعيد (١)

وامتدت سلطة سرجون وابنائه من بلاد الفرس في الشرق الى البحر المتوسط وجزيرة سينا في العرب واسم هذه الجزيرة عندهم مغان (او معان) . ولسرجون هذا في آثار بابل حكاية عن ولادته ونشوئه تشبه قصة موسى . وارتقت بابل في ايامه ارتقاء عظيماً وتوالى عليها بعده ملوك ودول لا غرض لنا لذكرها هنا حتى ضعف امر السومريين فاتيح الساميين الاستبداد في السلطة. وأول ملوكهم اسمه « سامو ابي » أي « سام ابي » أو « ابن سام » هو رأس دولة حمورابي او الدولة البابلية الاولى

دولة حمورابي

او الدولة البابلية الاولى

من سنة ٢٤٦٠ ق م – ٢٠٨١ ق م

استولى سامو ابي اولاً على شمالي بابل نحو سنة ٢٤٦٠ ق م وكان جنوبيها يومئذٍ في حوزة ملك عيلامي . وخلف سامو ابي ابنه « سامو ليلا » وانتقل الى بابل فاتخذها كرسياً لمملكته وهو اول من فعل ذلك . وتوالى بعده خلفاؤه من اسرته كما سيأتي حتى أفضى الملك الى حمورابي وهو سادسهم فناهض العلاميين في الجنوب وعليهم ملك اسمه في آثار بابل « كدرلاقر » وهو « كدرلاعومر » التوارة . والظاهر ان كدرلاعومر فتح بابل اولاً ثم غلبه حمورابي في السنة الثلاثين من عمره وذهب بدولة

(١) King.158 & 223

العيلاميين ثم مشى حمورابي بفتوحه غرباً الى البحر المتوسط ودخلت أشور في حوزته. وخلف حمورابي ملوك من اشرته آخرهم « شمسوديتانا » خرجت السيادة منه الى دولة أخرى حكمت ٣٦٨ سنة ثم دولة القاصية Kassites سنة ١٨٠٠ ق م وفي ايامها خرجت سوريا وفلسطين من سلطة بابل واستقلتا . واستقلت اشور بحكومتها، واول من استقل بها رؤساء حكومتها

وكانت بابل عاصمة غربي آسيا لا يثبت امير على امارته الا بعد ان يشخص اليها وينال التصديق انه « ابن بعل » كما أصبحت رومية بعد انحلال المملكة الرومانية وبغداد في أواخر الدولة العباسية . وفي أثناء ذلك قامت بين اشور وبابل منازعات تغلبت فيها اشور سنة ١٢٨٠ ق م ففتح تغلات نئيب بابل وأصبحت من ذلك الحين ولاية اشورية. وأخيراً دخلت اشور كلها في سلطة كورش الفارسي سنة ٥٣٨ ق م [١]

فالآراميون الذين نزلوا بادية العراق والشام تسرب بعضهم الى العراق على جاري العادة في تغذية المدن من نتاج البادية وتحضروا وتولى بعضهم الملك في الالف الرابع قبل الميلاد [٢] وظل سائرهم في البادية غربي الفرات تستعين بهم الدولة عند الحاجة وامتازوا عن اخوانهم المتحضرين باسم أهل الغرب (عمورو ثم عربي) كما تقدم . واختلفت لغة المتحضرين منهم عن لغة البدو كما اختلفت لغة العرب الذين نزلوا الشام ومصر بعد الاسلام عن لغة الذين ظلوا في البادية

وفي اواسط الالف الثالث قبل الميلاد دخل الآراميون في دور جديد فتدرجوا في الرقي بما امتازوا به من النشاط فحازوا الارضين وملكوا الاقطاع وفي جملة المالكين « سمو ابي » جد عائلة حمورابي فاستعان بابناء قبيلته في توسيع دائرة سلطنه . وفعل خلفاؤه فعله حتى امتد لواء سلطانهم على معظم المدن العامرة في غربي آسيا وعرفت دولتهم بالدولة البابلية الاولى وعدد ملوكها ١١ ملكاً حكموا ثلاثة قرون بين القرن ٢٤ و٢١ قبل الميلاد وهذه اسماء ملوكها ومدة حكمهم [٣]

اسم الملك	مدة حكمه	من سنة ق م		الى سنة ق م
ساموابي	٣١	٢٤١٦	—	٢٣٨٥
ساموليلو	١٥	٢٣٨٥	—	٢٣٧٠

(١) Ency Brit, ed. London, supl. art. Babel (٢) King, 228

(٣) Maspero, Hist. Anc. II, 27

زابوم	٤٥	٢٣٧٠	—	٢٣٣٥
اميل سين	١٨	٢٣٣٥	—	٢٣١٧
سينموبليت	٣٠	٢٣١٧	—	٢٢٨٧
حورابي	٥٥	٢٢٨٧	—	٢٢٣٢
شمسوايلونا	٣٥	٢٢٣٢	—	٢١٩٧
ايشوع	٢٥	٢١٩٧	—	٢١٧٢
عمي ديتانا	٢٥	٢١٧٢	—	٢١٤٧
عمي صادوقا	٣٤	٢١٤٧	—	٢١١٣
شمسوديتانا	٣١	٢١١٣	—	٢٠٨٢
(المجموع[1])	٣٣٤			

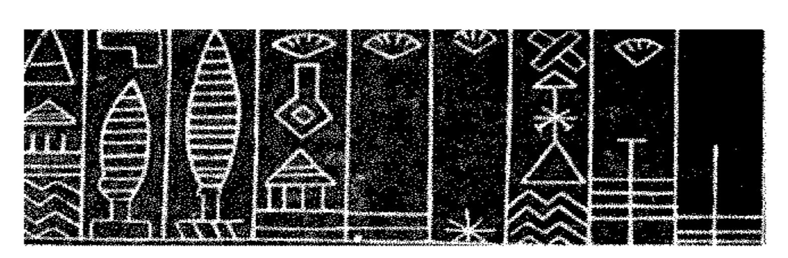


ش ٣ – حورابي بين يدي اله الشمس

هذا ما اورده ماسبرو عن ملوك هذه الدولة وقد خالفه كلاي في بعض التفاصيل من حيث مدات الحكم [١] مما لا يعتدُّ به بالنظر لما نحن فيه

وفي اثناء هذه الدولة ظهر ابراهيم الخليل وهاجر من اور الكلدانيين . وقد بلغت قمة مجدها في ايام حمورابي فانه كان فاتحاً عظيماً ومصلحاً كبيراً ومن جملة البلاد التي فتحها « سومر » او « شومر » أي بلاد السومريين فصار من جملة ألقابه « ملك بابل وشومر » فذهب بعضهم لذلك ان حمورابي هذا هو « امرافيل » ملك شنعار الوارد ذكره في الاصحاح الرابع عشر من سفر الخليقة لتقارب اللفظ والمعنى لان حمورابي تكتب ايضاً « امورابي » « واموارفي » . وشومر تقلب الى « شينار » او شنعار بسهولة [٢] والزمن متقارب بين الملكين

كان السومريون قبل هذه الدولة قد اتخذوا ديناً ووضعوا شريعة واخترعوا كتابة ولهم لغة خاصة . فلما غلبهم الحورابيون اقتبسوا تمدنهم ونظاماتهم كما فعل العرب المسلمون بعدهم بدولة الفرس . وكان الحورابيون في اول دولتهم يستخدمون اللغة السومرية في المكاتبات ثم اهملوها بالتدريج حتى ذهبت وذهب معها العنصر السومري [٣] وبقي العنصر السامي كما تغلب العنصر العربي بمصر والشام بعد الاسلام بتغلب اللغة العربية . ولكن الحورابيين استبقوا الخط السومري وهو القلم المسماري لانهم استخدموه في تدوين لسانهم وزادوا فيه احرفاً لم تكن في السومرية



ش ٤ ــ القلم المسماري القديم على عهد السومريين لا يزال شكله صورياً

وكان القلم المذكور في أصل وضعه صورياً مثل الهيروغليف المصري كما ترى في الشكل الرابع ثم تشوّه شكله بالاستعمال وباستخدام المسامير في طبعه على الطين فصار على هذه الصورة [illegible]

(١) Clay, 145 (٢) Clay. 127 (٣) Clay, 93 و King 228

اما المسلمون فاهملوا الاقلام التي كانت شائعة قبلهم في العراق وفارس والشام ومصر وهي الفهلوي والكلداني والقبطي وغيرها ونشروا قلماً حملوه معهم كان يستخدمه عرب مشارف الشام وأعالي الحجاز هو الحرف النبطي وتكيف بتوالي الاجيال حتى صار الى الحرف العربي المعروف وعم العالم الاسلام العربي وغير العربي

اما تمدن السومريين فاقتبسه الحورابيين ورقوه وزادوا فيه كما فعل المسلمون بتمدن الروم والفرس واكثرهم عناية في ذلك حورابي فانه جمع الشرائع ونظمها وبوبها فعرفت باسمه وقد رتبها في ٢٨٢ مادة وجدوا نسخة منها سنة ١٩٠١ في بلادالسوس منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الاسود الصلب طولها سبع أقدام وتدل تلك الشريعة على تقدم تلك الامة في سلم الاجتماع الى أرقى ما بلغت اليه تلك العصور ولا سيما في شروط الزواج والطلاق والتبني والارث. واليك خلاصة ذلك :

نظام الاجتماع

﴿ طبقات الناس ﴾ كان الناس في ذلك العصر ثلاث طبقات الاحرار والعبيد وطبقة متوسطة بينهما عبرنا عنها بالموالي على نحو ما كان عليه العرب في صدر الاسلام فان المولى عندهم أرقى من العبد وادنى من الحر. واسم المولى عند البابليين «ماشنكك» وفسرها الاب شايل المستشرق الشهير بما يقابل لفظ « مسكن » العبرانية ومعناها صعلوك او فقير (مسكين) وقد يتبادر الى الذهن انهم يريدون بهذه الطبقة من الناس العامة غير الاشراف ولكننا رأيناهم يعبرون عن العامة بلفظ آخر هو في لسانهم « مار اومية » أي ابن الامة او الصانع . فربما كان أقرب الى ما يعبر عنه عند الرومان بلفظ (Plèbe) على ان المولى عند البابليين كان يقتني العبيد ويملك الارضين وقد يتزوج من بنات الاحرار ولكنه احط منزلة واقل مسؤلية منهم في نظر القضاة . فالمجروح اذا مات من جرح وكان حراً فالدية نصف منّ فضة واذا كان مولى فالدية ثلث منّ فضة . واذا عالج طبيب مريضاً وشفي على يده وكان حراً دفع عشرة شواقل فضة واذا كان مولى دفع خمسة شواقل أو كان عبداً فشاقلين . واذ كسر احد عظم رجل حرّ يكسر عظمه فاذا كان المكسور عظمه مولى يغرم الضارب مناً من الفضة واذا كان عبداً فنصف منّ وقس على ذلك . ويشبه هذا ما كان عليه اليهود في عصر التوراة فقد ذكروا لهم ثلاث طبقات الاحرار والعبيد وطبقة بينهما يسمونها بالعبرانية (جِرْ او غِرْ) وقد ترجموها بلفظ « غريب او اجنبي وكثيراً ما كان أهل التقوى من اليهود يسمون انفسهم بهذه الكلمة مضافة الى اسم الله او الملك فيقولون مثلاً « غِرْ ملك » او « غِرْ عشتروت » على نحو ما يراد من قولنا عبد الملك او

مولى اللات . ولكن الماشنكك عند البابليين أرقى في الهيأة الاجتماعية من الغرعند اليهود

﴿ المرأة والزواج ﴾ العادة في الامة المؤلفة من طبقات متباينة ان أهل كل طبقة تتزاوج فيما بينها ويندر ان يحصل التزاوج بين طبقة وأخرى الا ما قد يقتنيه الاحرار من الجواري على سبيل التملك . ولكن يؤخذ من شريعة حورابي ان العبيد عند البابليين قد يتزوجون من بنات الاحرار زيجة شرعية ولكن يظهر ان ذلك خاص بعبيد القصر الملوكي أو من مجرى مجراهم . والزواج في كل حال لا يعتبر نافذاً عندهم الا بعقد مكتوب شأن أرقى الامم المتمدنة اليوم . والمحافظة على الحقوق الزوجية شرط واجب . وعقاب الزنا القتل ذبحاً أو غرقاً الا اذا التجأت المرأة الى رجل آخر وزوجها غائب في أسر وليس عندها ما تقتات به فان شريعتهم تجيز لها المعيشة في بيت ذلك الرجل عيشة الزوجين حتى اذا عاد زوجها من اسره عادت اليه واذا كانت قد ولدت اولاداً من ذاك تركتهم له . أما اذا كان غياب الزوج فراراً من الحرب أو نحوه فاذا عاد لا ترجع اليه امرأته ترغيباً في الشجاعة

ومن شروط الزواج عندهم ان الرجل يقدم للفتاة مالاً من قبيل المهر الشائع في الشرق يسمونه « حق العروس » اي ثمنها وهي تأتي من بيت ابيها بمال يسمونه المهر (الدوطة) . فكأن البابليين ألفوا في حقوق الزواج عندهم بين عادات الشرق والغرب . والمهر وحق العروس كلاهما للمرأة ويحفظان باسمها الى حين الحاجة . واذا لم تتزوج الفتاة تأخذ ما ... من ابيها كأنه حق مفروض لها منذ الولادة . واذا لم تأخذ مهرها فلها سهم في الارث وكذلك حق العروس للشاب فانه يعين للغلام من صغره ليقدمه الى عروسه عند زواجه

والطلاق عندهم في يد الرجل فاذا أراد تطليق امرأته وقد ولدت اولاداً دفع اليها مهرها وقال لها أنت طالق فتطلق . ولكنها تتولى تربية أولادها بنفسها ولها في مقابل ذلك حصة من دخل زوجها . فاذا شبَّ أولادها استولت على سهم مثل اسهمهم من الارث واذا لم يكن له أولاد منها دفع اليها حق العروس وارجع اليها المهر وطلقها . على ان المرأة اذا ابغضت زوجها لا يعجزها طلاقه بالحق فانها تقول له « لست لك » ويتقاضيان الى الكاهن أو القاضي فاذا كان زوجها مخطئاً اخذت مهرها ورجعت الى بيت أبيها واذا كانت دعواها افتراء تطرح في الماء . والرجل ليس مطلق الحرية في الطلاق فهو لا يستطيع تطليق امرأته اذا كانت مريضة بل يتزوَّج سواها اذا أراد وتبقى هي في بيته باقي حياتها وهو يعولها . واذا ابت البقاء في بيته دفع اليها مهرها واعادها الى بيت ابيها

والزواج وثيق العرى عند البابليين فان الزوجين حقوقهما متبادلة وواجباتهما مشتركة وكل منهما مسئول عن الآخر حتى في الحقوق المدنية . فاذا كان على احدهما دين فالآخر مسئول به. فاذا تأخر الرجل عن وفاء دين عليه قبض الدائن على امرأته حتى تفيه . وكذلك المرأة اذا كانت مديونة وعجزت عن الدفع فالدائن يقبض على زوجها حتى يفيه حقه ولو كان الدين قبل الزواج . الا اذا تعاهد الزوجان ان لا يسأل احدهما عما على صاحبه من الدين قبل الاقتران . أما الدين الذي يحدث بعد الزواج فهما متضامنان فيه

وليس للرجل عندهم أن يقتني سرية الا اذا لم تلد امرأته اولاداً فاتخاذه السرية لاجل النسل فقط ولذلك فالمرأة قد تأتي الى زوجها بجارية تلد اولاداً فلا يجوز له حينئذ ان يقتني سرية . على ان الجارية ولو ولدت له أولاداً فليس لها حقوق الزوجة ولا منزلتها واذا ادعت ذلك فامولاتها ان تكبلها بالحديد وتعيدها الى منزلة الاماء. فالمرأة عندهم مساوية للرجل في الحقوق تتعاطى كثيراً من أعماله التجارية والزراعية فضلاً عن أشغالها المنزلية وهي تنتظم في سلك الكهان . وكهانة النساء عندهم أربع درجات (١) الكهانة الكبرى ولا يشترط فيها البتولية ولا تمنع الكاهنة من مهرها الذي هو حق لها من بيت أبيها واسم كاهنة هذه الدرجة في اللغة البابلية « نينان » أي السيدة المقدسة ويشترط في سيرتها الطهارة والقداسة ولذلك كانت الحكومة تحميهن وتدافع عن صيانتهن (٢) كهانة العذارى واسمها « كالاتي » وليس لصواحبها مهر من آبائهن (٣) الكهانة المقدسة ويشترط فيها البتولية فصواحبها لا يتزوجن ويستولين على ثلث سهم الولد من الارث (٤) النذر لمروداخ فصاحبة النذر المذكور كالكاهنة المقدسة لكنها ترث من أبيها ارثاً كاملاً

﴿ التبني ﴾ كان التبني شائعاً عند البابليين في عصر حمورابي فاذا لم يرزق احدهم أولاداً وكان في نفسه ميل الى البنين لغرض من الاغراض اخذ من بعض الوالدين طفلاً يربيه عنده ويتبناه . ولهم في التبني شروط حسنة من جملتها رعاية حرمة الوالدين فاذا تبنى احدهم غلاماً ثم آذى ابويه يرجع الغلام الى بيت أبيه . ويشترط في ثبوت حق التبني ان يسمى الولد باسم الوالد الجديد فاذا رباه وسماه باسمه لا يسترجع . واذا كان المتبني صانعاً فعليه ان يعلم الولد صناعته فاذا فعل ذلك فالولد له . واذا تبنى الرجل ابناً وسماه باسمه ثم تزوج الرجل وولد له أولاد وأراد ان يخرج ذاك الولد من بيته فلا يستطيع ذلك الا اذا اعطاه ثلث حصة الولد من مال أبيه غير العقار على ان الرجل عندهم كان يتبرأ احياناً من ابنه لصلبه ولكنه لم يكن يستطيع ذلك الا بين يدي القاضي

فيقول القاضي « انا اتبرأ من ابني » فينظر القاضي في الاسباب فاذا لم يجد مسوغاً رفض الطلب واذا وجد مسوغاً اجل الحكم لعل الاب يرجع عن عزمه فاذا لم يرجع اجاز له التبرؤ منه . واولاد الرجل من جاريته لا يكونون اولاده شرعاً الا اذا دعاهم اولاده فاذا فعل ذلك كان لهم ما لاولاد الزوجة من حقوق الارث واذا لم يدعهم فلا يرثون ولكنهم يعتقون

﴿ الارث ﴾ لا يميز البابليون في حق الارث بين الذكر والانثى ولكن للوالد ان يمنع بعض أولاده من الارث اذا ثبت ما يستدعي ذلك على انهم كانوا يختلفون عن سائر الامم بمسألة المهر وحق العروس . فان الرجل اذا ولد له أولاد فاول مايفعله ان يفرض للذكور حق العروس وللاناث المهر (الدوطة) فمن تزوج منهم في حياة والده اخذ حقه أو مهره فاذا توفي الاب فللاعزاب من اولاده ان يستولوا على حق العروس او المهر فضلاً عن اسهمهم من الارث . ثم ان المهر الذي تأتي به المرأة من بيت ابيها يكون ملكها وحدها ويورث على مقتضى ذلك . فاذا تزوج رجل امرأة وولدت له اولاداً وتوفيت فمهرها لاولادها واذا توفيت ولم تلد أولاداً فالمهر يرجع لابيها وليس لزوجها . والهبة كانت عندهم نحو ما هي عندنا الآن فاذا وهب الاب شيئاً لاحد أولاده ثم مات فتقسم تركته على الاولاد وتبقى الهبة لصاحبها

التجارة ونظام الحكومة والعلم

﴿ التجارة ﴾ والتجارة كانت عندهم قانونية بعقود وصكوك وعندهم شروط للرهن والوديعة مما لا يقل عما عند الامم المتمدنة اليوم مع مراعاة حال تلك الايام. فالبيع بلا عقد باطل والدين بلا صك لغو . ومن شروط اقتضاء الدين عندهم اذا عجز المدين عن تأدية ما عليه ان يقبض الدائن على امرأة المدين وأولاده فيخدمون في بيته حتى يستوفي حقه فاذا لم يفوه يخدمون ثلاث سنوات ثم يطلقون

ومما يعد من حسنات التجارة في ذلك العهد البعيد ان الحكومة هي التي تتولى تسعير السلع أو تقدير اجور الصناع واصحاب المهن حتى الاطباء والبياطرة فقد فرضت للطبيب أجرة وللبناء اجرة وللنجار اجرة والقت عليهم تبعة ما يقع على يدهم من الخطار أو الضرر فالطبيب اذا عالج مريضاً بسكين من معدن فاتلف عينه بها تقطع يداه والبناء اذا بني بيتاً وسقط على صاحبه فقتله يقتل البناء . واذا سقط البيت ولم يقتل صاحبه بناه البناء من ماله واذا بنى النجار سفينة جاءت مختلة فهو مسئول عن تصليحها وقس على ذلك أجور الرعاة والملاحين والدواب والسفن وغيرها مما يطول شرحه وكانت ادارة الحكومة منظمة في عهدهذه الدولة وفيها بريدلضبطالمواصلات وسرعتها

وقد كشفوا في آثار زيبارا انقاض مدرسة لتعليم الاطفال وهذه أول مرة سمعنا بمدرسة مثل هذه في التمدن القديم اي منذ اربعة آلاف سنة وكان فيها (قرميدات) عليها دروس للاطفال والاحداث في الحساب والهجاء وجداول الضرب ومعجمات ونحوها [١] واكتشفوا كثيراً من الكتب والرسائل المنقوشة على الاحجار اوالقراميد واكثرها بالحورابي وفيها الصكوك والعقود والمسائل الرياضية والارصاد الفلكية والنصوص التاريخية والادعية الدينية . ومن اكبر ادلة الرقي في ذلك العهد ان المرأة كانت متمتعة بحريتها واستقلالها مثل نساء هذا التمدن وكنّ يتعاطين المهن القديمة وانخرط جماعة منهن في خدمة الدواوين والمصالح الاميرية [٢]



ش ٥ ـ انقاض مدرسة حورابية منذ ٤٠٠٠ سنة

فاذا صح ان هذه الدولة عربية كما سنبينه في الفصل الآتي كان العرب اسبق امم الارض الى سن الشرائع وتنشيط العلم وانهم بلغوا في نظام الاجتماع مالم يبلغ اليه معاصروهم وادركوا من الرقي الاجتماعي ما لا يزال بعض الامم المتمدنة في هذا العصر بعيدين عنه

وما زالت الدولة البابلية الاولى (الحورابية) قائمة حتى غلبت على امرها كما تقدم فخرج بعض اهل الدولة فراراً من ذلك الغالب الى اخوانهم في جزيرة العرب وانشأوا في اليمن دولة عربية عرفت بدولة المعينيين كان لها شأن كبير في تاريخ اليمن قبل دولة سبا وحمير كما سيأتي في كلامنا عن الطبقة الثانية او العرب القحطانية او دول الجنوب — ويوافق ذلك قول العرب ان العمالقة وغيرهم من العرب البائدة جاؤا جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام [٣]

---

(١) Clay,182 (٢) Clay, 166 (٣) ابن خلدون ١٨ ج ٢

هل دولة حمورابي عربية

ان قولنا « دولة حمورابي عربية » لا يتبادر منه الى ذهن القارىء انه مثل قولنا « دولة الاسلام عربية » واذا صحت عربية تلك فلا يستلزم ان تكون لغتها مثل لغة القرآن ولا ان عاداتها ودياناتها مثل ما لعرب قريش فان بين الدولتين ٢٧ قرناً والامم تتغير عاداتها ولغاتها بتغير الاقاليم وتوالي العصور

لا خلاف في ان دولة حمورابي سامية الاصل ولكنهم اختلفوا في نسبتها الى فرقة من الفرق السامية وعندنا انها من بدو الاراميين وهم عرب ذلك العصر اوالعمالقة والادلة على ذلك :

١ً : ان بروسوس مؤرخ الكلدان ذكر بين الدول التي حكمت بابل دولة سماها « عربية » وذكر عدد ملوكها وسني حكمها كما تقدم . ودولة حمورابي اقرب دول بابل عهداً من الزمن الذي عينه بروسوس للدولة العربية . وعدد ملوكها وسنو حكمها تقربان مما لتلك فقد ذكر لتلك الدولة تسعة ملوك حكموا ٢٤٥ سنة وظهر من الآثار ان ملوك دولة حمورابي ١١ ملكاً حكموا ٣٣٤ سنة والفرق بين الحالين اقل من الفرق بين قول العرب عن دولة حمير وبين ما ظهر من احوالها بعد قراءة الآثار الحجرية في اليمن.

٢ً : ان سكان بادية العراق كانوا يعرفون عند اهل بابل باسم « عمورو » أي ابناء المغرب . وهذا الاسم يشمل كل من سكن غربي الفرات من الامم السامية وفيهم الآراميون في الشام وبدوهم في باديتها . وفي التاريخ القديم ان الكنعانيين اكتسحوا فلسطين في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد وأخرجوا أهلها الاصليين ويوافق ذلك نزول بدو الآراميين وانشاء تلك الدولة فيها واسمهم عمورو كما تقدم ثم سموهم « عربي » ومعناها أهل المغرب ايضاً . والطبري يسمي جد العمالقة « عريب »

٣ً : ان بين لغة بابل التي خلفتها دولة حمورابي في ما بين النهرين واللغة العربية مشابهة لا توجد بينها وبين سائر اللغات السامية — منها اولاً حركات الاعراب (الرفع والنصب والجر) فانها في لغة بابل كما هي في العربية تماماً ولا وجود لها في سائر اللغات السامية قديماً ولا حديثاً الا آثاراً منها في لغة بطرا وتدمر [١] لان أهلهما

(١) Encyc. Brit XXI 651 art. Sem.

من بقايا العمالقة وسيأتي بيان ذلك . ثانياً التنوين فانه في البابلية ميم وفي العربية نون وهما تتبادلان . ثالثاً علامة الجمع في البابلية « ون » كما في العربية وهي « ين » في السريانية و « يم » في العبرانية . رابعاً صيغ الافعال في البابلية أقرب الى الصيغ العربية مما الى سائر اللغات السامية . خامساً ان بعض الاسماء التي سقط بعض حروفها بالاستعمال في السريانية والعبرانية لا تزال محفوظة في البابلية كما في العربية مثل « انف » فانها كذلك فيهما وقد سقطت نونها في العبرانية والسريانية و « عنب » فانها بالنون في العربية والبابلية وبدونها في العبرانية والسريانية . ومما يستحق الالتفات ان معظم هذه الخصائص تشترك فيها العربية والبابلية (الاشورية) دون اللغة السريانية او الكلدانية مع ان هذه متخلفة عن البابلية . ولكن يظهر ان الكلدانية فقدت هذه الخصائص بتوالي الاجيال بالحضارة وحفظها العرب لبداوتهم . لان اللغة مع خضوعها لناموس الارتقاء في التنوع والتغير فهي أحفظ لنفسها في البادية مما في المدن بل هي تتغير بالانتقال من البداوة الى الحضارة وليس بتوالي الازمان عليها (١)

٤ : ان اسماء ملوك هذه العائلة عربية التركيب والمعنى مثل « ساموابي » أي « ابي سام » و « شمسو ايلونا » أي الشمس الهنا (٢) وقد عثروا في آثار هذه الدولة بابل على اعلام كثيرة تشبه الاعلام العربية مشابهة كلية لفظاً ومعنى . ولا يخفى ما لهذا الدليل من قوة الحجة لان كل امة تمتاز بتسميات خصوصية وتعرف جنس الرجل من معرفة اسمه فاذا كان اسمه نقولايدس او قسطنطيندس مثلا عرفنا انه يوناني واذا كان اسمه فرحيان او لكيجيان او كركور عرفنا انه ارمني . وبمثل ذلك تعلم ان وطسن وجكسن وروبرتسن من اسماء الانكليز ووستنفيلد وشيلر ونيوفلد من اسماء الجرمان وبانيه وهاشت وفلاماريون من اسماء الفرنساويين . حتى انك تعرف مسقط رأس الرجل من اسمه . وعلى هذا القياس نحكم على عربية دولة حمورابي اذا كانت اسماء رجالها عربية وهذا جدول من اسمائهم وما يقابلها من الاسماء العربية في اليمن وغيرها (٣)

---

(١) Dussaud, 108

(٢) King. 240

(٣) Babylonion Expedition vol. III

الاسماء البابلية	يقابلها في العربية	أي الامم العربية
ابي يشوع	ابيشع	سبأ
عمي زادوقا	عم صدق	سبأ
يدح ايلو	يدع ايل	«
شمسو	شمس	« والصفا
عبد ايل	عبد ايل	« «
عبدو	عبد	« «
خليلو	خليل	« «
يديح	يدع	« «
يديحت	يدعت	« «
اخي ودايل	ودايل	« «
عزيرو	عزرائيل	« «
علك ايلو	ملك ايل	« «
نفسان	نفس	« «
بلال	بلال	عدنان
د. لك	مدركة	«
نكارو	نكور	«
قرانو	قرين	«
صعصعة	صعصعة	«

٥ً : ان معبودات البابليين كثيرة الشبه في اسمائها واسماء الذين ينتسبون اليها باقدم آلهة العرب في اليمن وغيرها مثل ايل وبل وشمس واشتار وسين وسمدان ونسر ويثع كما سنفصله في كلامنا عن اديان العرب قبل الاسلام

٦ً : ان الحورابيين اتخذوا بابل قصبة لمملكتهم على حدود البادية قرب المكان الذي اختاره اللخميون كرسياً لدولتهم « الحيرة » بعد ذلك بنحو ثلاثين قرناً والمكان الذي اختار العرب المسلمون في ايام بداوتهم « الكوفة » عملاً برأي عمر حتى « لا يكون بينه وبين المسلمين ماء فاذا أحب ان يركب راحلته اليهم ركبها »

العمالقة في مصر

أو دولة الشاسو (هيكسوس)

من سنة ٢٢١٤ — ١٧٠٣ ق م

الساميون في مصر

من الاقوال الشائعة ان سكان وادي النيل القدماء من الشعوب الحامية نسبة الى حام او كوشية نسبة الى ابنه كوش كما كان سكان وادي الفرات ودجلة من الشعوب الطورانية . وقد نشأ الساميون في البادية بين هذين الواديين كما تقدم وأخذوا يتسربون اليهما والى العامر بينهما على شواطىء البحر المتوسط في سوريا وفلسطين وتدرجوا في ذلك من التسرب الى المهاجرة فالفتح والاستيلاء في بابل وفلسطين والشام

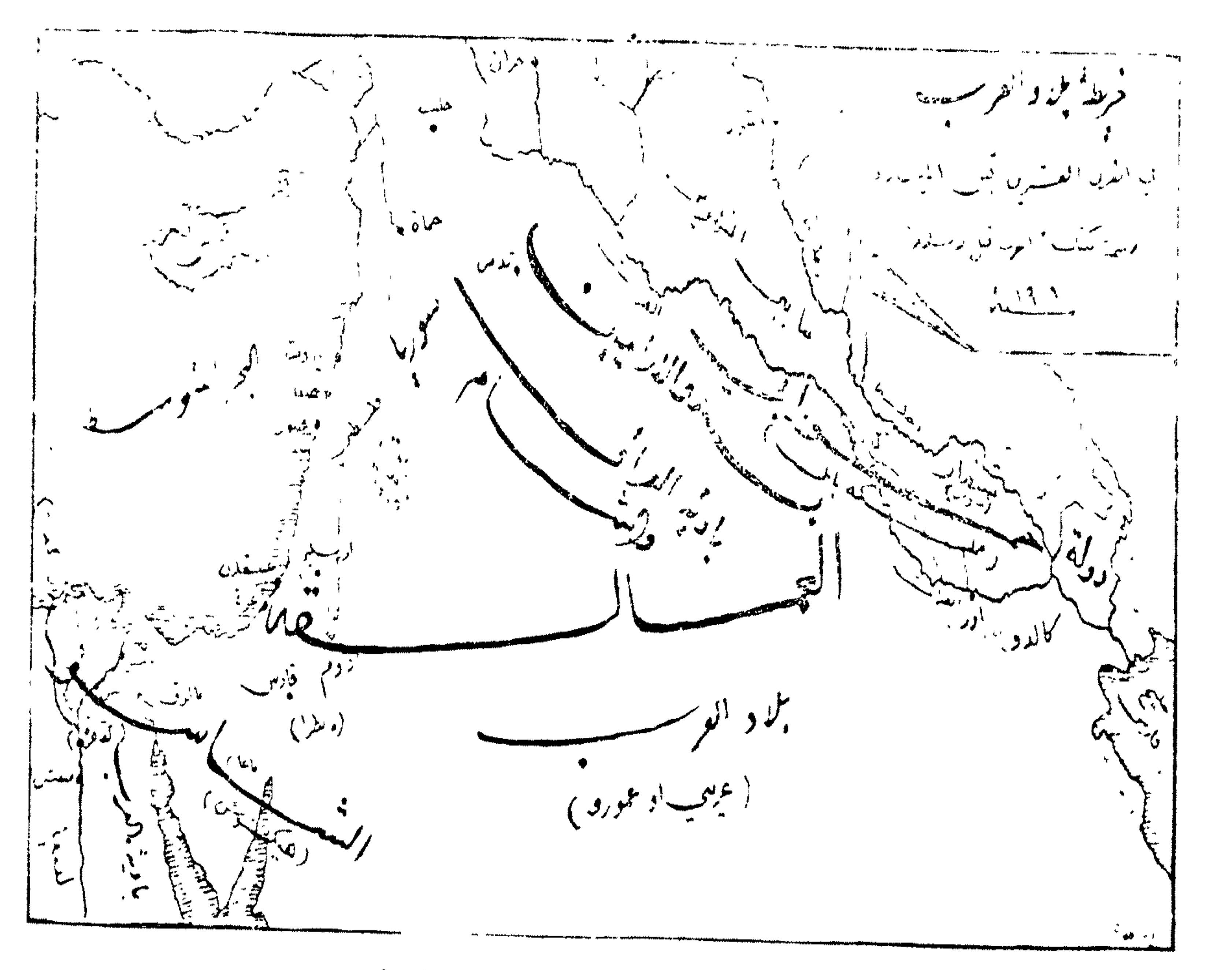
اما مصر فقد نزح الساميون اليها من عهد قديم جداً . ويؤخذ من الاكتشافات الأثرية الاخيرة ان العصر الحديدي بمصر يبدأ بدخول الساميين اليها . أي ان المصريين قبل دخول الساميين لم يكونوا يعرفون الآلات الحديدية . فاتاهم الساميون بالحدادة في اقدم ازمنة التاريخ المصري ولعلهم حملوا اليهم ذلك من وادي الفرات عن تمدن سومري الاصل اكتسبه الساميون بالمجاورة قبل فتح بابل وحملوه الى مصر . ومما يستدلون به على قدم نزوح الساميين الى مصر ان اقدم الهة المصريين « فتاح » سامي الاصل [١]

جاء الساميون مصر من الشرق اما بطريق برزخ السويس أو بالبحر الاحمر ولذلك ما برح المصريون منذ القدم يسمون بلاد العرب « الارض المقدسة » أو « ارض الآلهة » وعرفوا من الساميين عدة شعوب سموا كلاً منها باسم واطلقوا عليهم جميعاً لفظ « عامو » أو « آمو » وهو سامي الاصل معناه الشعب (الامة أو العامة) وذكروا انهم نزلوا أطراف الدلتا وشرقيها بجوار بحيرة المنزلة . ولا تزال بعض الاماكن هناك تعرف باسماء سامية [٢] وفي هيلوبوليس (عين شمس) أدلة كثيرة على أصل سامي في عمرانها [٣] . وكانوا يميزون الشعوب السامية باسماء خاصة منها « خار » أو « خال » يريدون به الفينيقيين

وكانوا يسمون أهل البادية من الساميين «شاسو» أي البدو وهم العرب أو العربي

---

(١) King, 40, 43 & 93 (٢) Brugsch, I, 14 & 230 (٣) King 134



الخارطة الاولى : بلاد العرب في القرن العشرين قبل الميلاد

عند البابليين والمعنى واحد . وكان الشاسو يتنقلون في بادية مصر الشرقية بين النيل والبحر الاحمر كما يتنقل فيها بدو هذه الايام. وكان المصريون القدماء يسمون هذه البادية « تشر » أي الارض الحمراء تمييزاً لها عن وادي النيل واسمه « كيمي » الارض السوداء [1] ولم يكن الشاسو يقتصرون في مضاربهم على تلك الصحراء بل كانوا يرحلون بينها وبين جزيرة سيناء وما وراءها وربما اتصلوا باخوانهم بدو العراق لانهم جميعاً من أصل واحد و « شاسو » و « عرب » بمعنى واحد

وكان للعرب في جزيرة سيناء وما يليها سيادة وحكومة من أقدم ازمنة التاريخ . فقد جاء في آثار بابل ان نرام سين بن سرجون المتقدم ذكره حارب قبيلة في تلك الجزيرة واسمها مغان سنة ٣٧٥٠ ق م واسر اميرها وحمل بعض أحجارها [2] الى بلده . وجاء في تلك الآثار ايضاً ان رجال هذه القبيلة كانوا يشتغلون بنقل التجارة براً الى بابل نحو سنة ٢٥٠٠ ق م [3] وكذلك قبيلة ماليق المتقدم ذكرها . ويظهر ان الشاسو كانوا قبل نزولهم بادية مصر يقيمون في أرض مديان وراء جزيرة سيناء لان لفظ الشاسو يطلق ايضاً على تلك الارض وهي قديمة في التاريخ جاء ذكرها في آثار بابل سنة ٣٧٥٠ ق م

دولة الشاسو

فهؤلاء البدو (أو الرعاة) كانوا يتنقلون في شرقي وادي النيل كما كان بدو الاراميين يتنقلون غربي وادي الفرات وكان الشاسو كثيراً ما يسطون على المصريين في مدنهم او يقطعون عليهم السابلة للغزو والنهب من عهد مينا اول ملوكهم [4] والمصريون يدفعون هجماتهم ويعدونهم من الاشقياء واهل الدعارة والسلب ويحتقرونهم لكنهم كانوا يخافونهم وكثيراً ما كان الفراعنة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض لما كانوا يعرفونه فيهم من الشدة والشجاعة مثل سائر أهل البادية

ظل الشاسو دهوراً على ما تقدم حتى سنحت لهم فرصة وثبوا بها على مصر وملكوها — وكيفية ذلك ان سنهات بن امنمحعت ملك مصر لما مات ابوه في أواخر الدولة الثانية عشرة المصرية فرّ الى فلسطين من وجه أوسرتسن الذي خلف أباه . وقلما كان المصريون يخرجون من وادي النيل قبل ذلك الحين . وتزوج سنهات هناك ابنة ملكها عموانشي وتولى بعض أعمال الشام . ولما شاخ سنهات نال العفو وعاد الى بلده

---

(١) Brugsch, I. 16 (٢) King, 158 (٣) Grimme, II

(٤) Brugsch, I. 51

يجر ذلك الى علائق متبادلة بين البلدين . في عهد أوسرتسن الثاني شخص الى مصر ملك عربي اسمه ابيشع وزار خنومحتت أمير ولاية أوريتكس في مصر الوسطى وترى ذلك منقوشاً على قبر هذا الملك في بني حسن . وبعد قليل خرج أوسرتسن الثالث لفتح فلسطين انتقاماً من ملكها فتحاً كت المصالح ونقم الساميون جملة على المصريين فاغتنم العمالقة هذه الفرصة ووثبوا على مصر السفلى وملكوها بضعة قرون نحو الزمن الذي ملك به العرب بابل

فهي نهضة عربية منذ نيف واربعة آلاف سنة تشبه نهضة العرب في صدر الاسلام — وللامم أدوار تثب فيها وتعلب . فاغتنم العمالقة ضعف دولة النيل ودولة الفرات كما اغتنم المسلمون ضعف الروم والفرس بعد ذلك بثلاثين قرناً . وكانت مصر على عهد الشاسو مضطربة وحكامها في ضعف وانقسام كما كان الروم في أواخر دولتهم . ووجد الشاسو في مصر السفلى من ينصرهم من أبناء لسانهم « الحار » أو الفينيقيين كما وجد المسلمون في الشام والعراق من الامم السامية المغلوبة على أمرها كالانباط والعبرانيين . ففتح العمالقة الوجه البحري الى منف وتقهقر الفراعنة الى الصعيد في أوائل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وما زالت مصر في حوزتهم الى أول القرن الثامن عشر وعرفت دولتهم بدولة البدو واليونان يسمونهم هيكسوس Hyksos والعرب يسمونهم العمالقة أو العرب البائدة

وأما ما يعلمه العرب من اخبارهم فهو « ان بعض ملوك القبط استنصر ملك العمالقة بالشام لعهده واسمه الوليد بن دوغ ويقال ثوران بن اراشة بن فادان بن عمرو بن عملاق فجاء معه وملك مصر واستعبد القبط ومن ثم ملك العماليق مصر ويقال ان منهم فرعون ابراهيم وهو سنان بن الاشل وفرعون يوسف وهو الريان بن الوليد وفرعون موسى وهو الوليد بن مصعب . وذكر آخرون ان الريان بن الوليد يسميه القبط نقراوش وان وزيره كان اطفير وهو العزيز صاحب قصة يوسف الخ . » (١) . فهذه الرواية مع اختلاطها واختصارها تشبه ما قرأوه على الآثار عن الفرصة التي سنحت للعمالقة حتى وثبوا على مصر

هل الشاسو عرب

أول من نبه الاذهان الى أن الشاسو المشار اليهم عرب يوسيفوس المؤرخ الاسرائيلي المتوفى في أواخر القرن الاول للميلاد نقلاً عن مانثون المؤرخ الاسكندري المتوفى في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد بعرض كلامه عن نشوء دولة الشاسو قال :

(١) ابن خلدون ٢٧ ج ٢

« واتفق على عهد تيماوس احد ملوكنا ان الاله غضب علينا فاذن لقوم لا يعرف اصلهم جاؤا من الشرق وتجاسروا على محاربتنا وغلبونا على بلادنا واذلوا ملوكنا واحرقوا مدننا وهدموا هياكلنا وآلهتنا وساموا الناس ذلاً وخسفاً فقتلوا الرجال وسبوا النساء والاولاد ثم نصبوا عليهم ملكاً منهم اسمهُ « سلاطيس » اقام في منفيس وضرب الجزية على مصر اعلاها واسفلها واقام الحامية في المعاقل لدفع الاشوريين عن وادي النيل اذا طمعوا به وبنى مدينــة اوارس في ولاية صان لهذه الغاية وحصنها بالابراج والقلاع والاسوار . واكثر من حاميتها حتى بلغ عددهم ٢٤٠٠٠٠ وكان سلاطيس يأتي اليها في الصيف لجمع الحنطة ودفع رواتب الجند وتمريسهم بالحرب . وبعد ١٣ سنة من حكمه خلفهُ ملك اسمهُ بيون وحكم ٤٤ سنة وجاء بعده اباخناس حكم ٣٦ سنة وسبعة اشهر ثم ابوفيس ٦١ سنة ويانياس ٥٠ سنة وشهراً واخيراً حكم اسيس ٤٩ سنة وشهرين . وهؤلاء الستة اول من حكم من ملوكهم ولم يكفوا عن محاربة المصريين لانهم كانوا يلتمسون ابادتهم . وكانت هذه الامة تسمى هيكسوس Hyksos اي ملوك الرعاة لانها مؤلفة من « هيك » باللغة المقدسة ملك و «سوس » « راعي » ولكن البعض يقولون انهم عرب » (١)

ويرى بروكش ان لفظ هيكسوس ترد في الاصل الهيروغليفي الى لفظين هيك وشاسو الاول ملك والثاني « بادية » او « بدو » وان الهيكسوس هم البدو الذين كانوا ينتقلون في الصحراء الشرقية أي العرب ولم يعثروا على اسم هذه الدولة في الآثار المصرية ولا وقفوا الا على النزر القليل من آثارها . وجاء في الآثار ان اقواماً غرباء تسلطوا على مصر السفلى حتى اخرجهم ملوك طيبة وكانوا يسمون بلغة العامة « مين» او « منتي » من بلد اسمها بلسانهم « اشر » ويريدون بها الشام ولكنها اقرب الى اشور . اما في اللغة المقدسة (الهيروغليف) فاسمهم روتنو او لوتنو وهم اهل الشام في اصطلاحهم . فالظاهر ان تلك الدولة كانت مؤلفة من الشاسو والفينيقيين وغيرهم من اهل الشام وكلهم ساميون وربما كان فيهم فرقة من عمالقة العراق

ولا خلاف في ان العنصر السامي تكاثر بمصر على عهد الشاسو من اليهود وغيرهم ولكن سلطتهم انحصرت في الوجه البحري وظل المصريون متسلطين في الصعيد كما ظل الروم بعد الفتح الاسلامي متسلطين في القسطنطينية وقد سنحت للفراعنة فرصة اخرجوا فيها العماليق من بلادهم ولم يستطع الروم ذلك مع المسلمين . والارجح في

(١) Josephus, Wars of the Jews, I. 19

اعتقادنا ان العماليق لم يتوارثوا الحكم بمصر وانما كانوا يتناهبونه على غير نظام . وربما اقتسم الساميون تلك السيادة فاستولى الفينيقيون وهم من حضر الساميين (خار) على منازلهم بجوار الدلتا واستولى العماليق وهم بدو الساميين على اطراف الدلتا . ولم يصل الينا من اسماء ملوكهم الا الذين عاصروا العائلة الخامسة عشرة وواحد من السادسة عشرة وواحد من السابعة عشرة ذكرهم مانيثون مع سني حكمهم على هذه الصورة :

اسم الملك	مدة الحكم	اسم الملك	مدة الحكم
سلاطيس	١٣ سنة	يانياس	٥٠ سنة
بيون	٤٤ «	اسيس	٤٩ «
اباخناس	٣٦ «	ابابي الاول	٠٠ «
ابوفيس	٦١ «	ابابي الثاني	٠٠

وكانت مصر السفلى لا تزال عرضة للفيضان يغمرها الماء كل عام وتتعطل بها الاعمال ولم يستطع المصريين اخراجهم منها ولكنهم منعوهم من الصعيد وهي اكثر عمراناً وثروة . ولم يقبض الشاسو على التمدن المصري كما قبض اخوانهم الحورابيون عمالقة العراق على التمدن السومري أو الاكادي . ولم يكن لهم تأثير في العمران المصري كما كان لاولئك قبلهم وكما كان للعرب المسلمين بعدهم

وقد عني الدكتور بروكش المشار اليه في درس هذه المسألة وخلاصة ما رآهُ ان الملوك الغرباء الذين يسميهم المصريون « منتي » حكموا شرقي مصر مدة طويلة وقصبة ملكهم زوان وهوار واواريس على فرع بلوسيوم وفيها حصونهم وقد تطبع اولئك الغرباء بطبائع المصريين واقتبسوا عاداتهم وتكلموا لسانهم وكتبوه وقلدوهم بنظام الحكومة وكانوا يحبون العمارة فاستخدموا المصريين في بناء المدن على النمط المصري الا تماثيل كبرائهم فجعلوا لها شعراً في الرأس والذقن وغيروا لباسها وكانوا يعبدون الاله نوب والالهين ست وسوتخ وسموه نوب (الذهب) وهو عند المصريين اصل الشرور وبنوا لهما في زوان واواريس معابد فخمة ونحتوا التماثيل بشكل ابي الهول وغيره على حجارة من الصوان . وكانوا يؤرخون من زمن ملك لهم اسمه (نوب) فبلغ تاريخهم بعده ٤٠٠ سنة واقتبس المصريون من مخالطة العمالقة معارف كثيرة ولا سيما من حيث الابنية فأخذوا عنهم اشكالاً جديدة ويعدُّ ابو الهول المجنَّح من مبتكراتهم

على ان الآثار التي وقعت للناقبين من بقايا هذه الدولة قليلة ولعل السبب في ذلك ان

الفراعنة الذين جاءوا بعدهم محوا اسماءهم عن تلك الآثار الا اسمين قرأوهما « رعاكنن من عائلة ابوبي و « نوبتي » أو « نوب » ومعه موظف اسمه « ست اليهوتي » فالاسم الاول ينطق بلغة ممفيس « افوفي » يقرب بلفظه من ابوفيس الذي ذكره مانيثون . ومع غموض أخبار هذه الدولة وفق المرحوم دي روجه لحل رموز قطعة من البردي في المتحف البريطاني هي مخابرة بين ابوبي المذكور ونائب من نوابه مصري جاء فيها انتقاد هذا الملك لانه اختار « ست » الاله للعبادة دون سواه وتكريم سوتخ وانه اجبر الوطنيين على اداء الخراج في حديث طويل أورده بروكش [١]

ويؤخذ من ابحاث بروكش ايضاً ان يوسف الصديق جاء مصر في زمن نوب سنة ١٧٥٠ ق م وان في أيامه حدثت الجاعة

فالرعاة أو الشاسو ساميون بدليل ما تقدم وبما عثروا عليه من الاسماء السامية المنقوشة على الآثار في عهدهم ودخول الفاظ سامية اخذوها عن البدو وغيرهم وادخلوها في لسانهم كالرأس والكاهن والبركة والبئر والبيت والباب وغيرها ومن اسماء الحيوانات الجمل والفرس ومن أسماء الناس عديروما وبعل مهور وبيت بعل وغيرها — لكننا نرجح كونهم عرباً للاسباب الاتية :

١ : ما ذكره يوسيفوس نقلاً عن مانيثون كما تقدم

٢ : ما رواه العرب في كتبهم عن عمالقة مصر وقد نقلناه

٣ : ان [illegible] هيك شاسو كانوا يظنون معناها ملوك الرعاة ثم وجدوا انها « ملوك البدو أو [illegible] » [٢] وهم العرب

٤ : ورد في الآثار المصرية ان الهيكسوس جاؤا قديماً من بلاد العرب

٥ : ان الاسماء التي كان الساميون يُعرفون بها تنتهي بالضم وهي حركة الاعراب للرفع مثل قولهم عامو ولوتنو وشاسو وذلك خاص من اللغات السامية بالعربية والبابلية

٦ : ان المصريين لم يكونوا يستخدمون الخيل والمركبات الا بعد دولة الرعاة [٣] والعرب انما غلبوهم بها [٤]

٧ : إن المصريين ما زالوا بعد خروج العمالقة من بلادهم وهم يناصبونهم العداء ويخرجون اليهم في أرضهم كما فعل رعمسيس الثاني وتحوتمس . والعرب كانوا يهاجمونهم

(١) Brugsch, I. 271 (٢) Brugsch, II. 102 (٣) Maspero II. 51

(٤) king, 140

في بلادهم ويضايقونها بغزواتهم وكلما استنصرهم فاتح على مصر نصروه كما فعلوا بنصرتهم الفرس

وجملة القول يرجح ان عمالقة العراق ومصر من بدو الآراميين او اللاوذيين . فاذا صح ان مهد الساميين جزيرة العرب فهم من جملة من نزح منها الى الشام والعراق في الزمن القديم وظلوا على بداوتهم في الصحراء . واذا كان منبت الساميين ما بين النهرين أو غيرها فالساميون وجدوا في القرن الاربعين او الخمسين قبل الميلاد في بوادي الشام والعراق وسينا ومصر فسكن بعضهم المدن وظل البعض الاخر بدواً حتى اتيح لهم الاستيلاء على العراق في القرن ٢٥ ثم مصر في القرن ٢٣ ق م . وكان المصريون قبل العمالقة محصورين في بلدهم لا يعرفون عن سائر العالم شيئاً فاصبحوا بعد خروجهم اصحاب خيل ومركبات فحملوا على سوريا وفلسطين وجزيرة العرب وبابل كما سنذكره

بقايا العمالقة

بعد خروجهم من العراق ومصر

لما خرج عمالقة العراق من بين النهرين وعمالقة مصر من وادي النيل تفرقوا في جزيرة العرب قبائل وافخاذاً وانشأوا دولا في اليمن والحجاز وسائر جزيرة العرب ومنها القبائل البائدة وهم الذين يعرفهم العرب . او لعل هذه القبائل من بدو الآراميين الذين لم يدخلوا العراق ولا مصر وهي ترجع بانسابها الى ارم . واهم القبائل البائدة عند العرب عاد وثمود وطسم وجديس . ونضيف اليها دولا ذات شأن لم يعرفها العرب نعني الانباط خلفاء الادوميين في جزيرة سينا الى فلسطين ودولة تدمر بين الشام والعراق كما سيأتي

عاد

وارم ذات العماد

عاد من الامم الآرامية ولذلك سميت أيضاً « عاد ارم » وجاء ذكرها في القرآن « عاد ارم ذات العماد » فالتبس على المؤرخين لفظ « ارم » وظنوا ذات العماد صفة له فزعموا انه اسم مدينة بناها عاد اختلفوا في مكانها . فقال بعضهم انها الاسكندرية

وقال آخرون دمشق وربما ذهبوا الى ذلك أيضاً لان ارم من اسماء دمشق بالعبرانية . وذهب غيرهم انها في اليمن وان شداداً ابن عاد بناها لينافس بها قصور الذهب والفضة في الجنة التي تجري من تحتها الانهار — قالوا انه كتب الى عماله أن يجمعوا جميع ما في أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران فيوجهوا به اليه . ثم وجه الى جميع المعادن فاستخرج ما فيها من الذهب والفضة ثم وجه ثلاثة من عماله الى الغواصين فاستخرجوا الجواهر فجمعوا منها أمثال الجبال وحمل جميع ذلك اليه ثم وجهوا الحفارين الى معادن الياقوت والزبرجد وسائر الجواهر فاستخرجوا منها أمراً عظيما فأمر بالذهب فضرب أمثال اللبن ثم بنى بذلك المدينة وأمر بالدر والياقوت والجزع والزبرجد والعقيق ففصص به حيطانها وجعل لها غرفاً من فوقها غرف بعمد جميع ذلك باساطين الزبرجد والجزع والياقوت ثم أجرى تحت المدينة وادياً ساقه اليها من تحت الارض أربعين فرسخاً كهيئة القناة العظيمة ثم أمر فاجرى في ذلك الوادي سواقي في تلك السكك والشوارع والازقة وأمر بحافتي ذلك النهر وجميع السواقي فطليت بالذهب الاحمر وجعل حصاه أنواع الجوهر بألوانه ونصب على حافتي النهر والسواقي أشجاراً من الذهب مثمرة وجعل ثمرها من تلك اليواقيت والجواهر وجعل طول المدينة ١٢ فرسخاً وعرضها مثل ذلك وصير سورها عالياً وبنى فيها ٣٠٠٠٠٠ قصر مرصفة ومرصعة وبنى لنفسه في وسط المدينة على شاطئ ذلك النهر قصراً منيعاً يشرف على تلك القصور . وجعل بابها يشرع الى الوادي ونصب عليه مصراعين من ذهب مفضضين بانواع اليواقيت وأمر باتخاذ بنادق المسك والزعفران فألقيت في تلك الشوارع . وجعل ارتفاع تلك البيوت في جميع المدينة ٣٠٠ ذراع والسور ٣٠٠ ذراع مفضضاً خارجه وداخله بانواع اليواقيت وغيرها وبنى خارج السور كما يدور ٣٠٠٠٠٠ منظرة بلبن الذهب لينزلها جنوده مكث في بنائها ٥٠٠ عام [1]

ففي هذه الاقوال مبالغات لم يسمع بمثلها في المعقولات وانما عمدوا اليها لاعتقادهم ان « ارم » مدينة ورأوا ابنية الروم في الشام والفراعنة بمصر فارادوا ان تكون مدينة

(١) ياقوت ٢١٣ ج ١

عاد أعظم منها وأفخم . والصحيح في اعتقادنا ان « ارم » اسم القبيلة فقالوا عاد ارم كما قالوا ثمود ارم (١) والقبائل البائدة كلها عند العرب من نسل ارم ويعرفون بالارمان (٢) كما تقدم . ويؤيد ذلك ان اليونانيين ذكروا في جملة قبائل اليمن حوالي تاريخ الميلاد قبيلة يكتبونها باسمائهم [illegible] وقد يتبادر الى الذهن ان المراد بها «حضرموت» ولكن هذه يكتبونها باليونانية [illegible] وباللاتينية Chatramotitæ وقد أوردوا اللفظين معاً . فلو ارادوا قبيلة واحدة لما ذكروهما معاً فالارجح ان [illegible] يراد بها العادرميون او العاديون

والعرب يضربون المثل بقدم عاد ويريدون انها أقدم من العمالقة ولا سبيل الى تحقيق ذلك لان ما ذكروه عنها محشو بالمبالغات والخرافات كقولهم ان طول الرجل منهم ٧٠ ذراعاً الى مئة ذراع ورأس أحدهم كالقبة العظيمة وعينه تفرخ بها السباع . ولم يذكروا من ملوكها الا بضعة أولهم عاد قالوا انه عاش ١٢٠٠ سنة وانه تزوج الف امرأة وولد له اربعة آلاف ولد ذكر لصلبه . واعتدل بعضهم فجعل عمره ٣٠٠ سنة ولا تخلو هذه الخرافة من حقيقة فالظاهر ان العرب كانوا يسمعون بقدم هذه الامة ولا يعرفون من ملوكها الا نفراً قليلاً فجعلوا أعمارهم طويلة لتسع ذلك القدم وترتب على طول أعمارهم تعدد الزوجات

ويقال نحو ذلك في ما ذكروه من أعمار خلفاء عاد وهم شديد وشداد . والى شداد هذا ينسبون أعظم أعمال هذه الدولة ويقولون انه فتح كثيراً من بلاد الشام والعراق ومصر والهند قولا مبهماً لم نجد في أخبار تلك الامم ما يؤيده او لعلهم يريدون بعاد بعض العمالقة . والقرآن ذكر عاداً في سياق العبرة بما أصابهم من القصاص لتكذيبهم هوداً وهو نبي منهم دعاهم الى عبادة الله وترك ما كانوا يعبدونه من الحجارة والاخشاب فابوا فاصابهم قحط ثلاث سنوات عقبته زوابع وأعصار نزلت بهم فاهلكتهم والقصة ملخصة في سورة الاعراف . وبقي هود وجماعة ممن آمن بدعوته أقاموا حيناً وعرفوا بعاد الثانية ويزعمون انهم هم الذين بنوا سد مأرب وظل حكمهم الف سنة

(١) ابن خلدون ٧١ ج ٢ (٢) حمزة ١٢٢ و ١٢٨

حتى غلبهم القحطانية فلجأوا الى حضرموت حتى انقرضوا (١)

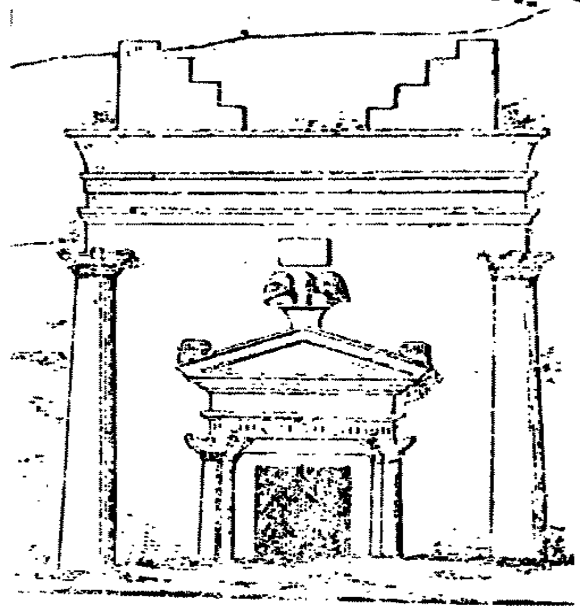
وعثر النقابون في آثار بلاد العرب على نتف من بقايا كثير من الدول القديمة وعرفوا كثيراً من أحوالهم الا عاداً فانهم لم يروا لها ذكراً . على ان العرب تعودوا اذا رأوا اطلالا قديمة عليها نقوش لا يعرفون صاحبها ان يسموها « عادية » وجاء في معجم ياقوت بمادة جش قوله « جش ارم جبل عند آجا احد جبلي طيء أملس الاعلى سهل ترعاه الابل والحمير كثير الكلاء وفي ذروته مساكن لعاد ارم فيه صور منحوتة في الصخر » وقال في مادة صير « والصير جبل بآجا في ديار طيء كهوف شبه البيوت » ولعل بين تلك النقوش وهذه البيوت نسبة فعسى أن يوفق الرواد الى كشفها وقراءتها كما قرأوا مثلها في حوران والعلاء ومدائن صالح وتيماء واليمن

ثمود

ذكرت ثمود في القرآن مع عاد لان المراد بهما واحد من حيث العبرة والموعظة فبعد أن ذكر خبر عاد عطف على ثمود فقال « والى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين قال الملاء الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم اتعلمون ان صالحاً مرسل من ربه قالوا انا بما ارسل به مؤمنون قال الذين استكبروا انا بالذي آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين »

(١) وترى قصة عاد مطولة في ابن خلدون ٢٤ - ٢ وياقوت ٢١٢ ج ١ وابي الفداء ١٠٢ ج ١ وغيرها

هذا خبر ثمود ولم يزد المؤرخون عن ان وسعوه وشوهوه بمبالغات لا فائدة من ذكرها. والمشهور في كتب العرب ان ثموداً كان مقامها في الحجر المعروفة بمدائن صالح في وادي القرى بطريق الحاج الشامي الى مكة وقد وصلت السكة الحديدية الحجازية الى الحجر في سنة ١٩٠٧ وكان اليهود يسكنونها قبل الاسلام [١]



ش ٦ ـ قصر البنت في الحجر (مدائن صالح)

على ان ارتباطها بعاد يقتضي تقاربهما بالمكان ولذلك قالوا ان ثموداً كانت في اليمن قديماً فلما ملكت حمير اخرجوها الى الحجاز [٢] ولم يكشف لنا حتى الآن ما يؤيد هذا القول . وذكرت ثمود في جملة البلاد التي غلبها سرجون الاشوري سنة ٧١٥ ق.م [٣] في الحجاز ويؤخذ من سياق الوصف انها كانت بجوار مكة اي جنوبي الحجر وجاء ذكرها في كتب اليونان نحو تاريخ الميلاد وبعده وعينوا مكانها في الحجر وهم يسمونها ثموديني Thamudeni والحجر يسمونها Agra. وبجانب الحجر مكان يسميه العرب فج الناقة فسماه بطليموس Badanata وذكر أبو اسماعيل صاحب كتاب فتوح الشام ان ثموداً ملأوا الارض بين بصرى وعدن [٤] فلعلها كانت في طريق هجرتها

(١) البكري ٣٠ (٢) ابو الفداء ٧٠ ج ١
(٣) Clay, 338 (٤) فتوح الشام لابي اسماعيل ٢٥٠

نحو الشمال ولا يخرج الحكم في ذلك عن التخمين

وأما الثابت من قراءة الآثار ان مدائن صالح (الحجر) دخلت قبيل تاريخ الميلاد في حوزة النبطيين سكان بطرا الآتي ذكرهم بدليل ما على اطلال تلك المدائن من الكتابة النبطية . والاطلال المشار اليها زارها غير واحد من المستشرقين كما ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب ودرسوا بقاياها وهي منقوشة في الصخر اهمها انقاض تعرف بقصر البنت وقبر الباشا والقلعة والبرج

وقرأوا ما عليها من النقوش النبطية فاذا اكثرها أو كلها تبركات منقوشة على القبور . هذا مثال منها وجدوه في الحجر بالحرف النبطي وتاريخه حوالي الميلاد :

« هذا القبر الذي بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكليبة ابنتها لانفسهن وذريتهن في شهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه فسي ذو الشرى وعرشه (؟) واللات وعمند ومنوت وقيس تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضواً او يدفن فيه أحداً غير كمكم وابنتها وذريتها ومن يخالف ما كتب عليه فيلعنه ذو الشرى وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر (؟) غرامة مقدارها الف درهم حارثي الا من كان بيده تصريح من يد كمكم او كليبة ابنتها بشأن هذا القبر والتصريح المذكور يجب ان يكون صحيحاً . صنع ذلك وهب اللات بن عبد عبادة » [١]

فليس في أمثال هذه النصوص اهمية تاريخية الا بالنظر الى اسماء الاعلام الواردة في عرض الكلام ولم يقفوا على ما يستحق الذكر منها حتى الآن . واللغة المنقوشة على اطلال الحجر آرامية مثل لغة بطرا وسنعود الى الكلام عنها في كلامنا عن الدولة النبطية لانها ليست لغة ثمود نفسها . أما ثمود فاذا كانت من عرب الجنوب فيقتضي أن تكون لغتها قريبة من لغة اليمن وكتابتها بالحرف المسند الذي كان يكتب به أهل اليمن القدماء وقد وجدوا تنوعات من هذا القلم في أماكن مختلفة من الحجاز منقوشة على الحجارة في العلاء جنوبي الحجر بتاريخ اوائل الميلاد [٢] فرأوا في بعضها

(١) Cooke, 220 (٢) Dussaud, 66 & Litman, Mith 1904

اسماء ملوك لحيان فسموها لحيانية وسموا البعض الآخر وهو يختلف قليلاً عن ذاك ثمودية . وعثروا على كتابات لفرع ثالث من المسند في جبل الصفا بحوران فسموه صفوياً . فهذه فروع للخط المسند لاشك ان اهلها قدموا الحجاز وحوران من اليمن وسنعود الى ذلك

غير اننا نستدل من وجوه هذه الكتابة قرب الحجر على ان أهل ذلك المكان اصلهم من اليمن ولا يمكن الجزم بتاريخ هذه الكتابات لان ما وقفوا عليه منها لا يشفي غليلاً والناس يتوقعون من التوسع في حلها واكتشاف غيرها كشف كثير من غوامض هذه الدولة ويظن غلازر ان لحيان بقية ثمود (١)

طسم وجديس

ان هذين الاسمين مقترنان في تاريخ العرب اقتران عاد وثمود والاكتشافات الاثرية لم تصل اليهما بعد فنكتفي بما يستنتج من كلام العرب واليونان عنهما . وهما من ارم مثل سائر العرب البائدة (٢) وذكر انهما سكنتا اليمامة في شرقي نجد وقصبتهما القرية وطسم صاحبة السيادة . ظلوا على ذلك برهة من الزمان حتى انتهى الملك في طسم الى رجل ظلوم غشوم قد جعل سنته ان لا تهدى بكر من جديس الى بعلها حتى يدخل هو عليها . ولما طال ذلك على جديس انفوا منه واتفقوا على أن دفنوا سيوفهم في الرمل وعملوا طعاماً للملك دعوه اليه فلما حضر في خواصه من طسم عمدت جديس الى سيوفهم وقتلوا الملك وغالب طسم . فهرب رجل من هؤلاء الى تبع ملك اليمن قيل هو حسان بن اسعد شكا اليه ما فعلته جديس بهم واستنصره فسار ملك اليمن الى جديس واوقع بهم فافناهم فلم يبق لطسم وجديس ذكر (٣) .

هذه خلاصة تاريخ هاتين الامتين ويتخلل ذلك حديث عن امرأة من جديس اسمها زرقاء اليمامة كانت تبصر على مسافة ثلاثة أيام وانها لما حمل تبع على جديس طلبوا اليها ان تكشف لهم عن القوم فانبأتهم بقدومهم فلم يصدقوها ثم تحققوا صدقها

(١) Glaser, Geo. 124 & 230 (٢) الدينوري ١٣ (٣) ابو الفداء ١٠٥ ج ١

أما عصر هذه الدولة فيؤخذ من فنائها على يد تبع حسان انها بادت في أوائل القرن الخامس للميلاد . وذكر جغرافيو اليونان في جملة قبائل شرقي بلاد العرب قبيلة سموها Jolisitae ولعلهم يريدون Jodisitae لسهولة ابدال اللام اليونانية من الدال لتقاربهما بالصورة وهي جديس

ولهاتين الامتين آثار قلاع اشار ياقوت الى بعضها وهي المشقر قال انه قلعة من بناء طسم [١] لها ذكر في أيام العرب . والمعنق اعظم قصور اليمامة من بناء طسم على اكمة مرتفعة قال فيه الشاعر :

أبت شرفات من شموس ومعنق لدى القصر منا ان تضام وتضهدا [٢]

والشموس المذكور في البيت قصر آخر نخم من بناء جديس محكم البناء . وكأن تلك البلاد بعد ان باد اهلها هجرت ثم عثروا على انقاضها صدفة وقد ذكر ذلك ياقوت في مادة حجر

ومن أشهر مدن طسم وجديس القرية في اليمامة ويقال لها خضراء حجر وهي حاضرة طسم وجديس فيها آثارهم وحصونهم وبتلهم الواحد بتيل وهو بناء مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين وقد رآه المسلمون في القرن الثالث أو الرابع وذكر أحدهم انه ادرك بتيلاً طوله ٥٠٠ ذراع واهل زرقاء اليمامة نظرت جيش تبع من احده [٣] وفي اليمامة بلد اسمه جعدة فيه قصر يعبرون عنه بالعادي لقدمه ويذكرون انه من بناء طسم وجديس وانه حصن منيع [٤] . ومن مدن اليمامة الحجر لطسم وجديس فيها آثار [٥] والحجر بلغة أهل اليمن القرية فلعل حجر والقرية من أصل واحد [٦]

وليس في أخبار سائر القبائل البائدة التي عرفها العرب ما يستحق الذكر لغموضه فنتكلم عن دولتي الانباط وتدمر

---

(١) ياقوت ٤١ ج ٤٥ (٢) ياقوت ٥٧٩ ج ٤ (٣) الهمداني ١٤٠
(٤) الهمداني ١٦٠ (٥) ياقوت ٢٠٨ ج ٢ (٦) ياقوت ٩٥٢ ج ٤

دولة الانباط

في مشارف الشام

هي دولة عربية لم يعرفها العرب ولا وجدنا لها ذكراً في كتبهم واذا ذكروا الانباط ارادوا بهم اهل العراق . وانما عرفنا خبرها من خلال ما كتبه اليونان عن البطالسة والسلوقيين والروم او من بعض اسفار الكتاب المقدس ومما وقف عليه النقابون من آثارها او قرأوه من اساطيرها على انقاض بطرا وغيرها من مدنهم في حوران ومدائن صالح وغيرها

مقر هذه الدولة ومملكة ادوم

كان مقرها في الجنوب الشرقي من فلسطين تمتد من حدود فلسطين هناك الى رأس خليج العقبة ويحدها من الغرب وادي العرابة ومن الجنوب بادية الحجاز ومن الشرق بادية الشام ومن الشمال فلسطين طولها من الشمال الى الجنوب نحو مئة ميل وعرضها ٢٠ ميلاً . وهي نفس مملكة الادوميين وقد اختلفت سعتها باختلاف الاعصر ارضها صخرية فيها الجبال والشعب وكانت تسمى قديماً « بلاد الجبال » واليونان يسمونها العربية الحجرية Arabia Petra نسبة الى عاصمتها فان اسمها عندهم بطرا (الحجر) وهي ترجمة اسمها بالعبرانية فقد كان اليهود يسمونها سلاع (סלע) وهو الحجر في لسانهم . اما مملكة ادوم كلها فكانت تعرف عند اليهود باسم « سعير » واليونان يسمونها « ايدوما »

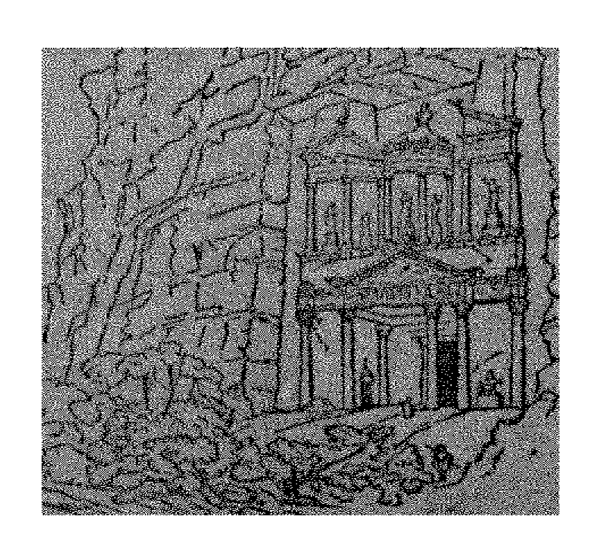
اقدم من سكن العربية الحجرية الحوريون وهم سكان الكهوف القدماء ويسميهم اليونان troglodytes ويؤيد ذلك ما في تلك الجبال من الكهوف الطبيعية او المنحوتة وبينها الهياكل والمدافن . ثم جاء الادوميون فغلبوهم على ما في ايديهم واقاموا مكانهم في زمن لا يعرف اوله لقدم عهده وقد جاء ذكره في سفر التكوين . وكان الادوميون قبائل او فرقاً على كل منها رئيس وفي التوراة اخبار متفرقة عن علائق الادوميين بالاسرائيليين الى ان حمل شاول على ادوم في القرن العاشر قبل الميلاد ولم يفز فوزاً تامًّا فلما تولى داود حمل عليهم ودوخهم واقام في بلادهم حامية من جنده وجعل طريقه من اورشليم الى البحر الاحمر فيها فهان على ابنه سليمان انشاء فرضة على خليج العقبة يبني فيها السفن اذا اراد السفر الى اليمن او الحبشة او الهند . وهمَّ قائد من الادوميين

في عهد سليمان بخلع الطاعة فلم يفلح فما زالوا تحت سيطرة الاسرائيليين الى ايام يهوشافاط فخالفوا اعداءه واعانوهم على حربه فلم يفوزوا ولكنهم اغتنموا ضعف الاسرائيليين وعادوا الى الاستقلال . حتى اذا حمل نبوخذ نصر (بختنصر) على اورشليم كان الادوميون عوناً له على اهلها واشتركوا في نهبها وذبح اهلها فكافأهم نبوخذ نصر على نصرته بتأييد سلطتهم في ادوم وتوسيعها الى حدود مصر وشواطيء البحر المتوسط

وبينما هم ينشرون سلطانهم غرباً داهمهم الانباط من الشرق واوغلوا في ادوم حتى ملكوها جميعاً وذهبت دولة الادوميين واندمج اهلها في الفاتحين وصاروا امة واحدة فانشأ الانباط هناك دولة عربية قبل القرن الرابع قبل الميلاد ظلت قائمة الى اوائل القرن الثاني بعده اذ دخلت في حوزة الرومان سنة ١٠٦ م

مدينة بطرا

هي قصبة الانباط ذكر سترابون انها مدينة صخرية قائمة في مستو من الارض تحيط به الصخور كالسور المنيع وليس وراءها غير الرمال المحرقة وهي واقعة في وادي موسى عند ملتقى طرق القوافل بين تدمر وغزة وخليج فارس والبحر الاحمر واليمن. وقد عمرت في ابان دولة الانباط وكثرت فيها الابنية . فلما ذهبت الدولة تخرب معظمها وبقي منها الى الآن اطلال لا تفنيها الايام ولا يؤثر فيها الاقليم اعظمها خزنة فرعون



ش ٧ — خزنة فرعون في بطرا
وهي بناء شامخ منقور في صخر وردي اللون على وجهته نقوش وكتابات بالقلم النبطي

وبجانبها مرسح منقور في الصخر ايضاً يستطرق من هناك الى سهل واسع فيه عشرات من الكهوف الطبيعية او المنقورة ولبعضها وجهات منقوشة وجدران اكثرها ظهوراً مكان يقال له « الدير » . وكانت هذه الكهوف مساكن الحوريين القدماء ويلجأ اليها اليوم بعض الفقراء فراراً من المطر او البرد

هي الرقيم عند العرب

ليست بطرا من بناء الانباط وانما هي مدينة ادومية جاء في سفر الملوك الثاني ص١٤ ع٧ انها كانت حصناً في ايام أمصيا سنة ٨٣٨ق‌م والتوراة تسميها سلاع (الحجر) فلما صارت الى الانباط وعرفها اليونان سموها بطرا كما تقدم . أما العرب فليس لهذه المدينة ذكر في كتبهم وقد عثر بعض المعاصرين على لفظ (البتراء) في سياق غزوة النبي بني لحيان فتبادر الى اذهانهم انها بطرا التي نحن في صددها ولكن المفهوم من مجمل الحديث [١] انها بقرب المدينة وبينها وبين بطرا الانباط نحو ٥٠٠ ميل . وفي بلاد العرب غير مكان يسمى « سلع » وهو بمعنى بطرا من جملتها مكان ذكر ياقوت انهُ حصن في وادي موسى [٢] فلعله يريد بطرا هذه

ولكن العرب شاهدوا آثار هذه المدينة بعد الاسلام وسموها « الرقيم » وهو تعريب احد اسمائها اليونانية لان اليونانيين كانوا يسمونها ايضاً اركه « Arke » فحرّفهُ العرب وقالوا الرقيم وربما أرادوا بالرقيم خزنة فرعون على الخصوص . واشتهر هذا المكان في دولة بني امية وكان ينزلهُ الخلفاء وفي جملتهم يزيد بن عبد الملك وفيه يقول الشاعر [٣]

امير المؤمنين اليك تهوى على البخت الصلادم والعجوم
فكم غادرت دونك من جهيض ومن نعل مطرّحة جذيم
يزرن على تنائية يزيداً باكناف الموقّر والرقيم
تهنئهُ الوفود اذا اتوه بنصر اللهِ والملك العظيم

ونظراً لما شاهدوه فيه من الابنية والاساطين والنقوش زعموا انه المكان الذي كان فيه اهل الكهف ورووا عنه اخباراً ذكرها المقدسي في كتابه « احسن التقاسيم » قال: « والرقيم قرية على فرسخ من عمان على تخوم البادية فيها مغارة لها بابان صغير وكبير يزعمون ان من دخل الكبير لم يمكنه الدخول من الصغير . وفي المغارة ثلاثة قبور تسلسل لنا من اخبارها ان النبي (صلعم) قال بينما نفر ثلاثة يتماشون اذ اخذهم

(١) ابن هشام ١٦٤ ج ٢ وياقوت والبكري مادة البتراء (٢) ياقوت ١١٧ ج ٣
(٣) ياقوت ٨٠٥ ج٢

المطر فالوا الى غار في الجبل فانحطت الى فم غارهم صخرة من الجبل فاطبقت عليهم » ثم ذكر توسلهم الى الله بحسنات اتوها حتى افرج عنهم بحديث طويل [١] لا محل له هنا

وقال الاصطخري في وصفها « الرقيم مدينة بقرب البلقاء وهي صغيرة منحوتة بيوتها وجدرانها في صخر كانها حجر واحد [٢] . وقال المقريزي في عرض كلامه عن التيه « ان بعض المماليك البحرية هربوا من القاهرة سنة ٦٥٢ هـ فمرت طائفة منهم بالتيه فتاهوا فيه خمسة ايام ثم تراءى لهم في اليوم السادس سواد على بعد فقصدوه فاذا مدينة عظيمة لها سور وابواب كلها من رخام اخضر فدخلوا بها وطافوا فاذا هي قد غلب عليها الرمل حتى طم اسواقها ودورها ووجدوا بها اواني وملابس وكانوا اذا تناولوا منها شيئاً تناثر من طول البلى ووجدوا في صينية بعض البزازين تسعة دنانير ذهباً عليها صورة غزال وكتابة عبرانية . وحفروا موضعاً فاذا حجر على صهريج ماء فشربوا ماء ابرد من الثلج ثم خرجوا ومشوا ليلة فاذا بطائفة من العربان فحملوهم الى مدينة الكرك فدفعوا الدنانير لبعض الصيارف فاذا عليها انها ضربت في ايام موسى (كذا) ودفع لهم في كل دينار مائة درهم وقيل لهم ان هذه المدينة الخضراء من مدن بني اسرائيل ولها طوفان رمل يزيد تارة وينقص اخرى لا يراها الا تائه » [٣].

وفي هذا الوصف مثال لاختلاط الحقيقة بالخرافة في امثال هذه الروايات فلا ريب ان المماليك شاهدوا اطلال بطرا ووجدوا الدنانير اما من ضرب اليهود او النبطيين ولكن تعليل الصيارف عن ضربها وبناء المدينة فيشبه كثيراً من امثال هذه الروايات

ذلك خلاصة ما عرفه المسلمون عن بطرا وقد زارها غير واحد من المستشرقين في القرن الماضي وقرأوا ما عليها من النقوش النبطية

الانباط

جاء ذكر الانباط على آثار اشور من عهد اشوربانيبال في اواخر القرن السابع قبل الميلاد في كلامه عن الملوك الذين غلبهم وذكر من جملتهم ناتان ملك النبطيين كما سيأتي ولعلهم يريدون نبط العراق . واما في التاريخ الصريح فاقدم ما عرف من اخبارهم لايتجاوز اوائل القرن الرابع قبل الميلاد على اثر فتوح الاسكندر في الشرق . ذكرهم ديودورس الصقلي المتوفى في القرن الاول قبل الميلاد في كلامه عن اغارة انطيغونس

(١) المقدسي ١٧٥ (٢) الاصطخري ٦٤ (٣) المقريزي ٢١٣ ج ١

سنة ٣١٢ ق م على بطرا وارتداده عنها بالفشل فقال انهم عشرة آلاف مقاتل لا شبيه لهم في قبائل البدو وان بلدهم الوعر الماحل ساعدهم على التمتع بالحرية والاستقلال لانهم كانوا يستغنون عن سائر العالم بصهاريج منقورة في الصخور يملأونها من ماء المطر في الشتاء ويحكمون سدها ويعتصمون في الجبال حولها فلا يصل اليهم فاتح او طامع . وانهم خلفوا الادوميين في بلادهم

وكان انطيغونس خليفة الاسكندر قد حمل على بطليموس صاحب الاسكندرية فاضطر في مسيره ان يمر ببطرا وهي في ايدي النبطيين فلم ير بداً من محالفتهم او قهرهم وكان بطليموس لحسن سياسته قد اجتذب قلوبهم فعزم انطيغونس على قهرهم [1] فاغتنم خروج الرجال للغزو او ملاقاة بعض القوافل واكتسح مدينتهم ونهبها فلقيه النبطيون وهو عائد عنها فقتلوا رجالهُ عن آخرهم . فاعاد الكرة عليهم بحملة اخرى تحت قيادة ديمتريوس فخاف الانباط كثرة الجند فأووا الى حصونهم وكتبوا الى انطيغونس كتاباً بالآرامية يعتذرون اليه عما فعلوه وانهم انما دافعوا عن انفسهم فلا يعدّ ذلك ذنباً لهم . فاجابهم جواباً ليناً واضمر الغدر . فلم تنطل عليهم حيلته فتحصنوا فجاءهم ديمتريوس وشدد الحصار عليهم والمدينة ممتنعة فلما طال الحصار أطل رجل منهم عن السور وخاطب ديمتريوس قائلاً « ايها الملك لماذا تقاتلنا ونحن مقيمون في بادية لا مطمع فيها لاهل المدن أتحاربوننا لفرارنا من الرق الى بلد لا شيء فيه من مرافق الحياة . فاقبل رعاك الله ما ندفعه اليك نظير انسحابك وثق اننا منذ الآن اصدقاؤكم واذا ابيتم الا اطالة الحصار فلا تنالون غير التعب والفشل لانكم لن تجدوا سبيلاً الينا ونحن في هذا الحصن المنيع واذا قدر لكم الظفر فلا تنالونه الا بعد ان نموت جميعاً ولا يبقى لكم غير هذه الصخور الصماء وانتم لا تستطيعون سكناها » فأثر كلام الرجل في ديمتريوس وتأكد امتناع المدينة فانسحب برجاله عنها

واستفحل امر النبطيين بعد ذلك حتى انشأوا دولة منظمة وولوا عليهم ملوكا ضربوا النقود واستوزروا الوزراء . وكان ملوكهم يسمون على الغالب باسم « الحارث » وهو باليونانية اريتاس (Aretas) او « عبادة » وفي اليونانية اوباداس Obodas او « مالك » وفي اليونانية ماليكوس Malichus . واقدم من وقف الباحثون على اسمه من ملوكهم الحارث الاول حكم نحو سنة ١٦٩ ق م وملك بعده زيد ايل ثم الحارث الثاني ويلقب ايروتيموس

(١) Sharpe, I. 276

حكم سنة ١١٠ ق م ثم عبادة الاول سنة ٩٠ ق م ثم ربيال سنة ٨٧ ولم يقفوا لهؤلاء على نقود مضروبة باسمائهم ثم توالى بعدهم بضعة عشر ملكا وجدوا اسماءهم على النقود الا آخرهم مالك الثالث غلبه الرومانيون على امره وذهبوا بدولته سنة ١٠٦ ام وهذه اسماء ملوك النبطيين الذين اتصلت بنا أخبارهم [١] نقلاً عن النقود وغيرها

ملوك الانباط

اسم الملك	سنة الحكم تقريبا	
الحارث الاول	١٦٩	ق م
زيد ايل	١٤٦	»
الحارث الثاني الملقب اريتيموس	١١٠—٩٦	»
عبادة الاول	٩٠	»
ربيال الاول بن عبادة الاول	٨٧	»
الحارث الثالث فيلهلين بن ربيال	٨٧ — ٦٢	»
عبادة الثاني بن الحارث الثالث	٦٢ — ٤٧	»
مالك الاول بن عبادة الثاني	٤٧ — ٣٠	»
عبادة الثالث بن مالك الاول	٣٠ — ٩	»
الحارث الرابع الملقب فيلوباتر شقيق عبادة الثالث الملكة خلدو امرأته » شقيلة »	٩ — ٤٠	ب م
مالك الثاني بن الحارث الرابع الملكة شقيلة امرأته	٤٠ — ٧٥	»
ربيال الثاني الملقب سوتر بن مالك الثاني الملكة شقيلة والدته اثناء وصايتها عليه » جميلة امرأته	٧٥ — ١٠١	»
مالك الثالث	١٠١ — ١٠٦	»

هؤلاء هم الملوك الذين قرأ الباحثون اسماءهم على النقود او الآثار حتى اليوم وربما

(١) Dussaud, J. A. 1904

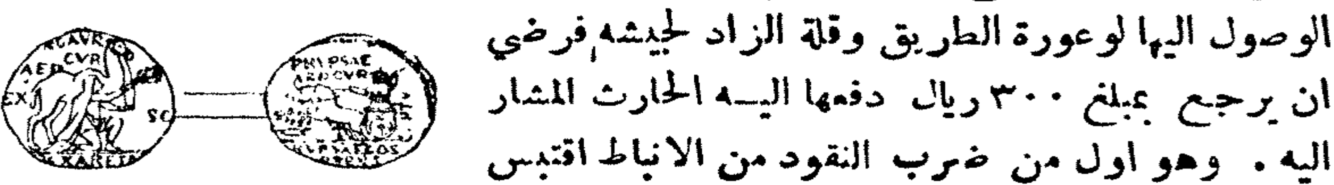
عثروا على غيرهم في المستقبل — وهذه خلاصة ما عرف من أخبارهم

(١) الحارث الاول : كان الحارث الاول معاصراً لانطيوخوس ايفانيس السلوقي ملك سوريا نحو سنة ١٦٩ ق م وبطليموس فيلوماتر صاحب الاسكندرية ووقع بين البلدين قتال غلب فيه السلوقيون ولعلهم استعانوا بالانباط في تلك الحرب

(٢) زيد ايل : كان معاصراً للاسكندير ملك سوريا جاء ذكره في سفر المكابيين وكان على الاسكندرية في زمانه بطليموس ارجيت الثاني سابع البطالسة

(٣) الحارث الثاني : كان معاصراً لسوتر الثاني وهو بطليموس الثامن صاحب الاسكندرية المتوفى سنة ٨٢ ق م ولاسكندر يانيوس صاحب سوريا المتوفى سنة ٧٩ ق م

(٤) الحارث الثالث : لهذا الحارث شأن عظيم في تاريخ هذه الدولة لانه تغلب على البقاع بسوريا ودعاه الدمشقيون ليتولى أمرهم وكانوا يكرهون بطليموس فملكهم سنة ٨٥ ق م وكانت دمشق قصبة السلوقيين فتولاها ولقبوه من أجل ذلك فيلهلين Philhelèn أي محب اليونان . واشترك أيضاً مع هركانوس في تنازعه على الملك مع اخيه ارستوبولس وحاصر اورشليم لكنه عند وصول سكاوروس القائد الروماني تقهقر الى فيلادلفيا (عمان) مع هركانوس فادركهما ارستوبولس في مكان اسمه بابيرون وغلبهما وقتل ٦٠٠٠ من رجالهما . وبعد ثلاث سنوات كان سكاوروس المذكور قد أصبح والياً على البقاع تحت رعاية بومبيوس صاحب رومية فحمل على بطرا فاعجزه الوصول اليها لوعورة الطريق وقلة الزاد لجيشه فرضي ان يرجع بمبلغ ٣٠٠ ريال دفعها اليه الحارث المشار اليه . وهو اول من ضرب النقود من الانباط اقتبس ذلك من ملوك اليونان في اثناء سلطانه على دمشق وقد وجد بعضهم ديناراً عليه نقش يرمز به عن اتفاق الحارث وسكاوروس وصورة جمل وشجرة عطرية (انظر ٨)


ش ٨ نقود الحارث الثالث وسكاوروس

(٥) عبادة الثالث : لا نعرف خبراً يستحق الذكر جرى في أيام عبادة الثاني او مالك الاول . اما عبادة الثالث ففي ايامه كانت حملة اليوس غالوس القائد الروماني على بلاد العرب وقد استعان فيها بالنبطيين . وكان سترابون الرحالة اليوناني معاصراً له فذكرها في رحلته قال ان اغسطس قيصر بعث سنة ١٨ ق م حملة بقيادة اليوس غالوس عامله على مصر لفتح جزيرة العرب واستنصر النبطيين فاظهروا رغبتهم في نصرته على يد وزير لهم يومئذ اسمه سيلوس وان هذا الوزير خدعهم فذهب بهم في طرق وعرة أعجزهم المرور

فيها فقضوا اياماً قاسوا بها العذاب الشديد واقصى مكان بلغوه بعد ذلك العذاب مدينة يسميها استرابون بلد الرامانيين (Rhamanitae) وملكها اسمه اليزاروس (Elisaros) فحاصروها ستة أيام لكن العطش حملهم على رفع الحصار والانسحاب . وينسب سترابون هذا الفشل الى خيانة وزير النبطيين . ويرى العارفون ان سترابون انتحل ذلك العذر لتبرئة اليوس غالوس لانه صديقه . وبعد تسعة أيام من انسحابه وصل الى نجران ومر بالجوف الجنوبي . وما زال يتنقل من بلد الى آخر حتى وصل الحجر وهي يومئذ تابعة لبطرا وسار منها الى البحر الاحمر ومنه الى مصر بعد ان قضى في هذه الحملة ستين يوماً . وقد فصل المستشرق سبرنجر هذه الحملة مطولا (١)

(٦) الحارث الرابع : ويسمى اينياس وهو حمو هيرودس انتيباس فاراد هذا ان يتزوج بهيروديا امرأة أخيه هيرود فيليب ابنة ارستوبولس اخيهما واخت أغريبا الكبير فشق ذلك على ابنة الحارث فرجعت الى منزل ابيها . وانتشبت الحرب بين الحارث وهيرودس وكان الظفر فيها للحارث وفشل هيرودس فشلاً عظيماً فرفع امره الى رومية فبعث الامبراطور (طيباريوس) الى فيتالس ان يرسل الحارث اليه مكبلاً بالحديد واذا قتل فليرسل اليه رأسه . فحمل فيتالس على بطرا لكنه تأخر في اورشليم لحضور الفصح وبلغه وهو هناك موت طيباريوس سنة ٣٧ م فأخذ البيعة على جنده واطلق سراحهم ليذهبوا الى منازل الشتاء وعاد الى انطاكية وظل الحارث في دمشق. وفي اثناء وجوده هناك فرَّ منها بولس الرسول على ما جاء في الكتاب المقدس

ولم يقف الباحثون على ما يستحق الذكر من اخبار ملوك الانباط بعد الحارث الرابع لان الدولة اخذت بعده بالضعف والانحلال وتداخل النساء في شؤونها حتى ضربت النقود باسمائهن مع اسماء الرجال كما ترى اشتراكهن معهم في السيادة

سعة مملكة الانباط

واتسعت مملكة الانباط في عهد أولئك الملوك حتى شملت جزيرة سينا من الغرب وحوران الى حدود العراق من الشرق وبلغت الى وادي القرى في الجنوب فدخلت الحجر بمدينة الثموديين في حوزتهم وطمع بهم الرومانيون بعد استيلائهم على مصر والشام وحاربوهم على ايام اوغسطس وارتدوا عنهم

وظلت مدينة بطرا مركزاً تجارياً بين الشرق والغرب والجنوب والشمال حتى

(١) The Campaign of Aelius Gallus in arabia

اعادوا الطريق من القصير على البحر الاحمر الى قفط على النيل فاخذت في التقهقر وكان الانباط قد تحضروا فذهبت خشونة البداوة واركنوا الى الزراعة واووا الى المنازل وانغمسوا في الترف فلما افضت الدولة الرومانية الى الامبراطور تراجان واصبح قادراً على الاستعانة بالجند المصري عجز النبطيون عن الوقوف في وجهه فجرد عليهم حملة غلبتهم على مدينتهم سنة ١٠٦ م وضرب الروم نقوداً خاصة بذلك الفتح على سبيل التذكار . فذهبت عصبية النبط وانحلت قواهم فاخلدوا الى الدعة واختلطوا بأهل البلاد الاصليين من السريان او الآراميين وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي البادية بين سينا والفرات . ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين وتحوَّلت الطرق التجارية الى تدمر الآتي ذكرها

تمدن الانباط

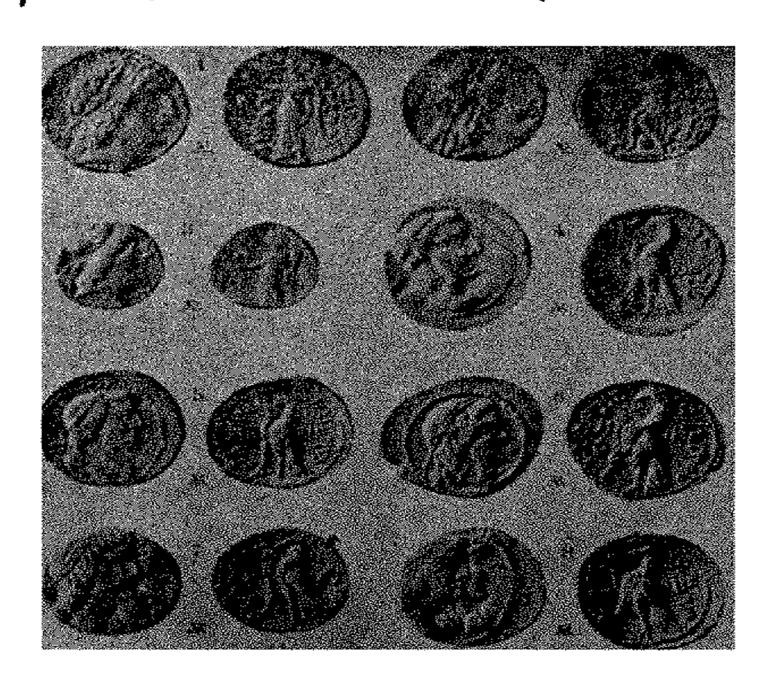
قد رأيت ان مملكة الانباط شملت في ابان اتساعها معظم شمالي جزيرة العرب ويدخل فيها مواب والبلقاء وحوران وشبه جزيرة سينا وارض مديان وأعالي الحجاز واشهر المدن التي دخلت في حوزتهم بطرا وبصرى واذرع وعمان وجرش والكرك والشوبك وايلة والحجر (مدائن صالح) تشهد بذلك النقوش الكتابية التي عثروا عليها بلسانهم على انقاض تلك المدن ولا سيما في بطرا والحجر والعلاء وحبران وصلخد ومادبا وامتان والوادي المكتَّب في سينا . وقد حل المستشرقون هذه النقوش في أواسط القرن الماضي وأواخره . ووجدوا نقوشاً من لغتهم في دمَّر على حدود دمشق . ومما يدل على سعة علائقهم التجارية ان بعض الباحثين عثر على كتابة نبطية في فرضة بتيولي في ايطاليا فحواها ان رجلاً اسمه صيدو وقف في السنة الرابعة عشرة من حكم الحارث الرابع شيئاً من مقتنياته على اسم هذا الملك وامرأته (١)

واحسن من وصف آداب النبطيين واخلاقهم ديودروس الصقلي في القرن الاول قبل الميلاد فكتب ما عرفه بنفسه وخلاصة قوله « ان الانباط يعيشون في البادية الجرداء التي لا أنهر فيها ولا سيول ولا ينابيع . ومن امهات قوانينهم منع زراعة الحبوب او استثمار الاشجار وتحريم الخمر او بناء المنازل ويعاقبون من يخالف ذلك بالقتل مع التشديد في العمل بهذه القوانين . ويقتات بعضهم بلحوم الابل والبانها والبعض الآخر بالماشية أو الغنم ويشربون الماء المحلى بالمن ومنهم قبائل عديدة تقيم في البادية ولكن النبطيين اغنى تلك القبائل وان كان رجالها لا يزيد عددهم على ١٠٠٠٠ رجل وثروتهم من الاتجار

(١) Cooke, 257

بالاطياب والمر وغيرها من العطريات يحملونها من اليمن وغيرها الى مصر وشواطىء البحر المتوسط . ولم تكن تمر تجارة في أيامهم بين الشرق والغرب الا على يدهم ويحملون الى مصر على الخصوص القار لاجل التحنيط . وهم ضنينون بحريتهم فاذا داهمهم عدو يخافون بطشه فروا الى الصحراء وهي أمنع حصن لهم لانها خالية من الماء فلا يدخلها سواهم الا مات عطشاً . أما هم فيشربون من صهاريج سرية مربعة الشكل منقورة في الصخر تحت الارض يخزنون الماء فيها ولها فوهات ظاهرها ضيق وباطنها واسع اتساع احدها ثلاثون متراً مربعاً فيملأونها بمياه المطر ويحكمون سدها بحيث يخفى مكانها على غير العارف ولهم على فوهاتها علامات ترشدهم اليها لا يعرفها سواهم »

وللانباط سكة خاصة للنقود قلدوا بها اليونان وهذه امثلة من نقودهم (ش ٩)



ش ٩ ـ نقود بعض ملوك النبطيين

(١) نقد الحارث الثالث الملقب فيلهلين على احد وجهيه صورة رأسه متجهاً نحو اليمين وعلى الوجه الآخر صورة امرأة ترمز عن النصر وقد نقش وراءها اسم الملك الحارث باليونانية Basileos Aretou وامامها لقبه محب اليونان فيلهلين

(2 و 3 و 4 و 5) نقود للحارث المذكور ايضاً تختلف في شكلها عن ذاك من بعض الوجوه ولكن الكتابة عليها واحدة

(6) نقد لعبادة الثاني على وجهه الايسر رأس وعلى الايمن صورة نسر امامه نقش بالنبطية معناه « الملك عبادة » ووراءه « ملك الانباط » وعلى الرأس « السنة الثانية »

(7) نقد آخر لعبادة المذكور على احد وجهيه رأسان وعلى الوجه الآخر نسر ومثل تلك الكتابة

(8) نقد مالك الاول على احد وجهيه رأسان وعلى الآخر نسر وعليه كتابة معناها « الملك مالك ملك الانباط »

هل الانباط عرب

اختلف المؤرخون في اصل هذه الامة فذهبت طائفة مذهب اهل التوراة انهم من نسل نبايوط بن اسماعيل وذهب آخرون انهم من اهل العراق لان النبط يطلق على سكان ما بين النهرين ولغة الانباط التي قرأوها على آثارهم آرامية متخلفة عن لغة ما بين النهرين وانهم هاجروا من العراق الى ادوم وهو رأي كاترمير الفرنساوي . وذهب غيرهم ان النبط اصلهم من جبل شمر في اواسط بلاد العرب ونزحوا الى جزيرة العراق لما فيها من الخصب والرخاء فاقاموا هناك حتى داهمهم الاشوريون او الماديون فاخرجوهم من ذلك الوادي . وذهبت طائفة اخرى ان الانباط اتوا من شواطىء خليج العجم . ويرى كوسين دي برسفال المستشرق الفرنساوي انهم عراقيون اتى بهم نبوخذ نصر في القرن السادس قبل الميلاد لما اكتسح فلسطين فانزلهم في بطرا وما يليها . وقال غيرهم غير ذلك مما يطول بنا تفصيله فنقتصر على ابداء رأينا بالاسناد الى ما وقفنا عليه من احوال هذه الامة فنقول :

ان أوجه الاختلاف بين العلماء في اصل اولئك الانباط ترجع الى « هل هم عرب او آراميون ؟ » وعندنا انهم عرب والادلة على ذلك

أولا : قول الذين عرفوهم من مؤرخي اليونان فانهم حيثما ذكروهم سموهم عرباً

ثانياً : ان اسماء ملوكهم عربية كالحارث وعبادة ورببال ومالك وجميلة . وللاعلام دخل كبير في بيان اصول الامم كما قلنا عند كلامنا على اصل الحورابيين ـ فالرجل الذي يسمى نيقولا يدس نحكم انه يوناني الاصل وان تزيا بزي الاتراك أو الروسيين والمسمى ارتين او دمرجيان نحكم انه أرمني وان كانت لغته الفرنساوية أو الانكليزية او العربية اذ لكل أمة تسمية خاصة بها . وقد تسمى ابناءها باسماء أمة اخرى كما يفعل نصارى

الشرق لهذا العهد فيسمون ابناءهم باسماء افرنجية ولكن ذلك لا يكون الا بتقليد الضعيف القوي أو البسطاء لاهل التمدن ولا ينطبق ذلك على بطرا لان العرب لم يكونوا يومئذ أهل تمدن وسطوة وانما كان التمدن في العالم السامي للآراميين او البابليين

والقائلون بآراميتهم يحتجون بان لغتهم آرامية وان لفظ النبط يطلق عند العرب على اهل العراق وهو رأي وجيه لا ينقض بسهولة . ولكن مؤرخي اليونان الذين سموهم عرباً قد عاصروهم وهم اعلم الناس بهم . نعم ان اللغة التي قرأوها على آثارهم آرامية لكنها ليست هي لغة التكلم عندهم

وذلك ان النبطيين فرقة من عمالقة العراق بدو الآراميين الذين هجروا ضفاف الفرات بعد ذهاب دولة حمورابي من العراق وتفرقوا قبائل وبطوناً في جزيرة العرب ولعلهم المراد بقول العرب « ارمانيون » فهم يريدون بالارمانيين القبائل المتسلسلة من ارم [1] . فالنبطيون قبيلة منهم لا يبعد انها اقامت زمناً على شواطىء خليج العجم وكانت ترتزق بنقل التجارة في البادية بين ذلك الخليج والبحر المتوسط والبحر الاحمر حتى عرفوا ادوم وتوسطها بين خليج فارس والامم المتمدنة في ذلك العهد باشور وفينيقية ومصر فاستولوا عليها بكيفية لا نعرفها وجعلوا بطرا عاصمتهم . ومن كلام ابن خلدون « وأول ملك للعرب بالشام فيما علمناه للعمالقة ثم لبني ارم بن سام ويعرفون بالارمانيين» وقال حمزة الاصفهاني « الارمانيون نبط الشام والاردوانيون نبط العراق » [2]

لغة الانباط

أما لسانهم الذي كانوا يتفاهمون به فانه عربي مثل اسمائهم ولا عبرة بما وجدوه منقوشاً على آثارهم باللغة الآرامية فانها لغة الكتابة في ذلك العهد مثل اللغة الفصحى في أيامنا . فلو ذهب أهل هذا الجيل من سكان مصر والشام وذهب لسانهم الذي يتكلمونهُ واراد أهل الاجيال القادمة ان يستدلوا على جنسنا من آثارنا الكتابية لعدونا من أهل البادية او من قريش لاعتمادهم على لغة الكتابة وهي لغة قريش . وذلك كان شأن الدول القديمة بالشرق ولا سيما بما يتعلق بالآثار الدينية أو السياسية . ولكل دولة لغة رسمية تذيع بين رعاياها فيتكاتبون بها أو ينقشونها على آثارهم كما تتكاتب دول أوربا بالفرنساوية ويتخابر اهل الشرق الاقصى بالفارسية

فاللغة البابلية هي اللغة التي كان يتكلمها أول من تسلط من الساميين في العراق وما

يليها واخذوا يكتبون أوامرهم ويدونون اخبارهم بها بالحرف المسماري الذي اقتبسوه من السومريين . وشاع استعمالها في المملكة البابلية على اختلاف عناصر أهلها حتى صارت لغتها الرسمية يتكاتب بها أهل العراق وفارس وغيرها ـ ظلوا على ذلك اكثر من الفي سنة واللغة المذكورة واحدة لم يحدث في الفاظها او تراكيبها تغيير يستحق الذكر . ولا يعقل ان تبقى كذلك على ألسنة القوم بدليل ما شاهدناه من التغيير الذي طرأ على لغة قريش قبل انقضاء الالف الاول من تداولها على الالسنة فانها تفرعت الى لغات شتى . فبالقياس على ذلك تفرعت اللغة البابلية على ألسنة متكلميها الى عدة لغات من جملتها اللغة الآرامية . وأما لغة الكتابة فظلت اللغة البابلية تكتب بالقلم المسماري

ولما انقضى العصر البابلي والاشوري احتلت اللغة الآرامية المذكورة محل اللغة البابليـة في السياسة والتجارة . وقد اصبح في حكم الثابت الان ان المخابرات السياسية الرسمية واللغة التجارية التي كانت تخابر بها الامم الحية في القرون الاولى قبل الميلاد في بابل واشور وفارس ومصر وفلسطين انما هي اللغة الآرامية التي نحن في صددها وفي جملة ذلك بطرا . وهي التي كتب بها البابيروس الذي عثروا عليه بالامس في اصوان [1] . ويغلب انها كانت لغة التكلم في بابل

ولما ضعف الاشوريون كانت الحروف الهجائية التي ينسبون اختراعها للفينيقيين وقد شاعت في العالم المتمدن وتفرعت الى بضعة فروع من جملتها القلم الآرامي وقد استخدمه البابليون لتدوين لغتهم الدارجة فضلاً عن اللغة الرسمية وشاع هذا القلم ولغته في الامم التي تفرعت من مملكة بابل — وهذا مثال منهُ

ش ١٠ ـ الحرف الارامي

فالعرب الذين كانوا يخالطون العالم المتمدن بالتجارة او السياسة في ذلك العهد اضطروا الى معرفة لغة رجال الدولة واهل الوجاهة لاستخدامها في المخابرات والتدوين فتعلموا اللغة الآرامية وكتبوها بالقلم الآرامي لسهولته . ثم تنوعت هذه الاقلام بتوالي الاجيال فتفرعت الى عدة فروع عرفت بالاقلام الآرامية اشهرها عند الساميين القلم

(١) Old Test. & Semitic Studies, I. 289

التدمري في تدمر والنبطي في بطرا وغيرها وأشكالها متشابهة مثل تشابه تلك اللغات . وهي في كل حال غير لغة التكلم وان تقاربتا في اكثر التراكيب والالفاظ

ولمثل هذا السبب اضطر الجرمانيون الذين هبطوا على المملكة الرومانية الى تعلم اللغة اللاتينية وجعلوها لغتهم الرسمية وكل طائفة منهم تتكلم لغتها الخاصة . وظلت اللاتينية لغة العلم والنقش على الآثار في اوربا أجيالا بعد ذهاب دولتها ولكل أمة من أممها لسان خاص تتفاهم به ولم تهمل اللاتينية وتدون اللغات العامية الا في نهضة هذا التمدن كما دونت اللغة العربية في نهضة الاسلام بعد ان كانت لغة الكلام والآرامية لغة التدوين

فاللغة التي نقرأها على آثار بطرا وغيرها من أطلال الانباط آرامية وأما لغة الكلام فكانت عربية والاثنتان مرتبطتان بامهما القديمة لغة بدو الآراميين أو اللغة البابلية القديمة بعلامة تشتركان بها دون سائر اللغات السامية أعني حركات الاعراب في اواخر الكلم[1] في بعض الاحوال . واللغة الآرامية التي كتب بها الانباط غير الآرامية المعروفة اليوم وفي تلك أثر من لغة العرب التي كان يتكلمها ذلك الشعب . وهذا مثال من نقوش الانباط على آثارهم وهو عهد كتبه رجل اسمه عائذ بن كهيل على قبره في الحجر (مدائن صالح) في السنة الاولى قبل الميلاد في زمن الحارث الرابع الملقب فيلوباتر :

ش ١١ — كتابة نبطية على انقاض مدائن صالح

نطقها بالاحرف العربية كل سطر على حدة

١ دنه قبرا دي عبد عيدو بر كهيلو بر

(١) Ency. Brit. Art. Semitic Languages.

٢ السكي لنفشه ويلده واحره ولمن دي ينفق بيده
٣ كتب تقف من يد عيدو قيم له ولمن دي ينتن ويقبر به
٤ عيدو بحيوهي بيرح نيسان شنة تشع لحرتت ملك
٥ نبطو رحم عمه ولعنو ذو شرا ومنوتو وقيشه
٦ كل من دي يزبن كفرا دنه او يزبن او يرهن او ينتن او
٧ يوجر او يتالف علوهي كتب كله او يقبر به انوش
٨ لهن لمن دي علا كتيب وكفرا وكتبه دنه حرم
٩ كحليقت حرم نبطو وشامو لعلم علمين

ترجمتها باللغة العربية كل سطر على حدة

١ هذا هو القبر الذي بناه عائذ بن كهيل بن
٢ القسي لنفسه وأولاده وأعقابه ولمن يكون في يده
٣ كتابٌ من يد عائذ يبيح له ولاي واحد يخوله عائذ في حياته ان يدفن فيه
٤ في شهر نيسان (ابريل) السنة التاسعة للحارث ملك
٥ الانباط محب شعبه . ولعن ذو الشرى ومناة وقيس
٦ كل من يبيع هذا القبر او يشتريه أو يرهنه او يهبه او
٧ يؤجره او ينقش عليه شيئاً آخر او يدفن فيه احداً
٨ الا الذين كتبت أسماؤهم اعلاه . ان القبر وما كتبت عليه حرم مقدس
٩ حسب القاعدة التي يقدسها الانباط والسلاميون الى ابد الآبدين

على اننا لا نظن اللغة العربية التي كان يتفاهم بها النبطيون هي نفس اللغة العربية التي عرفناها في صدر الاسلام ولا بد من فرق بينهما اقتضاه ناموس الارتقاء . ولعلها كانت أقرب الى ما قرأوه على قبر عمرو بن امريء القيس في خرائب نمارة بحوران وسنذكر نصه ومعناه في كلامنا عن دولة اللخميين من هذا الكتاب . فاذا قرأته تمثل لك تدرج اللغة في التنوع والتحول عملاً بناموس الارتقاء . وبسبب هذا الناموس تشعبت لغة بدو الآراميين الى اللغات البابلية والآرامية والسبائية او الحميرية ولغات عرب الحجاز وغيرها ومن جملتها لغة صدر الاسلام . وقد اصاب هذه تغيير اقتضاه تنقلهم في البادية بابلهم وماشيتهم فبعدت عن اختها البابلية ولكنها لا تزال اقرب اليها في بعض احوالها من ابنتيها الكلدانية والسريانية لان العرب قضوا تلك الاجيال في البادية واللغة انما تغيرها الحضارة

فالانباط عرب يتكلمون العربية ولغتهم الكتابية مع كونها آرامية فانها تنمُّ عن أصحابها العرب. ويؤيد ذلك اجماع مؤرخي اليونان على تسميتهم عرباً وان اسماء ملوكهم عربية وهم عمالقة أو فرقة منهم كما قدمنا. ويوافق ذلك قول يوسيفوس ان ادوم قسمان قسم يسكنه العمالقة والآخر في جنوبي فلسطين (١)

وقد تشتم رائحة النبط من قول ابن خلدون في عرض كلامه عن ملوك الروم النبطيين وهو يسميهم الكيتم. فبعد ان ذكر ما ملكوه من البلاد قال انهم ملكوا الاندلس وملكوا الشام وأرض الحجاز وقهروا العرب في الحجاز » (٢) وليس في التاريخ ما يدلُّ على ان الرومانيين قهروا من العرب غير الانباط. وزد على ذلك ان أهل التوراة حيثما ذكروا النبط أو ابناء نبايوط ارادوا العرب فعندهم نبايوط وقيدار ابنا اسماعيل جد عرب الحجاز

دولة تدمر

مدينة تدمر

كانت تدمر مدينة تجارية مثل بطرا واقعة في طرف البادية التي تفصل الشام عن العراق كانها واحة في الصحراء أو جزيرة في الماء تبعد ١٥٠ ميلاً عن دمشق نحو الشمال الشرقي ونحو مائة ميل من حمص وسفر خمسة ايام على الابل من الفرات. شكلها منبسط تحيط بها جبال تفصل بينها وبين البادية. وهي عبارة عن طرف بادية الشام من الشمال فكل ما وراءها نحو الجنوب رمال قاحلة لا ماء فيها ولا نبات. كأن تلك البادية مثلثٌ رأسه تدمر في الشمال وساقاه حدود العراق في الشرق ومشارف الشام في الغرب وقاعدته شمالي جزيرة العرب. فالبادية المشار اليها اقرب الطرق بين الشام والعراق لكن جفافها ووعورة مسالكها جعلت المرور فيها شاقاً فاصبحت القوافل المسافرة من الحيرة مثلاً الى دمشق تجعل طريقها شمالاً غربياً على حدود الفرات حتى تأتي تدمر فتستريح هناك وتتزود ثم تنعطف جنوباً الى دمشق — ذلك كان شأن القوافل التجارية او الحملات العسكرية من قديم الزمان. لا بد للمسافر من الشام او فلسطين الى العراق أو فارس او خليج العجم من المرور بتدمر فاصبحت بسبب ذلك عظيمة الاهمية فسكنها الناس قديماً ولم يعرف بانيها. وأقدم من ذكرها صاحب سفر الايام الثاني وسماها تدمر أو تدمور وهو اسمها العربي. ولم يذكرها

(١) Josephus, Ant. III. 2 (٢) ابن خلدون ١٩٨ ج ٢

العرب الا بعد الاسلام ولهم في أصل بنائها أقوال مثل سائر مزاعمهم في بناء المدن القديمة اذ ينسبون بناءها بالاكثر الى سليمان بن داود أو سام بن نوح أو الى الجن . فتدمر عندهم من بناء سليمان مع انها خارج مملكته ووجودها يضر بسياسته لانه كان ينوي احياء فلسطين بتحويل تجارة الشرق الى البحر المتوسط بطريق البحر الاحمر . فبنى على شواطئه فرضاً ومرافئ لهذا الغرض . وكانت تجارة الشرق تحمل في ايامه بالبحور فلما ذهبت دولته تحوَّلت التجارة الى البر وعاشت بطرا ثم تدمر

والظاهر ان القوافل كانت تمرُّ بتدمر من القرن السادس قبل الميلاد تحمل حاصلات اليمن او الحبشة الى العراق فتتجاوز مشارف الشام الى تدمر ومنها الى جزيرة العراق او فارس او اسيا الصغرى لكنها لم تزهُ الا بعد سقوط بطرا في اول القرن الثاني للميلاد فتحولت الطرق اليها وأخذت ترتقي وتتسع تجارتها حتى بلغت قمة مجدها في القرن الثالث للميلاد

على ان الرومانيين طمعوا بها كما طمعوا ببطرا وحاولوا فتحها في منتصف القرن الاول قبل الميلاد على يد ماركس انطونيوس ولم يفلحوا . ثم دخلوا في شؤونها باواسط القرن الاول بعد الميلاد . وأدخلها ادريان سنة ١٣٠ م في حمايته وشخص اليها وسماها « ادريان بوليس » نسبة اليه وبذل جهده في تنظيم شؤونها ووضع الضرائب على التجار والجمارك بامر اصدره سنة ١٣٧ م عثروا على نصه منقوشاً على حجر في آثار تدمر الباقية . وكانت حكومتها ترجع الى مجلس شيوخ عليه رئيس

وفي ايام سبتموس سفروس اصبحت تدمر مستعمرة رومانية وصارت رئاسة الحكومة فيها الى زعيم يقال له شراتجي . ولما انتشبت الحرب بين الروم والفرس في صدر النصرانية زادت تدمر ثروة وأهمية لتوسطها بين المملكتين حتى صارت سيدة الشرق الروماني وتمدن اهلها وأثروا وطمعوا برتب الدولة ومناصبها . ومرور قياصرة الروم بها في اثناء تلك الحروب جعل لاهلها دالة ونفوذاً . وكان القياصرة يكرمون من ينصرهم على الفرس ومن جملة الذين نالوا ذلك الاكرام وارتقوا مناصب الدولة أسرة وطنية كان لها شأن كبير في تاريخ تدمر من رجالها أذينة بن حيران بن وهب اللات بن نصر فبلغ الى رتبة المشيخة الرومانية

ودخول تدمر في حوزة الروم لم يغير من حكومتها غير الظواهر لان سيادتهم كانت سطحية فقط وأما صاحب النفوذ الحقيقي فهو الامير صاحب القوافل او رئيس الخفر الذي تسير القوافل في ظل سطوته فيفعل ما يشاء ولا يلاقي معارضاً . وكان أذينة رئيس عصابة وطنية تسعى في خلع نير الروم فاكتشف الروم عزمه وقتلوه في اواسط القرن الثالث

للميلاد وفرقوا رجاله . وخلف أذينة ولدين اسم احدهما حيران والآخر اذينة (كابيه) وهو أصغرهما ولكنه أشدهما نقمة على الروم فصمم على الانتقام لابيه مذ كان غلاماً فهجر المدينة وسكن الجبال يقضي أيامه في الصيد والقنص ورمي النبال ومطاردة الغزلان وحمر الوحش حتى أصبح شديد العضل قوي العزيمة واجتذب قلوب البدو المخيمين حول تدمر واطلعهم على سره فعاهدوه على ان ينصروه عند الحاجة ثم رجع الى تدمر فاقام فيها وهو يكتم غرضه

واتفق سنة ٢٥٨ م خروج فاليريان الرومي لمحاربة سابور الفارسي فمر بتدمر وخلع على اذينة الخلع وسماه قنصلاً وهي من أكبر رتب الدولة الرومانية . فلم يعبأ أذينة بتلك الخلع وفرق الهدايا في مشائخ القبائل . وانتهت تلك الحرب بظفر سابور وأسر فالريان فلما علم اذينة بذلك بعث الى سابور الهدايا وكتب كتاباً يتقرب به اليه فساء سابور الظن به ورفض طلبه فغضب اذينة ورجع الى الروم فاستسلم لهم قلباً وقالباً وعرض عليهم نصرته في تلك الحرب وهو بالحقيقة يكره الدولتين وانما يؤثر التي تفوض اليه السلطة في تدمر . وكانت دولة الروم قد افضت الى غاليانوس فسره اقتراح أذينة وبعث اليه حملة ضعيفة ضمها اذينة الى رجاله المجربين وخرج على الفرس وابلى بهم بلاء حسناً وانتقم للروم ولنفسه واسترجع البلاد التي كان سابور قد فتحها من الجزيرة واخضع نصيبين وحاصر المدائن مرتين وبعث الاسرى الى غاليانوس

فاصبح اذينة سيد الشرق الروماني وامتدت سلطته على سوريا وما يليها ولقب « ملك الملوك » واقتدى به قواد الروم يومئذ فطمعوا بالسيادة لانفسهم كل واحد على ما في يده واستأثر اذينة بسوريا وسائر اسيا الرومانية . وفي سنة ٢٦٤ م تسمى حاكما عاماً عليها وهو في الظاهر تحت سيطرة الروم ورجاله يدعونه صاحب السيادة المطلقة على آسيا الرومانية من ارمينيا الى جزيرة العرب. وكان كثير الاشتغال بمحاربة الفرس وردهم عن بلاده فاذا خرج لحرب أناب عنه في حكومة تدمر امرأته زينوبيا المشهورة في تاريخ هذه المدينة

زينوبيا

ونالت زينوبيا من امبراطور الرومان لقب « سبتميا » وهو من اكبر القاب الشرف عندهم وهي تدمرية المولد واسمها الاصلي « بنت زباي » وكانت سمراء اللون مع جمال وهيبة سوداء العينين نافذة اللحظ لؤلؤية الاسنان قوية البدن مع علو الهمة

والحزم وكانت سطوتها مخيمة على تدمر وغيرها وكل سجاياها تنمّ عن أصلها العربي . وكانت تتكلم الآرامية والقبطية وبعض اللاتينية واليونانية ولها اطلاع واسع على تاريخ الشرق والغرب وقد ربت أولادها تربيـة حسنة وهم ثلاثة وهب اللات وخيران وتيم الله فضلاً عن هيروديس ابن زوجها من امرأة أخرى . ويندر اجتماع رجل وامرأة مثل اذينة وزينوبيا وكلاهما فريد في أطواره



ش ١٢ — زينوبيا صاحبة تدمر

لكن الدهر نكبها نكبة لم تكن في حسبانها فمات زوجهـا اذينة وابنه الاكبر هيروديس سنة ٢٦٧ م فخلفه ابنها وهب اللات واسمه في اليونانية « اثينودورس » وهي وصية عليه ولها النفوذ الاكبر . وكانت رومة الى ذلك الحين في شاغل عن مستعمراتها بداخليتها حتى اذا استتب الامر لاورليان لم يبق لتدمر الا أن تخضع له خضوعاً حقيقياً أو أن يحاربها وفي سنة ٢٧١ م لقب وهب اللات نفسه « اوغسطس » من ألقاب القياصرة وأزال اسم اورليان من النقود وصارت زينوبيا قائدة الجند وصاحبة الصوت الاعلى . وفي تدمر تمثالان أحدهما لها والآخر لاذينة على قاعدته نقش جاء اسمه فيه بألقاب معناها « ملك الملوك وحيي الدولة »

وغرست زينوبيا أعلامها ونشرت سلطانها على مصر والشام والعراق وما بين النهرين واسيا الصغرى الى انقره . وأوشكت بثينيا ان تدخل تحت لوائها واذا بجيوش اورليان قد اجتمعت في بيزانتين تتأهب للحمل على الشرق . وكانت زينوبيا كثيرة

الاعتماد على رجالها العرب والارمن ولم تكن تثق ببقاء أهل الشام على ولائها لان أهل المدن لم يألفوا أشباه تلك السيادة البدوية . وكان في جند زينوبيا جمٌّ غفيرٌ من الروم فالتقت جنودها بجنود اورليان في انطاكية وحمص وتراجعت مغلوبة لكنها كتبت الى اورليان تقول انها لم تخسر من رجالها احداً لان الذين قتلوا في المعارك انما هم الروم . فهاج قولها أهل مدائن الشام فتكاتفوا وتفانوا في نصرة اورليان خوفاً من تغلب رجال زينوبيا وهم عرب جفاة أهل بادية فيستبدون بهم

وما أشبه حال بني اذينة في تدمر ببني امية بالشام بعد ذلك بأربعة قرون وكلاهما عرب أهل تجارة وعلى كل قوم منهما أمير له نفوذ على عرب البادية استعان بهم في تأييد سلطانه . ولكن آل اذينة قاموا والدولة الرومانية لم تبلغ الضعف الذي وصلت اليه عند قيام الامويين . ومع ذلك فان زينوبيا ضيقت على اورليان بدهائها لكنه تمكن اخيراً من حصار تدمر بما بذله من المال في تفريق كلمة العرب فلم تر زينوبيا خيراً من الفرار الى الفرس فاقتص الروم آثارها حتى قبضوا عليها فخاف التدمريون وسلموا سنة ٢٧٢ م وقبض اورليان على خزائن المدينة وعفا عن أهلها وأطلق سراح زينوبيا لكنه قتل مشيريها فقضت بقية حياتها مع ابنائها في طيبور كما يعيش أهل السكينة من أرباب المعاشات . ونهضت تدمر بعد قليل تلتمس الاستقلال ولكنها كانت نهضة الموت لان اورليان أذلها هذه المرة وهدم أسوارها وقتل معظم سكانها

وكانت زينوبيا غريبة في أطوارها لم ينبغ مثلها في النساء شجاعة ودهاء وشدة فضلاً عن جمالها وهيبتها . وكانت سيرتها أقرب الى سير الابطال مما الى سير النساء فلم تكن تركب في الاسفار غير الخيل ويندر أن تحمل في الهودج . وكانت تجالس قوادها وأعوانها وتباحثهم واذا جادلتهم غلبتهم بقوة برهانها وفصاحة لسانها . وكثيراً ما ضم مجالسها رجالا من أمم شتى وبينهم وفود من ملك الفرس او الارمن او غيرهما وقد يشربون حتى يسكروا وهي لا تسكر . وكانت اذا عقدت مجلساً اعتيادياً للبحث في شؤون الدولة أدخلت ابنها وهب اللات معها وعليها أفخر اللباس وعلى كتفيها المشملة القيصرية الارجوانية وعلى رأسها التاج . ولم يقف بين يديها قادمٌ الا خرَّ ساجداً جرياً على عادة الاكاسرة وكانت قد تشبهت بهم فجمعت في ايوانها بعض شيوخ الخصيان وكلت اليهم تدبير قصورها واذا مشت في ساحة قصرها أو دارت في الرواق الآتي ذكره حفت بها الفتيات من بنات الاشراف وهي تتقدمهن وتزري بجمالهن

وكانت اذا استعرضت جندها في الميادين بين يدي قصرها مرت امام الصفوف

فوق جوادها وعليها لباس الحرب وعلى رأسها الخوذة الرومانية مرصعة بالدر والجوهر وعلى غلائلها أهداب منسوجة بأسحال ارجوانيـة وقد جردت احدى ذراعيها كما يفعل اليونان القدماء وأخذت تحرض جنودها على الصبر والثبات وتبثّ في نفوسهم روح الشجاعة فاذا رآها الناس في ذلك الموقف حسبوها إلهة من الآلهة العظام فضلاً عن تفوقها في السياسة وسداد الرأي واللطف وصحة التربية مما لم يسمع باجتماعه في امرأة

الزباء وزينوبيا

وفي كتب العرب قصة ينسبونها الى امرأة اسمها « الزبّاء » يذكرون خبرها في مقدمة تاريخ الحيرة عند الكلام عن جذيمة الابرش خلاصته انه كان لجذيمة أخت اسمها رقاش هويت شخصاً من اياد كان جذيمة قد اصطنعه يقال له عدي فواطأه على حيلة دبراها على جذيمة حتى أذن بزواجها وهو سكران . فلما صحا هرب عدي فلحق به جذيمة حتى قتله وحملت رقاش وولدت غلاماً ربته وألبسته طوقاً وسمته عمراً . ثم فقد الغلام وتزعم العرب ان الجن اختطفته ثم وجده رجلان أتيا به الى جذيمة ففرح به وقال لهما « اقترحا ما تشاءان » قالا « منادمتك ما بقيت وبقينا » وهما اللذان يضرب بهما المثل فيقال كندماني جذيمة — قالوا : وكان قد ملك الجزيرة وأعالي الفرات ومشارف الشام رجل من العمالقة يقال له عمرو بن الظرب بن حسان العمليقي وجرت بينه وبين جذيمة حروب انتصر فيها جذيمة وقتل عمراً المذكور . وكان لعمرو بنت يقال لها الزباء واسمها نائلة (وقالوا ليلى) فملكت بعده وبنت على الفرات مدينتين متقابلتين واحتالت على جذيمة حتى أطمعته بنفسها واغترّ وقدم عليها فقتلته وأخذت بثار أبيها . وملك بعد جذيمة عمرو ابن اخته رقاش فاحتال بمساعدة عبدٍ لخاله اسمه قصير حتى انتقم منها غدراً في مدينتها بأن حمل الى حصنها رجالا في صناديق التجارة ثم خرجوا من الصناديق وقتلوا الزباء وأخذوا المدينة عنوةً . وأما مدينة الزباء فقد قالوا انها المضيق بين الخانوقة وقرقيسيا على الفرات [1] وقال ابن خلدون انها كانت تسكن على شاطىء الفرات . وقد بنت هناك قصراً فكانت تربع عند بطن المجاز وتصيف في تدمر

(١) ياقوت ٥٦٠ ج ٤

هذه خلاصة ما رواه العرب [١] من حديث الزباء وللباحثين مناقشات في هل الزباء هذه هي زينوبيا ملكة تدمر ؟ أم هي غيرها . وممن يرى أنها غيرها المستشرق الانكليزي ردهوس وله في ذلك رسالة ضافية [٢] وللاب سبستيان رنزفال اليسوعي رسالة جزيلة الفائدة في زينوبيا أو الزباء نشرت تباعاً في السنة الاولى من المشرق . اما رأينا فلا يساعد المقام على تفصيله وانما نقول بناءً على ما ذكرناه في مقدمة هذا الكتاب من آفات الاخبار ان القصة في أصلها واحدة وقد تشوهت بالانتقال على الالسنة

هل التدمريون عرب

يقال في التدمريين من حيث أصلهم ما قيل في النبطيين والمشابهة شديدة بين البلدين وبين سكانهما من اكثر الوجوه . فان بيوتات الشرف في تدمر عرب اصلهم من البادية من بقايا العمالقة [٣] وأقاموا هناك للتجارة فغلبوا على أهل المدن بما كانوا فيه من خشونة البداوة وعلو الهمة وكبر النفس وتدرجوا في مناصب الدولة حتى صاروا ملوكاً واتخذوا لغة الشام وهي حينئذ الآرامية للمخابرات الرسمية والتدوين كما اتخذها النبطيون . ولكن أسماءهم وطبائعهم وسائر أحوالهم تدل على عربيتهم . وفي لغتهم الآرامية صبغة عربية [٤] نعني بقايا الاعراب في أواخر الكلم كما في النبطية

فدولة اذينة وزينوبيا في تدمر دولة عربية وان كانت آثارها آرامية للاسباب التي بيناها في كلامنا عن النبطيين . وزد على ذلك أن أهل تدمر يقسمون الى افخاذ وهو تقسيم خاص بالعرب . فهم من بقايا العماليق كالنبطيين وان كانت لغتهم الرسمية الآرامية مثل لغة الانباط الرسمية واما لسان التكلم وجنسهم فعربيان

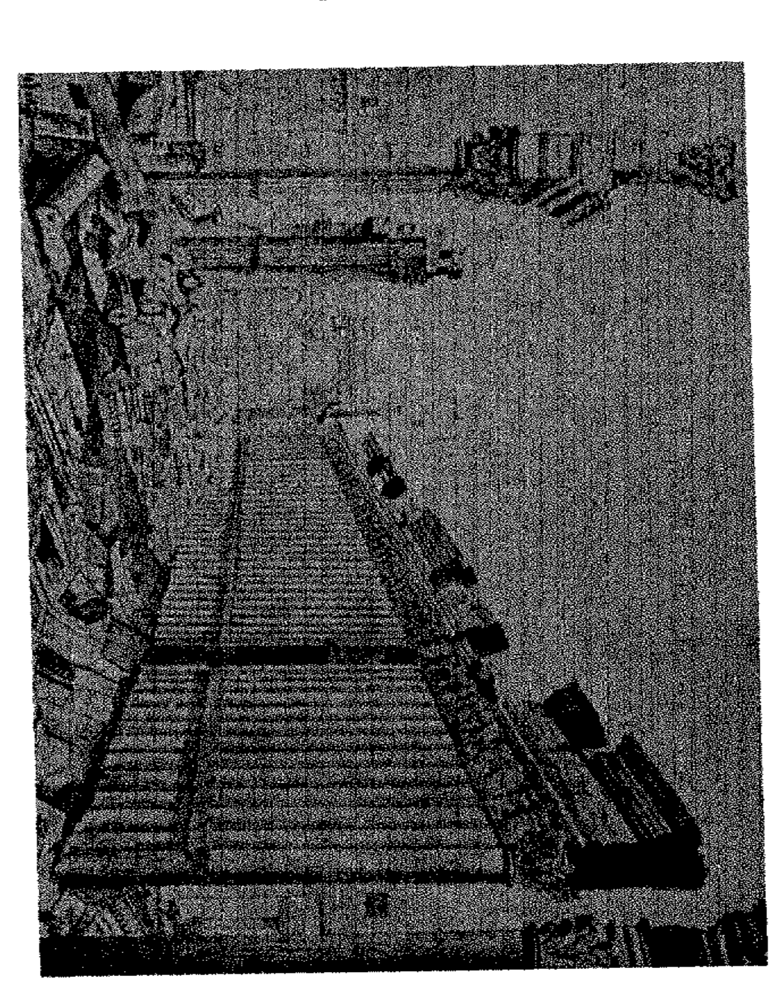
آثار تدمر

وقد وقف الناقبون على آثار تدمر قبل وقوفهم على آثار الانباط ووصفوا هياكلها وشوارعها وتماثيلها في القرن الثامن عشر وأشهر من زارها ووصف آثارها الفيلسوف

(١) الاغاني ٧٢ ج ١٤ وابن الاثير ٤٩ ج ١ وابن خلدون ٢٦١ ج ٢ وأبو الفداء ٧٣ ج ١
(٢) اسمها Were Zenubia & Zebba'u Identical (٣) ابن خلدون ٢٥٩ ج ٢
(٤) Ency. Brit. Art. Sem. Lang.

قولني الفرنساوي في أواسط القرن المذكور وله في ذلك كلام فلسفي مشهور . ثم زارها سواه ووصفوها وصوروا بقاياها — واليك أهم تلك البقايا :

أولا : هيكل الشمس أو هيكل بعل . وهو مربع الشكل طول كل ضلع من اضلاعه ٧٤٠ قدماً يحيط به سور علوه سبعون قدماً وفيه من الاساطين الضخمة الباقية الى الآن ما يزيد على مئة اسطوانة صفوفاً منتظمة في أروقة على قممها نقوش يونانية . ويظن أن عدد هذه الاعمدة في الاصل يزيد على ٤٠٠ اسطوانة





ش ١٣ — بقايا الرواق الاعظم في تدمر

ثانياً : الرواق الاعظم . وهو من عجائب تدمر يبدأ على مئتي متر من الهيكل المذكور . وكان الرواق في أصل بنائه يتألف من شارع أوسط وشارعين جانبيين ويمتد على طول المدينة من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي . ومسافة ذلك نحو ٣٧٥٠ قدماً وعدد الاساطين نحو ٧٥٠ اسطوانة لا يزال نحو ١٥٠ منها قائمة . ارتفاع الاسطوانة من موقفها الى قمتها ٥٧ قدماً وترى في الشكل الثالث عشر صورة قسم من الرواق

ثالثاً : المدافن . وهي غريبة الشكل كالابراج المستطيلة يزيد عددها على مئة مدفن تختلف عن مدافن سائر المدائن وهي مفرقة حول المدينة . يتألف المدفن من أربع طبقات علوها ثمانون قدماً وعرضها ثلاثون قدماً له باب خاص يدخلون منه الى الطبقات وحول المدينة سور لا تزال آثاره باقية وغير ذلك مما يطول شرحه

لغة آثار تدمر وكتابتها

واكتشفوا على تلك الآثار نقوشاً كتابية هي من تنوعات القلم الآرامي سموها القلم التدمري وقرأوها — وهذا مثال منها :

١ [illegible]
٢ [illegible]
٣ [illegible]
٤ [illegible] 3333//

ش ١٤ ـ نقش تدمري على تمثال زينوبيا

نطقه بالحروف العربية سطراً سطراً

١ صلمت سفطميا بت زباي نهيرتا وزدقتا
٢ ملكتا سفطميوا زبدا رب حيلا
٣ ربا وزباي رب حيلا دي تدمور قرطسطوا
٤ اقليم لمرتهون بيرح اب دي شنة ٥٨٢ (١)

ترجمته باللغة العربية سطراً سطراً

١ تمثال سبتميا بنت زباي الجليلة والتقية
٢ الملكة . ان السبتمائين زبدا القائد
٣ الاعظم وزباي قائد تدمر الفخيم
٤ نصباه لسيدتهما في شهر آب سنة ٥٨٢ (من التاريخ السلوقي)

ومن أشهر المشتغلين بقراءة آثار تدمر الكونت ديفوجيه وهو يقسم تلك النقوش أو الكتابات الى أربعة مجاميع الاول : نقوش بنائية على قواعد الاساطين والتماثيل . الثاني : نقوش قبرية على المدافن . والثالث : نقوش دينية كالادعية والصلوات .

(١) Cooke, 291

والرابع : نقوش سياسية . وأقدم كتابة قرأوها حتى الآن وجدوها منقوشة على قبر تاريخه سنة ٣٠٤ من التاريخ السلوقي وهي تقابل السنة السابعة قبل الميلاد . وقرأوا على اثنين من أعمدة الرواق الاعظم اسم اذينة وزينوبيا وبجانبها تاريخ يقابل ٢٧١ للميلاد (٥٨٢ سلوقية) وهو احدث تاريخ لهذه الدولة لانها السنة التي سقطت بها . وبين هذين التاريخين كثير من الآثار المنقوشة وبعضها نقشوا بجانب أصله الآرامي ترجمته اليونانية وفيها كثير من النصوص التاريخية والسياسية والاجتماعية في جملتها قرار من مجلس المدينة في ١٨ نيسان سنة ٤٤٨ سلوقية (أي ١٣٧ م) في عهد بونا بن بونا بن خيران الخ .... عن تعريفة الضرائب وشروط جمعها وهي كتابة مطولة تدخل في مئة سطر وبجانبها الترجمة اليونانية [١]

تجارة تدمر

كانت تدمر مركز التجارة والسياسة في الشرق الروماني وما يليه فكانوا يحملون من جزيرة العرب الذهب والجزع واليشب واللبان والصمغ والصبر وعود الند ويستجلبون من العراق لآلىء البحرين . ويحملون من وادي نهر السند وسواحل كرومندل انواع المنسوجات التي يتاجر بها الى يومنا أهل تلك البلاد . ويستحضرون من أقاصي الهند القرنفل والبهار والحرير الصيني والنيل والفولاذ والعاج والابنوس . وكانت هذه الاصناف تأتيهم على طريق البر . اما ما كان يردهم من طريق البحر فكان دون ذلك [٢] وكانوا ينقلون هذه الحاصلات والمصنوعات الى مصر والشام والعراق والى رومة وبيزانتيوم وغيرهما من مدائن اوربا لان معظم ما كانت تزدان به مجالس القياصرة والملوك وأهل الثروة من الرياش الفاخر كان يحمل اليوم من الشرق على يد الانباط والتدمريين فضلا عن المعينيين والسبأيين وكلهم من أهل جزيرة العرب. وقدر بلينيوس قيمة ما كان يحمل الى رومة وحدها من تلك السلع بما يساوي ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات في العام

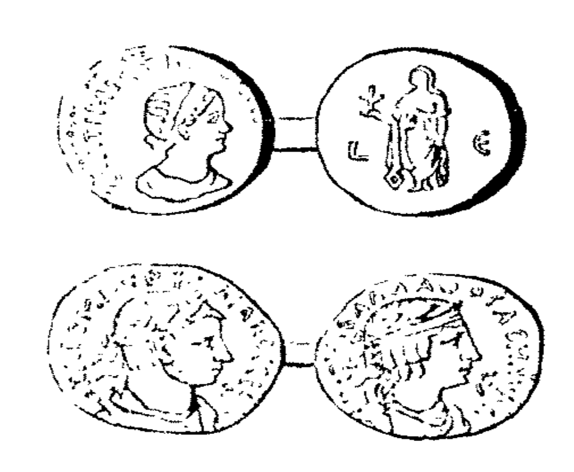
وكانت التجارة في العالم القديم بين الشرق والغرب تسير في طريقين الاول في البحر الاحمر الى مصر والاسكندرية والآخر من خليج العجم فبادية الشام الى مصر . فالتجارة البرية كانت قبل الميلاد وبعيده تسير بطريق بطرا فلما سقطت باول القرن الثاني للميلاد تحولت الى تدمر كما تقدم . وكانت التجارة تحمل بين تدمر والشام على مركبات تسير في طرق مرصفة ولها محطات للراحة وقلاع للحصار فضلاً عن القوافل . واما من جهة

(١) Cooke, 318 (٢) المشرق ٥٣٧ سنة أولى

الفرات فلم يكن فيها شيء من ذلك . وكان لتدمر فائدة مضاعفة من تلك التجارة لانهم كانوا يكتسبون المرابحة بالبيع والشراء ويتقاضون على ما يمر بهم ضريبة معينة

اذا وقفت على اطلال تدمر ونظرت الى بقاياها وانقاض هياكلها وقصورها وأروقتها ورجعت بخيالك الى سابق مجدها تصورت الناس يروحون ويجيئون في شوارعها المحفوفة بالاساطين والاروقة بين ايديهم أحمال السلع من المنسوجات والمصنوعات والحاصلات من الزيت والحنطة والعنب والتين والخمر والاطياب والعطور والرقيق المحمول من مصر وآسيا الصغرى والناس يتزاحمون تحاك مناكبهم وتتداس أقدامهم وفيهم اليهودي والارمني والفارسي والرومي والسبأي أو الحميري والنبطي والبدوي وقد علا صياح الباعة أو السماسرة للمزايدة أو المساومة

ويؤخذ من استنطاق الآثار ان التدمريين كانوا طبقتين مثل سائر سكان المدن في تلك الاعصر طبقة الخاصة وطبقة العامة وكانت خاصة التدمريين عبارة عن بيوتات قليلة هم أصحاب الثروة والنفوذ يقيمون في القصور الفخمة وحولهم جمهور الامة من الفقراء والعمال يأوون الى أكواخ صغيرة وهيأتهم الاجتماعية مع تأثير التمدن الروماني عليها ما زالت شرقية



ش ١٥ ـ نقود زينوبيا ووهب اللات

وللدولة التدمرية نقود بشكل نقود الاسكندرية عليها كتابة وصور . وفي الشكل الخامس عشر مثالان منها الاول نقد زينوبيا على أحد وجهيه صورة رأسها وكتفيها وحول الصورة اسمها بالاحرف اليونانية هكذا « سبتميا زينوبيا » وعلى الوجه الاخر صورة أخرى . والنقد الآخر عليه صورة رأس وهب اللات واسمه ولقبه

امم متفرقة

في شمالي بلاد العرب

لو لم يخلف النبطيون والتدمريون آثاراً منقوشة بالحرف الآرامي الذي اقتبسوه من أهل الحضارة لضاعت أخبارهم كما ضاعت أخبار مئات من القبائل التي كانت تقيم في أعالي الحجاز على عهد التمدن القديم . على ان بعضها ذكره اليونان في وصف جغرافية بلاد العرب والبعض الآخر جاء ذكره عرضاً في اثناء الكلام عن الدول الاخرى . ووردت أسماء بعض الامم العربية في جملة ما فتحه الاشوريون أو المصريون من بلاد العرب سنذكرها في كلامنا عن تلك الفتوح اما قبائل العرب التي عرفها اليونان في شمالي الحجاز ولا نعرف لها دولا فنذكر اهمها مبتدئين من حدود مصر ونسير شرقاً الى الفرات وبجانب كل واحد الاسم العربي الذي يظن انه محرفٌ عنه :

الشرقيون ؟	(السراسين)	Saracene
السكون	(سكانيته)	Sakanitae
عاد ؟	(واديته)	Oaditae
لحيان	(ليانيته)	Laenitae
بنو خالد	(خولوتايه)	Chaulothaei
شمَّر	(سماريني)	Zamarini

وغيرها . وليس لهذه القبائل أخبار تستحق الذكر الا ما قد يجيء عرضاً في الكلام عن الدول الاخرى . من ذلك ما وصل الينا عن قبيلة السراسين وهي من القبائل التي عرفها اليونان في جزيرة سينا ووراءها شرقاً . واصل هذا الاسم مجهول ويظن بعضهم انه تحريف « الشرقيين » في العربية وقال آخرون انه تحريف الصحراويين أو السراقيين أو الشركاء أو غيرهم . وقد اشتهر هذا الاسم عند اليونان حتى اطلقوه على كل سكان جزيرة العرب

ومن أخبار السراسين عند اليونان انهم كانوا لا ينفكون عن مهاجمة حدود مصر منذ القدم والدولة الرومانية لم تكن تستطيع كف أذاهم الا بمعاهدات عقدتها معهم تدل على ضعفها عن مناوأتهم وشعورهم بذلك الضعف . واتفق في أواسط القرن الرابع للميلاد ان ملكهم مات فخلفته امرأته واسمها ماوية . وقد جاء هذا اللفظ اسما لنساء

للسماء أم المنذر أحد ملوك الحيرة (١) — فخدّت ماوية نفسها من قيود المعاهدة وحملت برجالها على فلسطين وسوريا واستولت على مدينة بطرا وعمت مصر حتى انت برزخ السويس فاضطر الامبراطور فالانس الى تجديد المعاهدة بشروط اوفق لمهاجمين . وكان بين السراسين جماعة كبيرة من المسيحيين ولذلك كان في جملة تلك الشروط ان يكون لهم اسقف خاص بكنيستهم فسماوا لهم أسقفاً اسمه موسى واصبح أولئك العرب بعد هذا العهد حلفاء المصريين ينصرونهم على أعدائهم (٢)

ويؤخذ من الامعان في تاريخ المملكة الرومانية الشرقية ان مدن سوريا كثيراً ما دخلت في سلطة العرب ولا سيما المدن القريبة من البادية مثل حمص وحماه والشام والرها فضلاً عن مدن حوران والبلقاء وغيرها . ولما قدم بومبيوس على مصر في القرن الاول قبل الميلاد كانت حمص في حوزة دولة عربية وغيرها من مدن الشام في حوزة دول أخرى من أسماء ملوكها عند اليونانيين Azizus و Iamblichus و [illegible] [illegible] و Soemus وغيرها ويرى دوسو ان الدولة الايتورية عربية وكانت تحكم جبل الشيخ (٣) وهناك امم شتى لم يذكرها التاريخ سيأتي ذكرها عرضاً في كلامنا عن فتوح الامم المجاورة وبعضها قديم العهد جدّاً عاصرت عمالقة مصر (الشاسو) أو تقدمتهم بازمان مثل عرب مديان وادوم وسائر جزيرة سينا وما حواليها

غزو المصريين بلاد العرب

من سنه ١٧٠٠ الى سنة ١٦٦ ق م

اقدم من غزا بلاد العرب من الدول المجاورة المصريون وأول من فعل ذلك منهم احمس مؤسس الدولة الثامنة عشرة ومنقذ مصر من دولة العمالقة (الشاسو) فانه بعد ان أخرجهم من اواريس وسائر القطر المصري طاردهم الى أواسط جزيرة سينا نحو سنة ١٧٠٠ ق م ثم اضطر الى الرجوع لرد هجمات الاثيوبيين والنوبيين عن بلاده (٤) وكانت بلاد العرب وسائر المشرق قبل دولة العمالقة مجهولة عند المصريين كما كانت أواسط افريقيا عند أهل الاجيال الوسطى . فلما نهضوا لمطاردة العرب وأخرجوهم من حدود مصر تنبهوا لما وراء ذلك من الامم المتمدنة في بابل وفينيقية وغيرهما كأن

---

(١) ابن الاثير ١٩٥ ج ١ (٢) Sharpe, 11 293 (٣) Dussand, 10 & 11

(٤) Brugsch, I. 284

استبداد العمالقة حرك خواطرهم وجعلهم أمة حية ونبههم الى توسيع دائرة ملكهم . وظهر من تلك العائلة تحوطمس الثالث الفاتح المصري العظيم نابليون الفراعنة وحمل بجيشه على الشرق في القرن السادس عشر قبل الميلاد فقطع برزخ السويس وا كتسح أعالي جزيرة العرب وسوريا وفلسطين وفينيقية وما بين النهرين . وذكر في جملة الذين غلبهم من الساميين عرب الشاسو الذين كانوا حكاماً على بلاده . وبلغت الحملات التي جردها على بلاد الشرق ١٥ حملة . وفي الآثار المصرية نقوش نقشها تحوطمس وذكر فيها البلاد التي فتحها والغنائم التي حملها . ومن جملة البلاد المفتوحة مابين النهرين وخيتا (بلاد الحثيين) وسنغار (شنعار) ولبنان وقبرص وفينيقية وعرب الشاسو ولوذم (اللاوذيون) . فضلاً عن القوائم التي ذكر فيها ما فتحه من بلاد النوبة والحبشة وما وراءها وعدتها جميعاً ٢٦٩ مدينة (١)

ومنهم رعمسيس الثالث من العائلة العشرين وهو اكثر الفراعنة ايغالا في بلاد العرب واسمه في اللغة المصرية هاكون نبغ نحو سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد وهو آخر عظماء الفراعنة وكانت مصر لما تولاها في ضنك واضطراب وقد طمع بها جيرانها الساميون (٢) فشمر عن ساعد الجد واصلح داخليتها . ثم حول أعنة خيله نحو البلاد التي كانت تهدد مصر براً وبحراً وبنى أسطولا كبيراً أنزله البحر الاحمر وسافر فيه لارتياد بلاد الفونط (الحبشة والصومال) والارض المقدسة (بلاد العرب) وغرضه الرئيسي تسهيل سبل التجارة البحرية بين مصر واقصى الشرق ولم يكن له بدٌّ من توطيد العلائق الودية بين مصر وشواطىء ذلك البحر واليمن في جملتها . وانشأ أيضاً طريقاً للقافلة منتظماً من القصير على البحر الاحمر الى ففط على النيل . وانشأ خطوطاً تجارية منتظمة بين الاوقيانوس الهندي والنيل بطريق بلاد العرب . وبعث الى جزيرة سينا وفداً لاكتشاف معدن الذهب وغيره من الخيرات التي كان اسلافه يعرفونها . وكثيراً ما كانت الدول القديمة تطمع ببلاد العرب رغبة في ذهبها واقتدى به رعمسيس الرابع سنة ١١٦٦ ق م فافتتح طريقاً مختصراً الى بلاد العرب وكان الطريق اليها طويلاً

---

(١) Brugsch, I. 405 (٢) Brugsch, I. 148—175

غزو الاشوريين بلاد العرب

من سنة ٩٠٠ الى سنة ٦٥٢ ق م

لما استولى الاشوريون على بابل توجهت مطامعهم الى بلاد العرب رغبة في الغنائم والتماساً للمعادن الثمينة لاشتهار تلك البلاد يومئذ بمناجم الذهب كما سنبينه في فصل خاص . أما الملوك الاشوريون الذين غزوا بلاد العرب أو فتحوها فهم :

١ : تغلات بلاصر : هو أول من حمل عليها منهم ويعرف بتغلات بلاصر الثاني غزاها في القرن التاسع قبل الميلاد على أثر حربه في سوريا فاصاب قبيلة من العرب على حدود مصر عليها ملكة اسمها حبيبة [١] وظن بعضهم انها قبيلة السراسين التي ذكرنا حربها مع مصر لانها كثيراً ما كانت تولي النساء على حكومتها ولكن الزمن بين الحادثتين يزيد على ١٢ قرناً . فخلع تغلات بلاصر الملكة واقام مكانها رجلاً من خاصته



ش ١٦ ـ سرجون الثاني ملك أشور بيده الصولجان

٢ : سرجون : ويعرف بسرجون الثاني (حكم من سنة ٧٢٢ — ٧٠٥ ق م) واتفق في أيام هذا الملك ان العرب في أعالي الحجاز غزوا السامرة ونهبوها وكانت في حماية الاشوريين فعمل سرجون على الانتقام بالشدة والعنف وعزم على اكتساح بلاد

(١) Rawlinson II. 396

العرب كلها فاوغل فيها سنة ٧١٥ ق م حتى قطع البوادي الى أقصى البلاد العامرة وهو اول من بلغ الى هناك من الفاتحين . وذكر في جملة القبائل التي اخضعها او الملوك الذين ضرب عليهم الجزية : ثمود . ويثعمر السبأي . وشمسية ملكة العرب — لعلها من خلائف حبيبة التي تقدم ذكرها . وهذا نص قوله على القرميدة كما قرأوها. فبعد ان ذكر فتوحه في الشام ومصر وبلاد العرب قال :

« ووضعت الجزية على فرعون ملك مصر وشمسية ملكة العرب (عربي) ويثعمر السبأي (او يثعمر السبأيين) وأخذت حاصلات الذهب من جبالهم والخيول والجمال »

وقال في قرميدة أخرى :

« ان قبائل ثمود وعباديد مرسمان وخيابا من قبائل العرب سكان البادية الذين لم يصل خبرهم الى حكيم ولا عالم ولم يدفعوا الجزية لاحد قبلي كل هذه الامم غلبتها باسم اشور الهي ونقلت بقاياها الى سامريا » [١]

٣ : سنحاريب (٧٠٥ — ٦٨١ ق م) وتولى سنحاريب بعد سرجون وله وقائع وفتوح في الشام وفلسطين وغيرها مذكورة في الكتاب المقدس . وقد وقفوا في آثار بابل على ما يؤيد ذلك بقرميدة اسطوانية مسدسة الجوانب ذكر فيها فتوحه في ارض الحثيين وصيدا وقبرص وارواد ومواب وادوم وعسقلان وغيرها حتى بلغ الى أعماله في غربي بلاد العرب وشماليها أي حوالي جزيرة سينا وهي من اقدم بلاد العرب عمراناً . فكان من جملة البلاد التي حاربها مالوق او مالوكا التي تقدم ذكرها وتعناه ذكر انه حاصرها وفصل حربه في غزوه يهوذا وامتدح شجاعة العرب الذين نصروا تلك الامم عليه [٢]

٤ : اسرحدون (٦٨١ — ٦٦٨ ق م) واقتفى اسرحدون أثر اسلافه في الفتوح فحارب مصر وفينيقية وصوّر نفسه يقود ترهاكة ملك مصر وبعل ملك صور بحبل ونقش أعماله على تلك الصورة كما ترى في الشكل (١٧) وبعد ان ذكر حربه بمصر وصور وقبرص فصل فتوحه في الشام فذكر اسم كل بلد وملكها واوغل في بلاد العرب . وبين البلاد التي فتحها هناك بلد سماه « بازو » قال انه في اقصى المعمور وراء البادية قطع اليه ٤٩٠ ميلاً في بيداء تكثر فيها ريح السموم و ٧٠ ميلاً في أرض عامرة ولم يبق وراء ذلك غير الجبال والمظنون انه يعني البحرين او ما يجاورها وهو أول من بلغ الى هناك من ملوك اشور. وان قصبة بلاد البازو تدعى « يديع » يحكمها ملك اسمه « ليلا » فاخضعه لسلطانه [٣]

(١) Clay, 336 - 338 و Glaser, 112 & 317 (٢) Clay, 343
(٣) Library of Uuiversal History, I. 179



ش ١٧ ـ اسرحدون ملك أشور

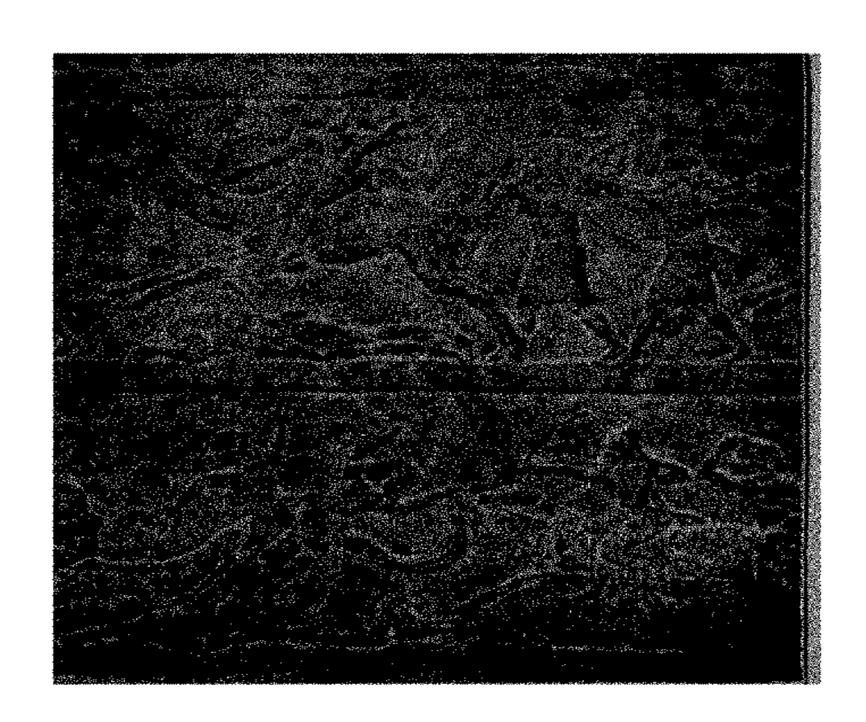
وجاء في جملة أخبار فتوحه مدناً اكتسحها في اليمامة وأخضع ملوكها وهم «قيس ملك قدل واكبر ملك النبط ومعن ساق ملك مجلان ويافع ملك ديخر وخبس ملك قحطبة وغيرهم»[١]

٥ : اشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٠٥ ق م) غزا قبيلة من العرب كانت قد أعانت عدواً نازعه الملك وأميرها اسمه ويتحة له حلفاء من قبائل العرب منهم ناتان ملك النبطيين ويوتحا بن حزايل ملك قيدار فجرت معارك كبيرة ما بين الفرات وخليج العجم الى الشام فغلبهم الاشوريون واستولوا على ادوم وبطرا ومواب وآخر معركة جرت في مكان أسمه خوخورونا قرب دمشق انهزم فيه العرب وقبض الاشوريون على الاميرين اللذين نصرا عدوهم وحملوهما الى نينوى وقتلوهما على مرأى من الناس[٢]

---

(١) Glaser Geo., II. 5. (٢) Rawlinson, II. 493

٦ : نبوخذ نصر (٦٠٥ — ٥٦٢ ق م) كل ما تقدم ذكره من فتوح الاجانب في جزيرة العرب لم يعرفه مؤرخو العرب ولا ذكروا شيئاً منه في كتبهم أو اوردوه في أخبارهم الا نبوخذ نصر هذا وهم يسمونه بختنصر فقد ذكروا انه حارب معد بن عدنان وهذا قولهم « وسار بختنصر الى معد فلقي جموع العرب فقاتلهم وهزمهم واكثر فيهم وسار الى الحجاز فجمع عدنان العرب والتقى هو وبختنصر في ذات عرق فاقتتلوا قتالا شديداً فانهزم عدنان وتبعه بختنصر الى حصون هناك واجتمع عليه العرب وخندق كل واحد من الفريقين على نفسه وأصحابه فكمن بختنصر كميناً وهو أول كمين عمل وأخذتهم السيوف فنادوا بالويل ونهى عدنان عن بختنصر وبختنصر عن عدنان وافترقا » (١)



ش ١٨ ـ عرب على جمالهم يطاردون الاشوريين

ولم يعثر النقابون في الآثار على ما يؤيد ذلك وأما بروسوس مؤرخ الكلدان فقد ذكر في كتابه ان بختنصر حارب العرب وغزا بلادهم (٢)

(١) ابن الاثير ١١٧ ج ١ (٢) Rawlinson III. 490

غزو الفرس وغيرهم بلاد العرب

الفرس

قد رأيت في ما تقدم ان جزيرة العرب مما يلي العراق اصبحت من القرن التاسع قبل الميلاد مرسحاً لملوك اشور يكتسحها الواحد بعد الآخر وقبائلها تؤدي الجزية ولو موقتاً على غير نظام . فلما انتقلت اشور الى حكم الفرس على يد قورش دخل جيرانها العرب في ما دخلت فيه فكانوا يؤدون الجزية للفرس من بخورهم ولبانهم كل سنة الف وزنة [١] ولذلك لما حمل قمبيز على مصر كان العرب عوناً له على المصريين يعدون له الماء في البادية [٢] ولما حمل الفرس على اليونان كانت العرب في جملة تلك الحملة بابلهم واحمالهم وجملوهم في المؤخرة لئلا تجفل الجمال فيضطرب الجيش [٣]

ثم تبدلت الاحوال فشق العرب عصا الطاعة على الفرس وطمعوا بالخروج الى بلاد فارس من البحرين في أيام سابور ذي الاكتاف وكان صغيراً فاستضعفوه فسار منهم جمع غفير من عبد القيس عبروا خليج العجم الى بلاد فارس وسواحل اردشير خره وغلبوا أهلها على مواشيهم ومعايشهم وغلبت اياد على سواد العراق واكثروا من الفساد فيها فمكثوا حيناً لا يغزوهم أحد فلما كبر سابور واشتد ساعده اوقع في اولئك العرب وقتل واسر وقطع الخليج الى البحرين [٤] واليمامة والقطيف من فرسان عسكره عدة اختارها وسار بهم الى العرب وقتل من وجده منهم ووصل الى الاحسا والقطيف وشرع يقتل ولا يقبل فداء وورد المشقر باليمامة وبه اناس من تميم وبكر بن وائل وعبد القيس فسفك من دمائهم ما لا يحصى وكذلك سار الى اليمامة وسفك بها ولم يمر بماء للعرب الا غوره ولا بئراً الا طمها ثم عطف على ديار بكر وربيعة فيما بين مملكة فارس ومملكة الروم في الجزيرة وصار ينزع اكتاف العرب قالوا ولذلك سمي ذا الاكتاف [٥] وذكروا نحو هذه الغزوة لاردشير على البحرين فحاصرها مدة والتي ملكها نفسه في البحر [٦]

الروم

اما اليونان فقد رأيت انهم حاولوا فتح بلاد العرب ولم يظفروا او نوى احدهم ولم يشرع كما اصاب الاسكندر الكبير فقد ذكروا انه كان عازماً على فتحها فعاجله الموت .

(١) هيرودوتس ٢٣٧ (٢) هيرودوتس ١٩٧ (٣) هيرودوتس ٤٦٧

والرومان لم يطمعوا فيها الا أيام أوغسطس فانفذ تلك الحملة بقيادة اليوس غالوس فعادت بالفشل وقد ذكرنا خبرها في كلامنا عن دولة الانباط

فترى مما تقدم ان لعرب الحجاز وما يليه تاريخاً طويلاً لم يعرفه العرب ولا ذكروه في كتبهم . وآلت حروبهم طبعاً الى اختلاطهم بالامم المجاورة ونزوح بعضهم الى الاطراف شرقاً وغرباً يغتنمون ضعف أهل الحضر شأنهم في كل زمان فنزل بعضهم في وادي النيل وتجاوز البعض الآخر ما بين النهرين الى بلاد فارس . فقد جاء في تاريخ الفراعنة أن العرب لما رأوا ضعف مصر بعد دولة الرعامسة وطمع الدول المعاصرة بها أخذوا يفدون اليها بانعامهم وخيامهم يسطون على مدنها ويشاغلونها كما فعلوا عند انقسامها قبل دولة العمالقة (١) فنزلوا قفط وملكوها أجيالا وكانت مركزاً تجارياً تفد اليها القوافل القادمة من اليمن فالقصير فقفط حتى أصبح اهل قفط اكثرهم من العرب (٢)



(١) Sharpe, I. 206, II. 90 & 186

(٢) Sharpe, II. 237.

الطبقة الثانية

دول اليمن او الجنوب

فذلكة جغرافية

يراد باليمن في التاريخ القديم ما يسميه اليونان Arabia Felix أي العربية السعيدة ولعلها ترجمة « اليُمن » من البركة لكثرة خيراتها بالنظر الى البادية في الشمال كأنهم يريدون بها بلاد العرب العامرة أو الحضر . ويحدها عندهم خليج العجم من الشرق وبحر العرب من الجنوب والبحر الاحمر من الغرب ويسمونه خليج العرب . واما من الشمال فتحدها البادية وهي بادية الشام والعراق والعربية الحجرية (بلاد بطرا) ويدخل في بلاد اليمن على هذا التحديد اليمن وحضرموت والشحر وعمان والعروض ومعظم الحجاز وتهامة ونجد وغيرها

واختلفت أقسام بلاد اليمن وأسماء مدنها باختلاف الاعصر وا كثر المدن القديمة التي كانت قبل الاسلام خربت الآن وغطتها الرمال فاصبحت بادية بلا ماء ولا عمارة وفيها يبحث المنقبون عن الطلال مدائن الدول القديمة ومنها نقل ارنو وهاليفي وغلازر وغيرهم نقوش المسند واستدلوا بها على أخبار تلك العصور الخالية مما لم يذكره العرب ولا اليونان

اما العرب فيريدون باليمن الجزء الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب فقط وهو يقسم عندهم الى ٨٤ مخلافاً ذكرها اليعقوبي كلها [١] والمخلاف تحته مدن ومحافد وقرى وفيه الاودية والجبال والسدود والسيول . واشهر مخاليف اليمن مخلاف شبوة ومخلاف مأرب ومخاليف المعافر والسحول وذي رعين وجيشان ورداع وذمار وألهان وحراز وهوزن وحضور واقيان وخولان وغيرها . وقد فصل الهمداني كل مخلاف بقراه وأوديته وجباله في كتابه « صفة جزيرة العرب » على ما كانت عليه في ايامه باوائل القرن الرابع للهجرة وهو أوثق المصادر عن جزيرة العرب وأوفاها . واليعقوبي اقدم منه وقد ذكر مخاليف اليمن كما كانت في أواسط القرن الثالث للهجرة . ومع ذلك فان ما ذكره هؤلاء احدث كثيراً من التاريخ الذي نحن في صدده لان مداره على مدن

(١) تاريخ اليعقوبي ٢٢٧ ج ١

وقبائل ودول لم يبق غير أسمائها وبعض انقاضها وكان معظمها في أواسط اليمن وشرقيها في ما يعرف اليوم باليمن والجوف وحضرموت وما وراءها واشهر المدائن اليمنية التي عاصرت ذلك التاريخ مأرب أو سبا ومعين وصرواح ونجران وصنعاء وشبوة وشبام وتريم وظفار وريدان ويثيل والسوداء والبيضاء وحيران وميفع وغيرها (انظر الخريطة الثانية من هذا الكتاب) ومعظم هذه البلاد تخربت قبل الاسلام ولم يبق غير أسمائها وبعض انقاضها وسيأتي ذكرها ووصف بعضها في الكلام عن عمارة اليمن

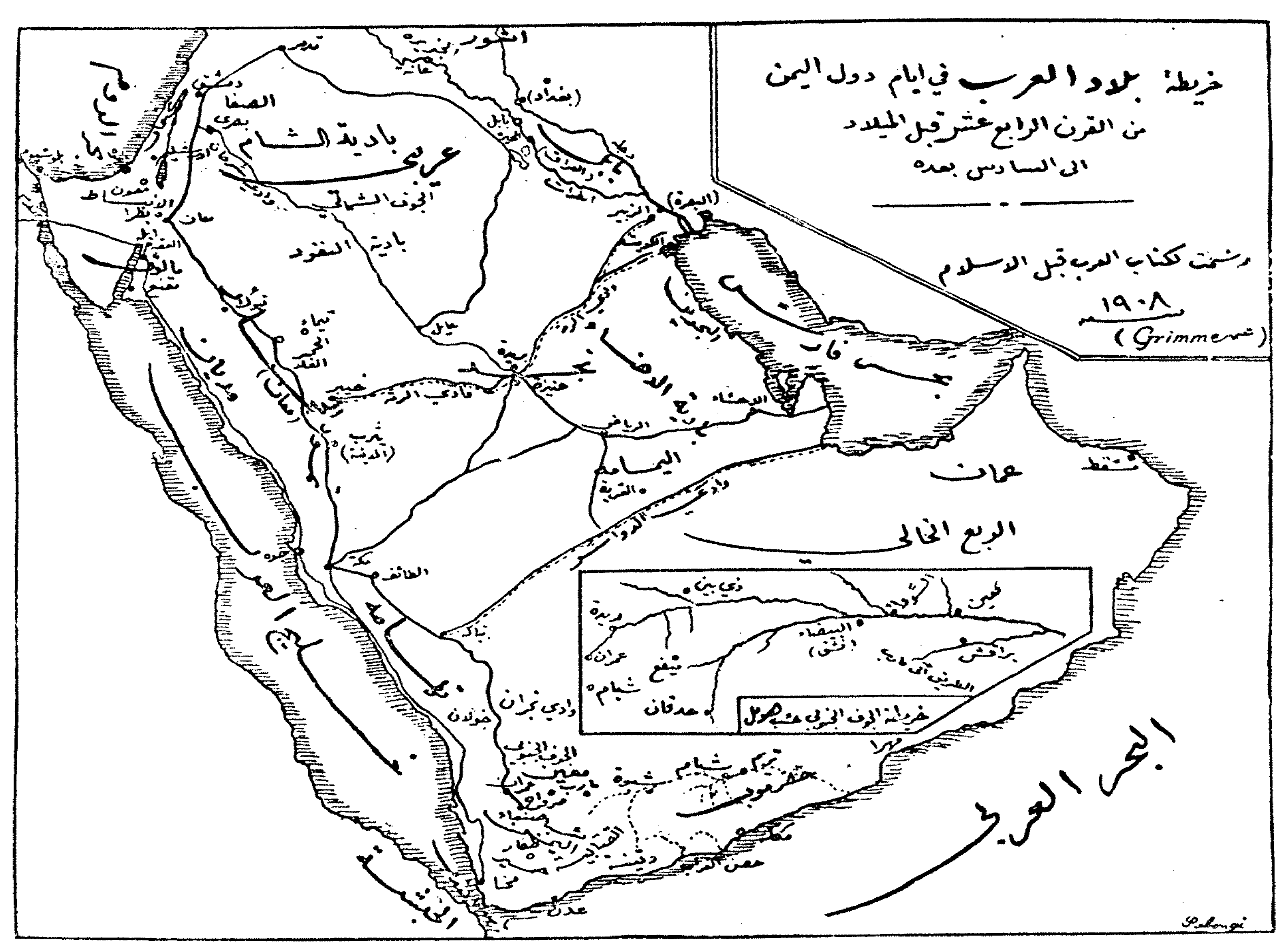
ما يقوله العرب عن دول اليمن

ليس في تواريخ الامم اسقم من تاريخ العرب على الاجمال واليمن على الخصوص وقد عانى سقمه وشعر باختلاطه وضعفه كل من همَّ بالكتابة فيه حتى القدماء فقد قال ابن خلدون « وفي انساب التبابعة تخليط واختلاف لا يصح منها ومن أخبارها الا القليل » (١) ولكننا عاملون على ايضاح ذلك وتحقيقه بقدر الامكان

ينتسب عرب اليمن الى يعرب بن قحطان ويعرفون بالعرب المتعربة لانهم تعربوا أي اقتبسوا اللغة العربية من العرب العاربة وهي البائدة . ويزعم مؤرخو العرب ان بني قحطان لما نزلوا اليمن كان فيها بقية من العرب العاربة والدولة فيهم والقحطانيون يومئذ بعيدون عن رتبة الملك والترفه الذي كان لاولئك فاصبحوا بمنجاة من الهرم الذي يسوق اليه الترف والنضارة فتشعبت في أرض الفضاء فصائلهم وتعددت أفخاذهم وعشائرهم حتى زاحموا من كان هناك من العمالقة فأبادوهم وانشأوا الدولة القحطانية على انقاضهم . وذكروا ان اول ملوك هذه الدولة يعرب بن قحطان غلب على قوم عاد في اليمن والعمالقة في الحجاز وولى اخوته على جميع أعمالهم فولى جرهماً على الحجاز وعاد ابن قحطان على الشحر وحضرموت بن قحطان على جبال الشحر وعمان بن قحطان على عمان (٢)

وذكروا بعده ابنه يشجب بن يعرب وبعده ابنه عبد شمس وهو سبا زعموا انه سمي بذلك لكثرة سبيه وانه هو الذي بنى السد الشهير في ارض مأرب . وخلف سبا المذكور عدة أولاد أشهرهم حمير وكهلان ولما مات سبا خلفه ابنه حمير مؤسس دولة حمير . وهي عندهم طبقتان الملوك والتبابعة وملوك حمير اختلفوا في عددهم وعصورهم وتواليهم ولكنهم

(١) ابن خلدون ٤٤ ج ٢ (٢) ابن خلدون ٤٧ ج ٢



الخريطة الثانية — بلاد العرب في أيام دول اليمن القديمة

اتفقوا في ان آخرهم « الحارث الرائش » وهو أول التبابعة . وهذا جدول قابلنا فيه بين توالي ملوك هذه الدولة باختلاف الرواة بين حمير والحارث والرائش :

القصيدة الحميرية	ابو الفداء	ابن خلدون	المسعودي
حمير	حمير	حمير	حمير
الهميسع	وائل	وائل	كهلان
ايمن	السكسك	السكسك	أبو مالك
زهير	يعفر	يعفر	جبار بن غالب
عريب	ذو رياش	النعمان	الحارث
الغوث	النعمان	ذو رياش	
وائل	اشمح	اشمح	
عبد شمس	شداد	الحارث	
زهير الصوار	لقمان		
ذو يقدم	ذو سدد		
ذو انس	الحارث		
عمرو			
الملطاط			
القليص			
سدد			
الحارث الرائش			

ولو راجعت أخبار دولة حمير في سائر ما كتبه المؤرخون لما وجدت اثنين متفقين في عددهم واسمائهم وتعاقبهم ويقول حمزة الاصفهاني ان بين حمير والحارث الرائش ١٥٠ اباً . أما اخبار هذه الدولة فهي اكثر تعقيداً واختلاطاً من اسماء ملوكها ويقولون انها كانت قبل الحارث الرائش شطرين يحكم أحدهما في سبا والآخر في حضرموت فلما ظهر الحارث المذكور فتح البلدين جميعاً وتبعوه ولذلك سمي تبعاً [1] وهو أول التبابعة

التبابعة عند العرب

والتبابعة عند العرب أولهم الحارث الرائش وآخرهم ذو جدن حكم بعد ذي نواس

(١) حمزة ١٢٤

الذي غلبه الاحباش وأخذوا اليمن منه . وعندهم بين الحارث المذكور وذي جدن تبابعة اختلفوا في أسمائهم وتعاقبهم وهذا جدول اسمائهم وسني حكمهم عن حمزة الاصفهاني :

مدة الحكم	اسم الملك	مدة الحكم	اسم الملك
١٢٥	الحارث الرائش	١٢٠	اسعد ابو كرب
١٨٣	ابرهة ذو المنار	٧٠	حسان بن تبع
١٦٤	افريقس بن ابرهة	٦٣	عمرو بن تبع
٢٥	العبد ذو الاذعار	٧٤	عبيد كلال
٧٥	هداد بن شراحيل	٧٨	تبع بن حسان
٢٠	بلقيس بنت هداد	٤١	مرثد بن عبيد
٨٥	ناشر ينعم	٣٧	وليعة بن مرثد
٣٧	شمر يرعش	...	ابرهة بن الصباح
٥٥	ابو مالك	١٥	صهبان بن محرث
٥٣	تبع بن الافرن	٥٧	حسان بن عمرو بن تبع
٧٠	ذو جيشان	٢٧	ذو شناتر
١٦٣	الافرن بن أبي مالك	٢٠	ذو نواس
٣٥	كليكرب	٨	ذو جدن آخر التبابعة

فعدد التبابعة على هذا الجدول ٢٦ تبعاً حكموا نحو ١٧٠٠ سنة

فتح الاحباش اليمن حسب رواية العرب

ويلي التبابعة في اليمن الاحباش دعاهم الى فتحها رجل من اليمن اسمه ذو ثعلبان انتقاماً من ذي نواس لانه اضطهد نصارى نجران وعذبهم فحمل صاحب الحبشة على اليمن بسبعين الفاً من الرجال ففرّ ذو نواس حتى اقتحم البحر وغرق فيه فخلفه ذو جدن فغلبوه ايضاً واقام الحبشة في اليمن وقائدهم ابرهة الاشرم . وأراد ابرهة هدم الكعبة فسار اليها في عام الفيل فهلك جيشه بالطير الابابيل وخلفه يكسوم ابنه وساء معاملة اليمنيين فذهب سيف بن ذي يزن ابن احد ملوكهم الى كسرى واستنصره فنصره وأرسل معه جنداً اخرج الاحباش من اليمن وولى سيفاً المذكور تحت سيطرته فغدر بسيف رجال بطانته وهم من الاحباش فقتلوه ولم يملك أحد بعده بل استقل أهل كل

ناحية بما لديهم على مثال ملوك الطوائف وظلت سيطرة الفرس على اليمن حتى ظهر الاسلام فدخلت في حوزة المسلمين

وقد جمع أخبار هذه الدولة نشوان بن سعيد الحميري من أهل القرن الخامس للهجرة في قصيدة تعرف بالقصيدة الحميرية . اتى فيها على مقدمة في بضعة ابيات حكمية زهدية مآلها التذكير بفناء الدنيا ومصير كل شيء الى البوار . يلي ذلك ايراد أمثلة من الدول الضخمة التي افناها الزمان كعاد وثمود حتى يصل الى دولة حمير فيذكر قحطان فيعرب ومن بعده من التبابعة والاذواء والاقيال وغيرهم في نحو ١٣٥ بيتاً ضمنها خلاصة أخبارهم اغفلنا نشرها لطولها فمن أراد الاطلاع عليها فليراجعها في مكانها [١]

هذه خلاصة تاريخ اليمن في كتب العرب واذا قابلت بين رواياتهم رأيت اختلافاً كثيراً وتناقضاً كبيراً . فهم يختلفون في أسماء الملوك والتبابعة وفي تتابعهم وفي مدات حكمهم وفي سير المشاهير منهم وأكثره مبالغ فيه وبعضه أقرب الى الخرافات منه الى الحقائق كتقديرهم مدات حكم التبابعة الاول اكثر من خمسمائة سنة غير حكم تبع بن الاقرن وأسعد ابو كرب . وقولهم مثلاً ان افريقس بن ابرهة غزا أرض المغرب وبنى مدينة افريقية وساق البربر اليها من أرض كنعان وابعد المغار في تلك البلاد الى أقصى العمران . وان شمر يرعش غزا المشرق فدوخ خراسان وهدم مدينة الصغد وبنى سمرقند وانه وجد في مصنعة كتابة حميرية ابتداءها « باسم الله هذا ما بناه شمر يرعش لسيده الشمس » وقولهم أن أسعد ابو كرب غزا الصين والترك [٢] وغير ذلك مما يخالف العقل فضلاً عن نصوص التاريخ العامة . على أنه لا يخلو من حقيقة لا بد لنا من استخراجها ولا يكون ذلك الا بالمقابلة بينها وبين مصادر تاريخية غير عربية أو قراءة الآثار الباقية

ما يقوله اليونان عن تاريخ اليمن

لم يخصص اليونان ولا سواهم من أمم التاريخ كتباً في تاريخ اليمن أو غيره من بلاد العرب ولكنهم ذكروها عرضاً في أثناء كلامهم عن الجغرافية العامة أو الرحلات أو غيرها وقد اشرنا الى ذلك في كلامنا عن مصادر تاريخ العرب . واكثر كتاب اليونان ذكراً لبلاد العرب سترابون وبلينيوس وبريبلوس وبطليموس ذكر كل منهم مدناً أو

(١) Himjarische Kasideh, Von Kremer, Leipzig, 1865

(٢) ابن خلدون ٥٣ ج ٢

أمماً أو احوال أخرى من أحوال بلاد اليمن بعضها يوافق ما ذكره العرب وبعضه يخالفه وذكروا مدناً وامماً لم يعرفها العرب اي انها لم ترد في تواريخهم أو جغرافيتهم وهذه اهم الامم العربية التي ذكرها اليونان في القسم الجنوبي من جزيرة العرب :

الاسم اليوناني	ما يقابله في العربية
Minaei	المعينيون
Sabaei	السبأيون
Homeritae	الحميريون
Chatramotitae	الحضرميون
Gebanitae	الجبائيون
Gerraei	القريون
Catabani	القتابيون
Omanitae	العمانيون
Sappharitae	الظفاريون

ومن المدن التي ذكروها هناك

Mariaba	مأرب
Sabotta	شبوه
Carnus	القرن
Nascus	نشق

وذكروا الطرق التجارية ووصفوا الاحوال الاجتماعية مما سنأتي عليه في محله .

فترى بين ما ذكره اليونان من الامم أو المدن امماً او مدناً لم يذكرها العرب او ذكروها عرضاً بلا اهمية واليونان يقدمونها على اهم ما ذكره العرب . فالسبأيون مثلاً لم يعرف العرب عنهم شيئاً يستحق الذكر والمعينيون لم يعرفهم العرب مطلقاً وهم عند اليونان امة عظيمة ذات تجارة واسعة وشأن كبير ومثلهم القريون والجبائيون واعتبر ذلك في المدن ايضاً فان مأرب لم يذكرها العرب الا في عرض الكلام عن سدها وانفجاره وكذلك مدن شبوة والقرن ونشق وهي من اهم مدن اليمن في ابان مجدها

على ان الامم والمدن التي تفرد اليونان بذكرها لم يستطع العلماء المستشرقون تعيين اماكنها ومعرفة ما يقابلها من الاسماء العربية الا بعد استنطاق الآثار بتوالي التنقيب وقراءة الخط المسند المعروف بالحميري . وقد بلغ عدد ما اكتشفوه من النقوش في جنوبي بلاد العرب وحملوه او حملوا صورته الى اوربا نحو ٢٠٠٠ نقش او قطعة . وهذه اسماء الذين نقلوها ومقدار ما نقله كل منهم :

عدد النقوش	اسم الرحالة
١٠٣٢	ادورد غلازر
٦٨٦	يوسف هاليفي اكثرها عن المعينيين
٦٩	يوليوس اويتن » » »
٥٦	توماس ارنو
١٨٩	آخرون
٢٠٣٢	(الجملة)

فاذا أخرج من هذا العدد النسخ التي جاءت مكررة وعددها نحو ٤٥٠ فالباقي ١٥٦٠ نقشاً أصلياً . وقد توصلوا بالتنقيب الى اكتشاف معين عاصمة المعينيين ونشق والقرن او القرنة وشبوة وظفار وغيرها . واكتشفوا مدناً أخرى لم يعرفها مؤرخو العرب ولا ذكرها اليونان وانما قرأوا أسماءها على الآثار واكتشفوا اطلالها بين الرمال . وعرفوا ممالك وملوكا واخباراً لم يرد لها ذكر في التاريخ العربي ولا اليوناني. ونحن باسطون في ما يلي ما وصلنا اليه بعد الاطلاع على ما كتبه العرب واليونان وما اكتشفه النقابون من أساطير اليمن واحافيرها واطلالها وما جاء عن هذه البلاد وسكانها عرضاً في آثار الامم القديمة في اشور وبابل ومصر وغيرها

تمهيد في اصل حكومات اليمن

كانت اليمن في أقدم ازمانها واصل نظامها تقسم الى محافد (جمع محفد) والمحفد الى قصور والقصر كالحصن او القلعة يحيط به سور ويقيم فيه شيخ أو امير او وجيه يحف به الاعوان والحاشية والخدم كما كانت حكومات بابل قديماً على ما بيناه في كلامنا عن دولة حمورابي . وهو يشبه نظام الاقطاع في الاجيال الوسطى باوربا . ويعرف صاحب المحفد أو القصر بلفظ « ذو » اي صاحب يضاف الى اسم المحفد فيقال « ذو غمدان » اي صاحب غمدان و « ذو معين » اي صاحب معين وتعرف هذه الطبقة من الحكام بالاذواء او الذوين وهم كالبارونية او اللوردات في نظام الاقطاع . وكانت هذه المحافد عديدة لكل منها حكومة قائمة بنفسها وأشهر المحافد او القصور التي وصلت الينا اسماؤها : غمدان وتلفم وناعط وصرواح وسلحين وظفار وشبام وبينون وريام وبرافش وروثان وارياب وعمران وغيرها وبعض هذه القصور بقي الى ما بعد الاسلام وذكره العرب ووصفوه كما سيجيء في كلامنا عن عمران اليمن

وقد تجتمع عدة محافد يتولى شؤونها امير واحد يسمى « قيل » جمعه « أقيال » ويسمى مجموع المحافد مع ما يلحقها من القرى والمزارع « مخلاف » وهو كالكورة او الرستاق او القضاء يحكمه قيل او ملك صغير وينسب المخلاف الى اكبر محافده او الى المحفد الذي يقيم فيه القيل او الملك وقد يتحول القصر او المحفد الى مدينة بعد ظهور الدولة وقد يبدل اسمه كما تحول قصر « ريدان » الى مدينة « ظفار »وسلحين الى « مأرب »

وكان الاقيال يتنازون ويتنازعون فيغير أحدهم على جاره وربما رجع عن غزوه لغير سبب وقد اشار الطبري الى ما تقدم بقوله « لم يكن لملوك اليمن نظام وانما كان الرئيس منهم يكون ملكا على مخلاف لا يجاوزه وان تجاوز بعضهم عن مخلافه بمسافة يسيرة من غير ان يرث ذلك الملك من آبائه ولا يرثه ابناؤه انما هو شأن شداد المتلصصة يغيرون على النواحي باستغفال اهلها فاذا افعدهم الطلب لم يكن لهم ثبات وكذلك كان امر ملوك اليمن يخرج أحدهم من مخلافه بعض الاحيان ويبعد في الغزو والاغارة فيصيب ما مر به ثم يتشمر عند خوف الطلب زاحفاً الى مكانه من غير ان يدين له احد من غير مخلافه او يؤدي اليه خراجاً »(١)

وكان اكثر اشتغال الاذواء والاقيال بالتجارة لتوسط بلاد اليمن بين الهند والحبشة والصومال ومصر والشام والعراق فكانوا ينقلون التجارة بين هذه البلاد بعد دخولها الى جزيرة العرب بالقوافل في طرق خاصة وقد ينبغ بين الاقيال او الذوين رجل ذو مطامع اهل للسيادة العامة فيمد سلطته على جيرانه ويسمي نفسه ملكا وينظم مملكة يجعل محفده قصبتها وتنسب المملكة اليه كما تقدم. ويتوالى الحكم في اعقابه واهله فيتألف منهم دولة يطول بقاؤها او يقصر ويتسع نفوذها او يحصر حسب الاحوال. فنشأ على هذه الكيفية عدة دول لم يصلنا من أخبارها الا القليل ولم يعرف العرب منها الا دولة حمير. والذي بلغنا خبره من دول اليمن بما لدينا من اسباب العلم في الكتب او الآثار حتى الآن ثلاث دول رئيسية وهي المعينية والسبأية والحميرية غير الدول الصغرى

(١) الطبري نقله ابن خلدون ٥٨ ج ٢

١ ــ الدولة المعينية

تنبه العلماء الى هذه الدولة مما ذكره اليونان عنها . قال استرابون في كلامه عن بلاد اليمن « يشمل القسم الجنوبي من جزيرة العرب اربعة شعوب المعينيون(Minaei) وعاصمتهم قرنا والسبائيون (Sabaei) وعاصمتهم مأرب والقتابيون (Catabani) وعاصمتهم تمناء والحضروموتيون او الحضرميون وعاصمتهم شبوة » وذكر في مكان آخر ان المعينيين يحملون التجارة الى بطرا مدينة الانباط[١] وذكر بلينيوس ان المعينيين يقيمون في بلاد كثيرة الغاب والاغراس وذكرهم أيضاً ذيونيسيوس وبطليوس واطروا سلطتهم وسعة تجارتهم . ولم يكن العلماء يعرفون « معين » ولا اكتشفوا انقاضها فذهب بعضهم الى ان المراد بلفظ Minaei المائيون نسبة الى منى بقرب مكة . وقال آخرون غير ذلك حتى وُفـق المستشرق هاليفي الى ارتياد بلاد الجوف الجنوبي في شرقي صنعاء واكتشف انقاض معين وقرأ اسمها عليها بالمسند وبجانبها براقش فتوجهت الانظار اليها . وبلغت النقوش الكتابية التي اكتشفها هاليفي في سفرته الى بلاد الجوف وحدها ٣٠٣ نقوش ٧٩ نقشاً في معين نفسها و١٥٤ في براقش بالقرب منها و٧٠ في السوداء وهي القرن في الآثار وكارنا او قارنا عند اليونان . وكشف مدينة نشق وهي ناسكوس Nascus عند اليونان ويسميها العرب الآن البيضاء فذهب هاليفي ووافقه غلازر وغيره ان معين هي البلد التي تنسب اليها تلك الامة وهم المعينيون وان هذه المدن التي اكتشفها هاليفي في الجوف مدن معينية ولا سيما براقش واسمها على انقاضها « يثيل » . ويؤيد ذلك ورود اسم معين وبراقش معاً في جملة ما حفظه العرب من اسماء المحافد في الجوف — قال الهمداني في كتاب الاكليل « محافد اليمن براقش ومعين وهما باسفل جوف الرحب مقتبلتان فمعين بين مدينة نشان وبين درب شراقة » وفيها يقول مالك بن حريم الدلاني :

ونحمي الجوف ما دامت معينٌ ... باسفله مقابلة عرادا

اما براقش فقاعة في أصل جبل هيلان قال فروة بن مسيك :

أحلّ بحابر جدي عطيفاً ... معين الملك من بين البنينا
وملكنا براقش دون اعلى ... وانعم اخوتي وبني ابينا

وقال علقمة :

وقد أسوا براقش حين اسوا ... بيلقمة ومنبسط انيـق

---

(١) Strabon. III. 355

وحلوا من معين حين حلوا   لدزهم لدى الفج العميق (١)

وقرأ هالبفي في ما اكتشفه من الآثار كثيراً من اسماء ملوك هذه الدولة وآلهتها وعادات اهلها وغير ذلك حتى لم يبق شك ان المعينيين ينسبون الى هذا المكان وهو الرأي المعول عليه الآن

ملوك معين

لم يذكر اليونان شيئاً عن ملوك هذه الدولة ولا اوردوا اسماءهم ولكن النقابين في الآثار وقفوا على اسماء كثير منهم وبلغ عدد الملوك الذين عثروا على اسمائهم في انقاض الجوف بمعين وغيرها ٢٦ ملكا يشترك كل بضعة منهم باسم واحد ويتميزون بعضهم عن بعض بالالقاب اذ كان لملوكهم نعوت تفخيم مثل قولنا الغازي والفاتح والناصر والمنتصر ونحو ذلك . وهذه اسماءهم الآتية مرتبة حسب تشابهها :

الاسم	اللقب
اب يدع	(بدون لقب)
» » يثيع	(اي المنقذ)
» » ريام	(» السامي)
اليفع	(بدون لقب)
» يفيس	(اي الشهير)
» ياسر	(» السعيد)
» يثيع	(» المنقذ)
» ريام	(» السامي)
وقه ايل يثيع	(» المنقذ)
» » نبيط	
» » صديق	(» الصادق)
» » ريام	(» السامي)
حفن بن اب يدع	(بدون لقب)
حفن بن اب يدع	(ريام)
حفن صديق بن يثع كرب	
» ريام بن اليفع ياسر	
يثع ايل	(بدون لقب)
» »	صديق
» »	ريام
خال كرب	صديق
هوفعثت بن اليفع ريام	
معدي كرب	بن اليفع يثيع
تبع كرب	بن يثع ايل ريام
ام يثع	بن ابو كرب
ابو كرب	
يثع كرب	(الجملة ٢٦ ملكا) (٢)

وقد وجد الاستاذ مولر بعد درس النقوش المعينية ان الحكومة في هذه الدولة كانت وراثية تنتقل من الاب الى الابن وقد يتولى الاثنان معاً وان ملوك هذه الدولة كانوا

(١) Müller, Burg, II. 95

(٢) Müller, Burg., II. 66

يعرفون في صدرها الأول بلقب « مزواد » كما كان ملوك سبأ في أوائل دولتهم يسمون « مكرب » ولعلَّ هذين اللقبين يتضمنان معنى الكهانة فضلاً عن الحكومة فيكون المراد بقولهم « مزواد معين » حاكم معين وكاهنها قبل تحول الدولة الى الملك العضود مثل الباتيسي في بابل أيام الامارات الصغرى

وأمتد نفوذ المعينيين في ابان دولتهم الى شوطىء البحر المتوسط وشواطىء خليج العجم وبحر العرب أي انها شملت كل جزيرة العرب . ولا يظهر انها كانت دولة حرب وفتح بل كانت دولة تجارة مثل دولة الفينيقيين على شواطىء سوريا ودولة الانباط في بطرا واكثر دول اليمن . وكانت طرقها التجارية ممتدة في اواسط جزيرة العرب بين تلك البحور وانتشرت سيادتها ومستعمراتها شمالاً الى أعالي الحجاز بدليل ما وقفوا عليه من النقوش المعينية في العلاء قرب وادي القرى وفي الصفا وفي حوران وغيرها وسنأتي على ذلك في كلامنا عن التجارة

ومع كثرة النقوش المعينية التي عثروا عليها وقرأوها ليس ثمة أثر تاريخي يساعد على تنسيق حوادثها او مبدأ امرها على انهم استدلوا على قدم عهدها بالاسباب التي تقدم ذكرها . ويؤخذ من نقش أثري قرأه غلازر (غرو ١٠٠٠) ان السبأيين افنوا المعينيين يوم كان ملوك السبأيين لا يزالون يلقبون « مكرب » [١] والظاهر انهم غلبوهم على دولتهم وظل القوم يتعاطون أعمالهم التجارية فقد جاء ذكرهم مع القريين في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد والسبأيون يومئذ في ابان دولتهم [٢]

ويرى الاستاذ مولر ان كارنا او قرنا التي ذكر استرابون انها قصبة المعينيين هي عاصمتها الحديثة وان معين عاصمتها القديمة [٣]

ولغة المعينيين كثيرة الشبه باللغة السبأية (لغة حمير) وحروفها واحدة تقريباً لكنها تختلف عنها اختلافاً واضحاً في ضمير المذكر الغائب فانه في المعينية « السين » بدل الهاء في السبأية وسائر اللغات السامية الا البابلية والحبشية

أصل المعينيين

المشهور في تاريخ العرب ان دول اليمن بعد القبائل البائدة ترجع بانسابها الى قحطان فاذا صح هذا على دولتي سبأ وحمير فانه لا يصح على دولة معين لانها أقدم

---

(١) Glaser, Geo. II. 451 (٢) Glaser, Geo. II. 10

(٣) Müller, Burg. II. 58

كثيراً من بني قحطان وقد جاء ذكر المعينيين في سفر الاخبار الثاني ٢٦ عدد ٧ حيث يقول « وأعانه الله (عزيا) على الفلسطينيين وعلى العرب المقيمين بجوار بعل وعلى المعونيين » ويظهر انهم أقدم من ذلك كثيراً لانهم عثروا على امة بهذا الاسم ذكرت في أقدم آثار بابل بين أخبار نرام سين سنة ٣٧٥٠ ق م على نصب عليه نقوش مسمارية جاء فيها « ان نرام سين حمل على معان (في جزيرة سينا) وقهر ملكها منيوم Manium (والميم للتنوين في البابلية) وانه اقتطع حجارة من جبالها حملها الى مدينة اكاد ونحت حجراً منها جمله نصباً نقش على قاعدته خبر هذا الفتح [١] وجاء ذكر هذه الامة أيضاً مع امة ماليق في آثار بابل مرة أخرى سنة ٢٥٠٠ ق م وقد اشرنا الى ذلك في ما تقدم

وقد يتبادر الى الذهن انهم المراد بقول المصريين القدماء « من » او « معن » men ويريدون بها امة من الشاسو عمالقة مصر في اثناء استيلائهم على وادي النيل[٢] كما ظن غلازر ولكننا نستدل مما وقفنا عليه من أحوالهم الاجتماعية والسياسية والدينية ومن اسماء رجالهم وآلهتهم ان أصلهم من عمالقة العراق بدو الآراميين الذين كانوا في أعالي جزيرة العرب قبل ظهور دولة حمورابي بعدة قرون . فلما ظهرت هذه الدولة في بابل واقتبست ديانة السومريين وشرائعهم ونظاماتهم وسائر أحوال اجتماعهم كان المعينيون في جملة القبائل التي نالت حظاً من ذلك كله وتنوعت لغتهم بالحضارة ومخالطة السومريين او الاكاديين وغيرهم من سكان بين النهرين الاصليين فذهب منها الاعراب . ولم يظهر ذلك التغيير في اللغة البابلية لانها ظلت محفوظة بالتقليد لاستخدامها في المخابرات الرسمية كما تقدم ولكنه ظهر في لغة التكلم

فلما ذهبت دولة العرب في العراق نزح المعينيون في جملة القبائل التي نزحت وقد تعودت الحضارة فلم يعد يطيب لها التجول في البادية فالتمست مقراً تقيم فيه فنزلت اليمن وتوطنت الجوف وشادت القصور والمحافد على مثال ما عرفته في بابل . وتعاطى رجالها التجارة عملاً بما تقتضيه طبيعة الاقليم واضطروا الى الكتابة لتدوين حساباتهم التجارية او المخابرات السياسية فاقتبسوا الابجدية الفينيقية لسهولة استعمالها وقرب تناولها بالنسبة الى الحرف المسماري فدونوا بها لغتهم وهي في الاصل لغة عامية بالنسبة الى لغة بابل المدونة . وتنوعت تلك الابجدية بتوالي الاجيال حتى صارت الى الحرف المسند المشهور

(١) King, 158 (٢) Brugsch, I. 268

كما تولدت الاقلام الآرامية وأخذه عنهم السبأيون والاحباش ـ وهذه هي الابجدية الحميرية مع ما طرأ على حروفها من التنوع حتى أصبح لبعضها عدة أشكال :

(ش ١٩) الابجدية الحميرية او الحرف المسند

وتنوعت اللغة أيضاً جرياً على ناموس الارتقاء فزادت بعداً عن لغة بابل لكنها ما زالت تشترك معها في علامة خاصة دون سائر اللغات السامية (الا الحبشية) نعني « السين » ضمير الغائب فانها كذلك في البابلية أيضاً فيقولون « بيتس » في قولنا « بيته » . والسين المذكورة دخيلة على الاصل السامي فلعل البابليين اقتبسوها من اللغة الطورانية (السومرية) اذ لا وجود لها في سائر اللغات السامية الا الحبشية كأن الحبشة عمرت في الاصل من قوم نزحوا اليها من معين او لسبب آخر

ويدلُّ على اشتراك المعينيين وبدو الآراميين في اصولها ايضاً تشابه الاسماء في الامتين كما بيناه في كلامنا عن الاسماء الحورابية . ويؤيد ذلك اشتراك الامتين باسماء المعبودات واسس الاعتقادات وطرق العبادة فان الشبه كثير بين الديانة المعينية وديانة بدو الآراميين سكان غربي الفرات ومن تحضر منهم في اور الكلدانيين وحران كما

سنبينه مفصلاً في كلامنا عن ديانة العرب القدماء

فالمعينيون اذا صح انهم كانوا نحو الالف الرابع قبل الميلاد في جزيرة سينا فالارجح انهم جاؤا اليمن بعد نزولهم العراق واقتباسهم شيئاً من تمدن السومريين او البابليين ودياناتهم مع وقوع التغيير في لسانهم بتوالي الاجيال وسيأتي تفصيل ذلك عند كلامنا عن لغات العرب

فلما نزل المعينيون بلاد اليمن ساعدهم ذلك التمدن في التغلب على من كان فيها قبلهم وما لبثوا ان امتدت سيادتهم على معظم جزيرة العرب قبل قيام دولة سبأ بأجيال . واختلف العلماء في تقدير عمر الآثار التي عثروا عليها في اطلال هذه الدولة فذهب جماعة الى انها تبدأ بالقرن الرابع عشر قبل الميلاد وقال آخرون بل من القرن السابع او الثامن[١]

ووفق الباحثون في انقاض معين وغيرها من اطلال المعينيين الى العثور على كثير من اسماء الملوك والمعبودات مما يؤيد أصلها البابلي

٢ — الدولة السبأية

ذكرت العرب سبأ ذكراً مبهماً فقالوا انه حكم ٤٨٤ سنة ثم ملك بعده حمير[٢] يريدون بسبا دولة سبا او أمة سبا على اصطلاحهم في مثل هذه الحال ولكنهم لم يذكروا من ملوكها احداً وقد ذكرها اليونان حوالي تاريخ الميلاد ولم يتعرضوا لملوكها وانما ذكروها في جملة الامم الاربع التي قالوا انها اكبر امم اليمن وهم المعينيون والسبأيون والقتابيون والقريون . وقالوا ان عاصمتهم ماريابا « مأرب » . وذكر استرابون كثيراً من احوالهم الاجتماعية والاقتصادية سنأتي عليها في مكانها . وأما الدولة وملوكها فلم يتعرض لها اليونان والفضل في معرفتها للآثار التي قرأوها في اطلال اليمن وبعض اطلال اشور وغيرها

أصل السبأيين

يقول العرب ان سبا من قحطان ويسمونهم العرب المتعربة تمييزاً لهم عن العرب الذين كانوا قبلهم . ولم يقولوا لنا من أين اتوا ولكنهم ذكروا ان قحطان ابو اليمن كلهم وانهم كانوا يتكلمون غير العربية فلما نزلوا اليمن كان فيها العرب العاربة فتعلموا العربية منهم . وذهب بعضهم الى ان قحطان تعريب يقطان من ابناء سام ولا سبيل الى تحقيق ذلك . ولكن يؤخذ من قراءة الآثار وغيرها ان دولة سبأ تبدأ نحو القرن الثامن

(١) Dussaud, 74 (٢) المسعودي ١٩٣ ج ١

قبل الميلاد ولم يقفوا لها على خبر ثابت اقدم من هذا التاريخ . ولعل تلك الامة نزلت اليمن قبل ذلك العهد وأقامت بجوار المعينيين حيناً من الدهر واختلطوا بهم وبغيرهم من أهل تلك الجزيرة واقتبسوا لغتهم وعاداتهم ودياناتهم وتنوسي أصلهم كما يصيب من ينزل مصر والشام لهذا العهد فاذا توالت أعقابه بضعة أجيال وتدينوا بدين البلاد عدّوا عرباً وان كان جدُّهم تركياً او كردياً

وأقرب جيران اليمن الحبشة وكانت العلائق التجارية متينة بين البلدين من أقدم ازمنة التاريخ حتى عدوا اليمن من اثيوبيا . فلا يبعد أن يكون القحطانيون طائفة من الاحباش عبروا بوغاز باب المندب الى اليمن قديماً وأقاموا فيها اجيالا ريثما تعربوا ثم أنشأوا الدولة . ولعلهم في الاصل ساميون او عرب نزلوا الحبشة بطريق الصحراء الشرقية المصرية لانها كانت قسماً من جزيرة العرب كما علمت . او كان الشاسو وعمالقة مصر لما غلبهم المصريون وطاردوهم نزحت قبائل منهم نحو الجنوب في الصحراء الشرقية الى الحبشة فأقاموا فيها أجيالا وتوالدوا هناك ثم نزح بعضهم الى اليمن تدريجاً لسبب من الاسباب وما زالوا يتقوون حتى أفضت اليهم الدولة . ويؤيد ذلك ان لفظي تبع وحمير حبشيان الاول معناه « القادر » والثاني « غبش » أي معتم من لون البشرة [1]

مبدأ دولة سبا

ومهما يكن من أصل السبأيين فقد ثبت انهم انشأوا في اليمن دولة كبرى جاء ذكرها في اخبار اشور بقرميدة للملك سرجون الثاني (٧٢١ — ٧٠٥ ق م) ذكر فيها الامم التي تؤدي اليه الجزية وفي جملتها فرعون ملك مصر وشمسية ملكة العرب (عربي) ويثعمر السبأي وانه اسر حانو ملك غزة كما تقدم[2] فيدل هذا القول على وجود السبأيين في بلاد العرب في القرن الثامن قبل الميلاد . ويؤيد ذلك انهم عثروا في مأرب على نقش جاء فيه ذكر ملك او غير ملك اسمه « يثعمر » سيأتي ذكرهم

ولكن الراجح عند العلماء اليوم ان سرجون لم يصل بفتوحه الى اليمن فالظاهر ان السبأيين كانوا يدفعون الجزية عن تجارتهم في شمالي جزيرة العرب حتى يؤذن لهم بالمرور الى شواطيء البحر المتوسط وخصوصاً الى غزة لانها فرضة تجارية قديمة

وبلغ عدد الملوك الذين قرأوا اسماءهم على آثار هذه الدولة بمأرب وصرواح وغيرها بضعة وثلاثين ملكاً ويستدل من مقابلة اسمائهم وألقابهم ان السبأيين تدرجوا في الحكم من الامارة البسيطة او الكهانة الى الملك الواسع ولا يراد بسعة الملك انهم

(١) Ency. Brit. Art. Arabia (٢) Müller, Burg. II. 36

دوخوا البلاد كما فعل اليونان والرومان او كما فعل عرب الحجاز بعد الاسلام لان سبأ ليست دولة فتح بل هي دولة قوافل وتجارة ولا تجد للحرب او الفتح ذكراً في آثارها الا قليلاً خلافاً للاشوريين والمصريين معاصريها فانك لا تكاد تقرأ على آثارهم غير قولهم « فتحت وغلبت وضربت الجزية وحملت الغنيمة » وأما السبأيون فاكثر ما وصل الينا من اخبارهم قولهم « بنيت ووقفت ورمت » وانما يراد بسمة ملك سبا نشر نفوذها في ما يجاورها من المحافد او المخاليف

والظاهر ان القحطانيين قضوا زمناً طويلاً وهم من قبيل الاذواء اصحاب القصور والمحافد كما كان المعينيون في اوائل دولتهم حتى اذا نبغ « سبأ » صاحب قصر صرواح شرقي صنعاء وكان قوياً طامعاً فاستولى على جيرانه . فلما اشتد ساعده او ساعد خلفائه ذهبوا بدولة المعينيين فاصبحت صرواح قصبة مملكتهم ثم صاروا الى مأرب فغيرها

ويستدل مما قرأوه على الآثار حتى الان ان السبأيين مروا على أربعة أطوار تتميز بألقاب ملوكها فكان ملكهم في الطور الاول يسمى « مكرب سبا » ثم قالوا « ملك سبا » ثم « ملك سبا وريدان » وكان ريدان محفداً من محافدهم الكبرى سمي بعد ذلك ظفار ثم قالوا « ملك سبا وريدان وحضرموت وغيرها »

وللتوفيق بين ما وصل اليه الباحثون في الآثار المنقوشة وبين ما ذكره العرب منه في اخبار هذه الامة نقسم هذه الاطوار الى عصرين الاول العصر السبأي الحقيقي الذي كان صاحب سبا فيه يسمى « مكرب سبا » ثم « ملك سبا » ويشمل الطورين الاولين. و نعد الدولة فيهما « الدولة السبأية الحقيقية » . والعصر الثاني الذي صارت ألقاب الملوك فيه « ملك سبا وريدان » أو « ملك سبا وريدان وحضرموت وغيرها » الى انقضاء الدولة نسميه العصر الحميري مراعاة لتسمية العرب دولة حمير

دولة سبا الحقيقية او العصر السبأي

من نحو سنة ٨٥٠ — ١١٥ ق م

ان أول هذه الدولة لا يستطاع تحقيقه واذا اعتبرنا « يثعمر » الذي دفع الجزية الى سرجون اقدم رؤسائها كان اولها في القرن الثامن قبل الميلاد لكننا نجد في التوراة ذكر ملكة سبا في ايام سليمان أي في القرن التاسع قبل الميلاد فاذا كان المراد بها سبا جزيرة العرب كانت بداءة هذه الدولة أقدم من ذلك فنفرض انها بدأت في اواسط القرن التاسع

اما ملوكها فقد بلغ عدد الذين وصلت الينا اسماؤهم من استنطاق الآثار ٢٧ منهم ١٥ مكرباً و١٢ ملكا وهذه اسماؤهم بحسب تعاقبهم باعتبار التوارث . ولهم القاب خاصة بهم غير ألقاب الدولة المعينية وهي هنا خمسة : وتار (المعظم) وبين (الممتاز) وذرح (الشريف) ويوهنعم (المحسن) وينوف (السامي) كما نرى في ما يلي :

مكارب سبا

يثعمر
ذمر علي
يدع ايل بن ذمر علي
سمهعلي ينوف بن ذمر علي
كرب ايل وتار « « «
يثعمر بين بن سمهعلي ينوف
سمهعلي
يثعمر وتار بن سمهعلي
يدع ايل ذرح « «
سمهعلي ينوف بن يدع ايل ذرح
يثعمر وتار « « « «
يدع ايل بين بن يثعمر
سمهعلي ينوف بن يثعمر
كرب ايل بين
ذمر علي وتار بن كرب ايل

ملوك سبا

ذمر علي
ذرح
سمهعلي ذرح
كرب ايل بن سمهعلي ذرح
اليشرح بن سمهعلي «
يدع ايل وتار
يثعمر
كرب ايل وتار
يثعمر بين
يكرب ملك وتار
يدع ايل بين
يريم ايمن

فهؤلاء المكارب والملوك اذا اعتبرنا تعاقبهم من الاباء الى الابناء رأينا مدتهم لا تجاوز ٢٣ جيلا وبتقدير الجيل ٢٥ سنة وان هناك اجيالا لم تصل معرفتها الينا لا نبالغ اذا قدرنا سني الدولة بنحو ٧٠٠ سنة . وقد دقق غلازر في تحقيق الزمن الذي انتقلت فيه الدولة الى العصر الحميري من مقابلة ما لديه من الاساطير المنشورة وغير المنشورة فترجح له ان دولة سبا الحقيقية تنتهي سنة ١١٥ ق م [1] وبها تبتدىء دولة حمير أي « ملوك سبا وريدان » سيأتي الكلام عليها

(١) Glaser, Abb. 30

سبب انقضاء دولة سبا الحقيقية

أن هؤلاء الملوك على كثرتهم لم نقف حتى الآن على شيء من أخبارهم غير عنايتهم اجمالا بالتجارة مثل اسلافهم المعينيين فنترك أعمالهم التفصيلية لما عساه أن يكشفه المستقبل وننظر في سبب انقضاء هذه الدولة . والمشهور عند كتاب العرب ان سبب انقضائها ـ وهم يعنون انقضاء دولة حمير ـ انفجار سد مأرب (سيل العرم) ونزوح القبائل الى العراق والشام والحجاز وغيرها دفعة واحدة حوالي تاريخ الميلاد . وذلك بعيد اذ لا يعقل ان تعجز الدولة في ابان سطوتها عن اتقاء مثل هذا السيل واذا تصدع السد فلا تعجز عن ترميمه وسيتضح لك ذلك في الكلام عن السدود . والغالب في اعتقادنا أن دولة السبأيين ذهبت تدريجاً بذهاب أسباب قوتها . لانها خالفت المعينيين في نقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق حتى أصبحت في القرون الاولى قبل الميلاد اكبر وسائل الاتصال بين تلك الامم هناك . فكانت السلع والاطياب تأتي من الهند والحبشة الى شواطىء جزيرة العرب فينقلها السبأيون على قوافلهم الى مصر والشام والعراق . ولم يكن عالم التجارة يستغني عنهم فزهت بلادهم واتسعت ثروتهم وامتدت سيادتهم الى أطراف الجزيرة شمالا وشرقاً واحتفروا الترع وبنوا السدود وحولوا الرمال الى تربة خصبة وبنوا القصور والمحافد والهياكل وتفننوا بتزيينها وزخرفها وشادوا حولها الاسوار واغترسوا الحدائق حتى صارت البادية التي يهلك سالكها من العطش الآن جنة آهلة عامرة

وما زالوا في عز وثروة واذا تصدع السد رمموه حتى اخذت طرق التجارة تحول من البر الى البحر فاخذوا في الضعف . وكان اصحاب «ريدان» وهي أقرب الى البحر جنوباً قد اشتد ساعدهم وهم من حمير فرع السبأيين فغلبوهم على مدينتهم او اتحدوا معهم دولة واحدة كان يقيم ملوكها تارة في مأرب وطوراً في ريدان (ظفار) على التوالي . ثم اقتصروا على الاقامة في ظفار وذلك دليل على ان لقب « ملك سبا وريدان » حدث في اواخر الدولة بعد ان وجهت عنايتها نحو الجنوب على أثر تداعي السد وبالجملة ان قصبة السبأيين كانت قبل انشاء دولتهم صرواح ورئيسهم يسمى « ذو صرواح » فلما أنشأوا الدولة بنوا مأرب واسمها أيضاً سبا فصار كبيرهم يسمى « مكرب سبا » ثم صار « ملك سبا » وهما الطوران الاول والثاني أو العصر السبأي الحقيقي ثم صارت القابهم « ملك سبا وريدان » ثم « ملك سبا وريدان وحضرموت الخ » ـ وهو العصر الحميري

دولة حمير او العصر الحميري

من سنة ١١٥ ق م – ٥٢٥ ب م

قد تقدم ان العصر الحميري يبدأ سنة ١١٥ ق م بانتقال عاصمة السبأيين الى ريدان (ظفار) والحميريون فرع من السبأيين وحمير عند العرب ابن سبا ويؤيد ذلك ان اليونان لم يذكروا الحميريين في كتبهم الى سنة ٢٠ ق م[١]. والظاهر ان الحميريين كانوا يقيمون في ريدان قبل ذلك التاريخ بأجيال وهم أقيال أو أذواء وكبيرهم يسمى «ذو ريدان» حتى سنحت لهم فرصة تغلبوا بها على اخوانهم السبأيين او اتحدوا معهم في أواخر دولتهم فصار لقب كبيرهم « ملك سبا وذو ريدان » كما يلقب ملك الانكليز اليوم «ملك انكلترا وامبراطور الهند» ولما ملكوا حضرموت قيل «ملك سبا وريدان وحضرموت» ثم ملكوا غيرها وكلما ملكوا بلداً أضافوا اسمه الى ألقابهم

وتختلف دولة حمير عن دولة سبا انها أقرب منها الى الدول الفاتحة فقد نبغ من ملوكها قواد فتحوا الممالك وحاربوا الفرس والاحباش وغيرها وتنتهي دولة حمير بذي نواس سنة ٥٢٥ م فكأنها حكمت ٦٤٠ سنة تقسم الى مدتين متساويتين تقريباً كان ملوكها في المدة الاولى يلقبون « ملوك سبا وريدان » وهم ملوك الطبقة الاولى من حمير. وتنتهي هذه المدة بضم حضرموت الى ألقابهم . وبضمها تبتدىء المدة الثانية واسم الملك فيها « ملك سبا وريدان وحضرموت » وأصحابها ملوك الطبقة الثانية من حمير . وأول من نال هذا اللقب « شمر يرعش » فهو آخر ملوك الطبقة الاولى وأول ملوك الطبقة الثانية من حمير

بقي علينا النظر في من هو أول ملوك حمير ولا يمكننا الاعتماد في ذلك على روايات العرب لاختلاطها وتخالفها ولم تدلنا الآثار المنقوشة على شيء صريح بهذا الشأن فما لنا الا الجنوح الى الاستنتاج مما قرأناه فيها من أسماء الملوك وأنسابهم وتواليهم وتخمين مدات حكمهم ولا يخفى ما في ذلك من أسباب الخطأ لان كثيراً من تلك الاسماء لملوك تعاصروا أو كانوا اخوة من اب واحد

على ان ملوك الطبقة الاولى من حمير الذين عثروا على أسمائهم في الآثار المنقوشة أقل عدداً مما تقتضيه المدة التي قدروها لتلك الطبقة من دولة حمير . فاضافوا اليها أسماء وجدوها على النقود وغيرها فاجتمع لديهم ٣٠ — ٤٠ اسماً وفيهم كثيرون من المعاصرين او الاخوة وليس لاحدهم تاريخ مذكور يرجع اليه أو يقاس عليه فرجع الباحثون الى

(١) Sprenger, 78

ما عرفه اليونان من ملوك هذه الدولة ومقارنته بما وجدوه على الآثار . وقد فعل ذلك غلازر في كتابه « الاحباش »[١] فوجد ملكين ذكرهما بريبلوس في أواسط القرن الاول للميلاد احدهما اسمه « كربايل Charibael ملك سبا وريدان » والآخر «ايليازوس Eleazos ملك حضرموت» . ورأى من الجهة الاخرى ان بين أسماء ملوك هذه الطبقة على الاثار ملكين أحدهما اسمه « كرب ايل » والاخر « اليعزو باليط » فترجح له انهما نفس الملكين الذين ذكرهما بريبلوس وهما معاصران له أي من أهل أواسط القرن الاول الميلاد . فجعل هذا التاريخ نقطة متوسطة يقاس عليها ويقابل بها فتوصل الى تحقيق أزمنة عدة ملوك من الطبقة الاولى الحميرية فاضفناها الى ما حققه في جغرافيته[٢] ووصلنا بينهما بما استنتجناه من مطالعاتنا الخصوصية وفي جملتها اننا عثرنا على ملك عربي ذكره استرابون في أثناء كلامه عن حملة اليوس غالوس على بلاد اليمن وسماه Elisaros اليزاروس يشبه أن يكون محرفاً عن « اليشرح » ويوافق ذلك ورود هذا الاسم لملك تولى سبا نحو ذلك الزمن أي في أثناء تلك الحملة قبيل تاريخ الميلاد . فرتبنا ملوك حمير بحسب مدات حكمهم وتماقبهم كما في الجدولين الانيين كل جدول لطبقة :

الطبقة الاولى من ملوك حمير

ملوك سبا وذو ريدان من سنة ١١٥ ق م – ٢٧٥ ب م

اسم الملك	مدة الحكم
علهان نهفان	١١٥ — ٨٠ ق م
شمرا وتار بن علهان نهفان	٨٠ — ٥٠ »
يريم ايمن » » »	
فرع ينهب	٥٠ — ٣٥ »
اليشرح يحضب (Elisaros) وابنه يزل بيين	٣٥ — ١٥ »
اليشرح يحمل بن يزل بيين	١٥ — ٥ ب م
وتار	٥ — ٣٥ »
كرب ايل وتار يوهنعم (وهو Charibael بريبلوس)	٣٥ — ٧٠ »
ذمر علي ذرح بن كرب ايل	٧٠ — ٩٥ »
هلك امير » » »	٩٥ — ١٢٠ »

(١) Glaser, Abb. 33 (٢) Glaser, Geo. II. 542

ذمر علي بين	١٢٠ – ١٤٥ ب م
وهب ايل يحز	١٤٥ — ١٧٠ »
(ملوك مجهولون)	١٧٠ — ٢٥٠ »
ياسر انعم	٢٥٠ — ٢٧٥ »

الطبقة الثانية من ملوك حمير

ملوك سبا وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٢٧٥ ـ ٥٢٥ م

اسم الملك	مدة الحكم
شمر يرعش	٢٧٥ — ٣٠٠ م
ذو القرنين او افريقس (الصعب)	٣٠٠ ٣٢٠ »
عمرو زوج بلقيس	٣٢٠ — ٣٣٠ »
بلقيس وتسمى الفارعة	٣٣٠ — ٣٤٥ »
الهدهاد اخوها	٣٤٥ — ٣٧٤ »
ملكيكرب يوهنعم (ينعم)	٣٧٤ — ٣٨٥ »
ابو كرب اسعد بن ملكيكرب	٣٨٥ — ٤٢٠ »
حسان بن اسعد	٤٢٠ — ٤٢٥ »
شرحبيل يعفر بن اسعد	٤٢٥ — ٤٥٥ »
» ينوف	٤٥٥ — ٤٧٠ »
معدي كرب ينعم وابنه لحيعة	٤٧٠ — ٤٩٥ »
مرثد اللات ينوف	٤٩٥ — ٥١٥ »
ذونواس (ويسميه اليونان دميانوس) (١)	٥١٥ — ٥٢٥ »
ذو جدن (لم يكن له حكم)	٥٢٥ — ٥٣٣ »

فترى هذا الجدول يخالف ما ذكره العرب من بعض الوجوه ولكنه اقرب الى الصواب لانه مبني على التحقيق ومقابلة ما كتبه العرب واليونان وما نقش على الآثار. ولعل السبب في زيادة عدد ملوك حمير عند العرب عما أثبتناه هنا انهم ادخلوا في عداد أولئك الملوك اقيالا او اذواء اشتهروا في اثناء تلك الدولة فحسبوهم منها وادخلوهم في عداد ملوكها

واذا امعنت النظر رأيت الطبقة الثانية من ملوك حمير تقابل دولة التبابعة في كتب

(١) Sharpe, II. 352

العرب . لان العرب يشترطون في التبابعة ان تكون حضرموت والشحر في سلطتهم [١]
وهذا هو الواقع في ملوك الطبقة الثانية كما رأيت . اما الاولى فتقابل ما قبل التبابعة عند
العرب وان اختلفت الاسماء والازمنة ويسمونهم حمير وعاصمتهم ظفار

اعمال دولة حمير

لا مشاحة في ان هذه الدولة أقرب الى الدول الفاتحة من دولتي سبا ومعين
سابقتيها ولكن العرب بالغوا في وصف فتوحها الى ما يفوق طور التصديق وليس
لدينا من اخبار الفتح غير ما كتبه العرب ولذلك فلا سبيل الى تحقيقه او اصلاحه الا
اذا اكتشف النقابون آثاراً أخرى فيها نصوص تاريخية يمكن الرجوع اليها في هذا
الاصلاح . وأشهر ملوك حمير على رواية العرب شمر يرعش ذكروا انه وطيء ارض
العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنها وخرَّب مدينة الصغد وراء جيحون فقالت
العجم « شمركند » أي شمر خرب وبني مدينة هنالك سميت باسمه وعربها العرب
فصارت سمرقند . وقال بعضهم انه ملك بلاد الروم [٢] هذا ما رواه العرب ولا نقول
انه مستحيل على ملك عربي فان العرب اتوا ما هو أعظم من ذلك كثيراً ولكننا
نستبعد حدوثه لاننا لا نجد في تواريخ الامم المعاصرة ما يؤيده فان مثل هذه الفتوح
لو وقعت لا يعقل ان يهمل ذكرها ملوك العراق وخراسان والترك والروم وغيرهم .
ومن مشاهيرهم افريقس ذو القرنين ويسمونه الصعب وهو عندهم فاتح بلاد المغرب
افريقية وناقل قبائل العرب اليها .

ومنهم أسعد ابو كرب زعموا انه غزا اذربيجان واتي الترك وهزمهم وقتل وسبى
ثم رجع الى اليمن وهابته الملوك وهادنه ملوك الهند ثم رجع لغزو الترك وبعث ابنه
حساناً الى الصغد وابنه يعفر الى الروم وابن أخيه شمر ذي الجناح الى الفرس وان
شمراً اتي كيقباد ملك الفرس فهزمه وملك سمرقند وقتله وجاز الى الصين فوجد
أخاه حساناً قد سبقه اليها فأثخنا في القتل والسبي وانصرفا بما معهما من الغنائم الى
أبيهما . وبعث ابنه يعفر الى القسطنطينية فتلقوه بالجزية والاتاوة فسار الى رومة
وحصرها ووقع الطاعون في عسكره فاستضعفهم الروم ووثبوا عليهم فقتلوهم ولم يفلت
منهم أحد ثم رجع الى اليمن وزعموا انه ترك في بلاد الصين قوماً من حمير وانهم بها
لهذا العهد الخ [٣]

والقاريء يدرك لاول وهلة حظ هذه الاقوال من الصحة اذ يتبين له بعدها عن
المعقولات كأن ابطال هذه الحوادث من الجان وكأن الصين والهند على ساعات من اليمن

(١) المسعودي ٢٠٨ ج ١ (٢) ابن خلدون ٥٢ ج ٢ (٣) ابن خلدون ٥٣ ج ٢

وكان أهلها حشرات لا يستطيعون دفاعاً . وناهيك بالاتاوة التي وضعوها على القسطنطينية وحصار رومة والمدينتان في أبان تمدنهما ولم تعلما بهذه الفتوح

والى اسعد هذا ينسبون غزوات كثيرة واعمالا عظيمة منها انه غزا المدينة (يثرب) وكسا الكعبة وانه اول من تهود من العرب في حديث لا محل لذكره [1] وقد يكون على اجماله صحيحاً لقربه من المألوف . اما تتمة الغرائب من اخباره فهي انه عاش عمراً مضاعفاً قال بعضهم ١٢٠ سنة وقال آخرون ٣٢٠ سنة

وقس على ذلك ما ينسبونه الى حسان بن تبع اسعد الذي ذكروا انه استباح طسماً ونصر جديساً كما اشرنا الى ذلك في كلامنا عن هاتين الامتين . ومثله تبع بن حسان وغيره مما لا فائدة من الخوض فيه

العصر الحبشي في اليمن

الاحباش واليمن

لا يعرف العرب من سيادة الاحباش على اليمن الا فتحها في ايام ذي نواس اوائل القرن السادس للميلاد وقلما ذكروا علاقة بين الامتين قبل ذلك . والواقع ان العلائق بين البلدين قديمة جداً والقدماء يعدون اليمن والحبشة بلداً واحداً حتى ذهب سالت وريتر وغيرهما من علماء التاريخ ان الحبشة مهد الساميين واصل منبتهم . [2] وقد اشرنا الى ذلك قبلا . وذهب آخرون الى ان الاحباش عرب هاجروا من اليمن الى الحبشة قبل زمن التاريخ استدلوا على ذلك من تشابه اللسانين الحبشي والحميري وأحرف الكتابة تكاد تكون واحدة عندهما

وقد رأيت اننا نعد دولة سبأ حبشية المنبت نزح آباؤها من اليمن قبل الميلاد بعدة قرون . وظلت العلائق متبادلة بين البلدين بعد ذلك وقد استدلوا من اثر سيأتي ذكره عثر عليه الرحالة بنت في « يحا » بالحبشة انه كتب في القرن السادس قبل الميلاد [3] وصاحب ذلك الاثر من مهاجري اليمن الى الحبشة — كل ذلك من قبيل الظنون التي لم تتأيد بالنصوص التاريخية المدونة في الكتب او المنقوشة على الاحجار ولعلهم يعثرون في المستقبل على ما يؤيدها او ينقضها

(١) ابن خلدون ٥٤ ج ٢ (٢) Renan, I. 306 (٣) Glaser, Abb. 13

على اننا نستفيد من كتب اليونان والسريان وغيرهم ان الاحباش اخذوا يستخفون بالحميريين ويطمعون بيلادهم من اوائل النصرانية على اثر تضعضع السبأيين وذهاب دولتهم وتفرق كلمتهم والاحباش يومئذ في ابان سطوتهم وعاصمتهم « اكسوم » .
والمظنون ان جماعة من الاحباش احتلوا شواطىء اليمن الجنوبية عند مهرا في القرن الاول قبل الميلاد ومعهم الجند يترقبون فرصة يثبون بها على الحميريين كأن لهم عليهم ثأراً او لعلهم فعلوا ذلك طمعاً بثروة تلك البلاد ومعادنها او للاستئثار بما بقي من تجارتها وقد اتيح لهم ذلك في اوائل النصرانية

واقدم اخبارهم الصحيحة في هذا الشأن ان نجاشياً [1] حمل على شواطىء اليمن في اوائل القرن الثاني للميلاد [2] فرأوا ذلك على اثر منقوش في ادوليس (زيلع). ويؤخذ من مصادر اخرى ان نجاشياً آخر حمل عليها في اواخر القرن الثالث ففتح بعض اليمن وبعض تهامة وسهل العلائق التجارية بينهما . فتعاون الحميريون عليه وغلبوه على ما في يديه واخرجوه من بلادهم . ولم تمض خمسون سنة اخرى حتى عاد الاحباش ولم يقنعهم ما فتحوه حديثاً فاكتسحوا اليمن كلها وذكروا خبر ذلك الفتح على آثارهم ونقشوا اسماءهم على ابنية اكسوم باليونانية ولقبوا انفسهم «ملك اكسوم وحمير وريدان واثيوبيا وسبا وزيلع وغيرها » وعثر النقابون على اثر باللغة الحبشية نحو ذلك الزمن تسمى به ملك الحبشة « ملك اكسوم وحمير وريدان وسلحين » [3]

وتوالت الوقائع بين الاحباش وحمير في اواسط القرن الرابع للميلاد جرت فيها معارك كانت الحرب فيها سجالا وممن واقف الحميريين من ملوك الاحباش ملك اسمه « العلى اسكندي » حارب الهدهاد ملك حمير سنة ٣٤٠ م وخلفه العلى عميدة (حكم من سنة ٣٤٠ — ٣٤٨ م) حارب الهدهاد وبلقيس وفتح اليمن سنة ٣٤٥ بمساعدة قيصر الروم قسطنطيوس رغبة في نشر النصرانية وكانت قد دخلت الحبشة من عهد قريب على يد كاهن رومي اسمه فرومنتوس ساموه اسقفاً عليها سنة ٣٥٤ في اكسوم

وتولى الحبشة واليمن بعد العلى عميدة اولاده وهم عيزاناس (اذينة) حكم من سنة ٣٤٨ — ٣٦٥ م وسازاناس (شاذان) من ٣٥٠ — ٣٧٤ م [4] وهو آخر من تولى اليمن من هذه العائلة فعادت الى اصحابها الحميريين وتولاها ملكيكرب يوهنعم سنة ٣٧٤ وما زالت

---

(١) النجاشي تعريب نجوس بالحبشية اي ملك (٢) Müller, Burg. II. 33
(٣) Crimme, 23 و Müller, II. 33 (٤) Glaser, Geo. 540 - 543

في قبضة الحميريين حتى فتحها الاحباش المرة الاخيرة سنة ٥٢٥ التي عرفها العرب وذكروها

فتح الاحباش الاخير

١ ــ ما يقوله العرب عنه

اختلف الرواة في سبب هذا الفتح فالعرب ينسبونه الى اضطهاد اليهود للنصارى وكانت اليهودية قد دخلت اليمن على يد احد ملوك حمير ورغب الناس فيها فانتشرت في اليمن كلها وكانت دولة الروم قد تنصر قياصرتها واخذوا يهتمون بنشرها وتأييدها ويستعينون بها على نشر نفوذهم وتوسيع دائرة تجارتهم فارسل بعضهم فرومنتوس الذي ذكرناه الى الحبشة فنشر النصرانية فيها ثم اخذت تتسرب الى جزيرة العرب وخصوصاً نجران وعدن وارسلوا اليهما الكهنة والرهبان وبنوا في نجران مزاراً او حجاً عرف بكعبة نجران فيه القسيسون والرهبان

وافضت حكومة حمير في اوائل القرن السادس للميلاد الى ملك منهم اسمه ذو نواس والروم يسمونه دميانوس كان شديد التعصب لليهودية فغزا اهل نجران فحصرهم ثم انه ظفر بهم فخدد لهم الاخاديد وعرض عليهم اليهودية فامتنعوا فحرقهم في النار وحرق الانجيل وهدم بيعتهم ثم انصرف الى اليمن وافلت منه رجل اسمه دوس ثعلبان على فرس ركضه حتى اعجزهم في الرمل ومضى الى قيصر الروم يستغيثه ويخبره بما صنع ذو نواس بنجران واهلها فاعتذر القيصر ببعد الشقة ولكنه كتب الى ملك الحبشة يحرضه على نصرته وفتح اليمن . فلما وصل كتاب القيصر الى النجاشي امر احد قواده ارباط ان يخرج معه فينصره فخرج ارباط في سبعين الفاً من الحبشة وقوَّد على جنده قواداً من رؤسائهم واقبل بفيله وكان معه ابرهة بن الصباح وكان في عهد ملك الحبشة الى ارباط « اذا دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها واخرب ثلث بلادها وابعث اليَّ بثلث نسائها فخرج ارباط في الجنود فحملهم في السفن في البحر وعبر بهم حتى ورد اليمن وقد قدم مقدمات الحبشة فرأى اهل اليمن جنداً كثيراً فلما تلاحقوا قام ارباط في جنده خطيباً فقال « يا معشر الحبشة قد علمتم انكم لن ترجعوا الى بلادكم ابداً هذا البحر بين ايديكم ان دخلتموه غرقتم وان سلكتم البر هلكتم واتخذتكم العرب عبيداً وليس لكم الا الصبر حتى تموتوا او تقتلوا عدوكم » فجمع ذو نواس جمعاً كثيراً ثم سار اليهم فاقتتلوا قتالا شديداً فكانت الدولة للحبشة فظفر ارباط وقتل اصحاب ذي نواس وانهزموا في كل وجه. فلما تخوف ذو نواس ان يؤسر ركض

فرسه واستعرض به البحر وقال « الموت في البحر احسن من الاسر . ثم اقحم فرسه لجة البحر فضى به فرسه وكان آخر العهد به » ثم خرج اليهم ذو جدن الهمداني في قومه فناوشهم وتفرقت عنه همدان فلما تخوف على نفسه قال ما الامر الا ما صنع ذو نواس فاقحم فرسه البحر فكان آخر العهد به . ودخل ارباط اليمن فقتل ثلثاً وبعث ثلث السبي الى ملك الحبشة وخرب ثلثاً وملك اليمن وقتل اهلها وهدم حصونها

٢ ـ ما يقوله اليونان

ذلك ما يرويه العرب عن اسباب الفتح واما اليونان فينسبونه الى سبب تجاري مالي وذلك ان اليمنيين لما تضعضت احوالهم بتقهقر دولتهم وخروج مقاليد التجارة من ايديهم كان الروم قد اخذوا ينشرون نفوذهم في الشرق بواسطة النصرانية وتيسر لتجارهم المرور في بلاد اليمن بين خليج العجم والبحر الاحمر يحملون تجارة الهند الى الحبشة ثم الى مصر والعرب يشق ذلك عليهم ولا حيلة لهم في منعهم فجعلوا يضايقونهم في تسيارهم

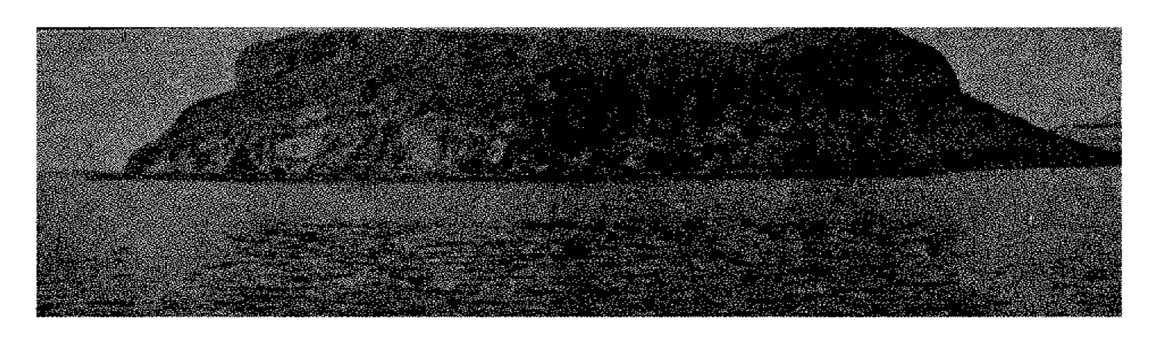
واراد الفرس في اثناء ذلك ان يعرقلوا مساعي الروم اعدائهم القدماء في متاجرهم عن طريق جزيرة العرب فنزل جند منهم بشواطىء خليج العجم من جزيرة العرب فارسل القيصر يوستين الى بني حمير ان يردوا الفرس عنهم وبعث من الجهة الاخرى الى الاحباش ان يأخذوا بيد تجار الروم في ذلك السبيل . وكذلك فعل يوستنيان لما تولى[١] ولم يطل عهد الوفاق فعاد العرب الى معارضة قوافل الروم — قال ثيوفانس « واتفق في اوائل القرن السادس ان الحميريين تعدوا على تجار الروم في اثناء اجتيازهم اليمن بتجارتهم الهندية وقتلوا جماعة منهم فتوقفت حركة التجارة فشق ذلك على الاحباش فتجندوا لفتح الطريق وقطعوا البحر الاحمر تحت راية ملكهم هداد وحاربوا الحميريين فقتلوا ملكهم دميانوس (ذي نواس) وجددوا المعاهدة مع قيصر القسطنطينية يوستنيان على شرط ان يتنصر اهل اكسوم وارسلوا الى الاسكندرية وفداً يطلبون قسيساً يعمدهم ويعلمهم فارسل اليهم رجلا تقياً عاقلا اسمه يوحنا صار بعدئذ اسقفاً على اكسوم[٢]

وبعد ان اقتص الاحباش من الحميريين انسحبوا الى بلادهم فعاد الحميريون الى ما كانوا عليه وعادت التجارة الى الانقطاع . فاعاد اليسباس ملك الحبشة الكرة وفتح بلاد اليمن فتحاً بحملة كبيرة حارب بها الحميريين وغلبهم على بلادهم وولى عليها اميراً مسيحياً من امرائه اسمه اسيافيوس واوعز اليه ان يحمل اهلها على النصرانية استنجاداً بالدين على السياسة

(١) Sharpe, II. 353 (٢) Sharpe, II. 352

واستعان باسقف اسمه جريجنتوس كان خطيباً مفوهاً وعالماً كبيراً على ان يبذل جهده في هذا السبيل . وعقد مجلساً جمع فيه بين هذا الاسقف وحبر يهودي اسمه هربان وأمرهما بالمناقشة في الدين فتناقشا وكتب الاسقف بعد ذلك كتاباً نسب فيه الفوز لنفسه وذكر أعجوبة حدثت في اثنـاء الجدال عمي بها كل الحاضرين من اليهود فصلى الاسقف والتمس شفاءهم فعادت اليهم ابصارهم فالخموا وتنصروا . ولم يطل حكم اسيافيوس على حمير لانهم ثاروا عليه وخلعوه فارسل اليسباس جنداً لاخضاعهم فانضم الجند الى العصاة فلما يئس الملك من اذلالهم قنع بعقد الصلح بينه وبينهم (١)

تلك هي اقوال اليونان عن اسباب ذلك الفتح ولعلها اقرب الى الواقع لانها مأخوذة عن مصادر كتبها أصحاب الشأن المعاصرون

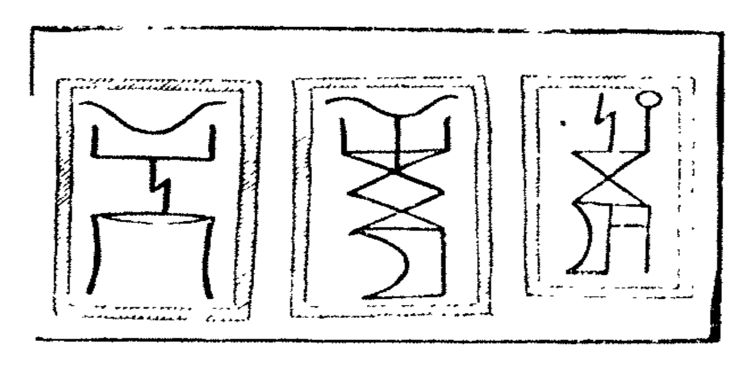


ش ٢٠ ـ حصن غراب

وعثر الضابط ولستد في شواطئ اليمن على مرتفع اسمه حصن غراب أو حصن الغراب عليه نقوش بالحميرية قرأها المستشرقون بعد ذلك فاذا فحواها « ان سميفع اشوى وأولاده . . . نقشوا هذا التذكار في حصن ماويجت (حصن غراب) لما رمموا أسوارهم وروايام ودروبهم في الجبال وتحصنوا فيه بعد ان فتحوا الحبشة وغلبوا أهلها وفتحوا طريق التجارة في ارض حمير وقتلوا ملـكها واقياله الحميريين والارحابيين في شهر حجتين سنة ٦٤٠ » (٢) فاذا كان المراد بالسميفع واولاده قواد حملة الاحباش فيكون ذلك اقرب الى ما ذكره اليونان لان السميفع يشـبه لفظ اسيافيوس المتقدم ذكره

لـكنهم قرأوا على آثار اليمن اسم القائد الحبشي كما ذكره العرب « ابرهة » مكتوباً في خرطوش بالخط الحميري كما كانت الفراعنة يكتبون اسماءهم وبجانب اسم ابرهة خرطوش باسم أراحميس زبيمان الملك الذي أرسله (انظر ش ٢١)

(١) Sharpe, II. 354 (٢) Bent, 249



ش ٢١ - خرطوش ابرهة واراحميس زبيمان

وللتوفيق بين الروايتين ينبغي ان نعتبر لكل من ابرهة وملكه اسمين أو اسماً ولقباً أو لعل هنالك التباساً بين قائدين أو ملكين . وقد فصَّل العرب تمرد الاحباش المشار اليوم مع تبديل في الاسماء قالوا ان بعض قواد ارباط نقموا عليه تمييز بعضهم بالعطاء او الغنائم فاجتمعوا بقيادة احدهم « ابرهة » وحاربوه وتولى ابرهة مبارزته وغلبه وتولى حمير قيادة الجند مكانه وظل في ذلك المنصب عشرين سنة وخلفه ابنه يكسوم ثم اخوه مسروق بن أبرهة

وعمل الاحباش في أثناء حكمهم على نشر النصرانية في حمير فبنى ابرهة في صنعاء كنيسة كبيرة سماها « القليس » - تحريف اسم الكنيسة في اليونانية - وبالغ في تزيينها واتقانها فنقشها بالذهب والفضة والزجاج والفسيفساء وألوان الاصباغ وصنوف الجواهر وجعل فيها خشباً له رؤوس كرؤوس الناس ولككها بانواع الاصباغ وجعل على خارج القبة برنساً فاذا كان يوم العيد كشف البرنس عنها فيتلألأ رخامها مع ألوان الاصباغ حتى تكاد تلمع البصر . وكتب على بابها بالمسند « بنيت هذا لك من مالك ليذكر فيه اسمك وانا عبدك » (١)

دخول اليمن في حوزة الفرس

وملّ الحميريون سلطة الاحباش وكان في امراء حمير رجل من الاذواء اسمه سيف ابن ذي يزن استنجده قومه فسعى في انقاذهم من سلطة ذلك الاجنبي واشاروا عليه ان يستنصر قيصر الروم فاستنصره فردَّه فمضى الى كسرى فنصره بجند تحت قيادة رجل اسمه وهرز قهر الحبشة واخرجهم واحتل مكانهم وكتب الى كسرى يقول « اني قد ملكت للملك اليمن وهي ارض العرب القديمة التي تكون فيها ملوكهم » وبعث اليه بجوهر وعنبر ومال وعود وزباد وهي جلود لها رائحة طيبة . فكتب اليه كسرى يأمره ان يملك سيف بن ذي يزن ويقدم هو اليه فخلف سيفاً على اليمن. فلما خلا سيف باليمن

(١) ياقوت ١٧١ ج ٤

وملكها عدا على الحبشة فجعل يقتل رجالها ويبقر نساءها عما في بطونهن حتى افناها الا بقايا منها أهل ذلة وقلة فاتخذهم خولاً . فمكث على ذلك غير كثير وركب يوماً وتلك الحبشة معه ومعهم حرابهم يسعون بها بين يديه حتى اذا كان وسطاً منهم مالوا عليه فطعنوه حتى قتلوه (١) ولم يقم على الحميريين ملك حتى كان الاسلام ودخلوا في حوزة المسلمين . ومدة حكم الاحباش على قول العرب ٧٤ سنة منها ٢٠ سنة لارياط و٢٣ لابرهة و ١٩ ليكسوم و ١٢ لمسروق . وصارت عاصمة اليمن منذ فتحها الاحباش « صنعاء » والملك يجلس في قصر غمدان وقد نظم أمية بن ابي الصلت قصيدة يهنئ بها سيف بن ذي يزن يوم تغلبه — قال بمطلعها :

لا يطلب الثأر الا كابن ذي يزن ... في البحر خيم للاعداء أحوالا

دول اليمن الصغرى

١ – الاقيال والاذواء

تلك دول اليمن الكبرى من معين وسبا وحمير وقد عاصرتهم دول صغرى أو امارات رؤساؤها أصحاب القصور أو المحافد ويعرفون بالاذواء جمع « ذو » من قولهم ذو غمدان وذو سلحين وهم حكام البلاد الاصليون ومنهم نبغ الملوك الذين أسسوا الدول كما تقدم . ولا غرو اذا عجزنا عن معرفة تاريخ تلك الامارات الصغرى ونحن عن معرفة تاريخ الدول الكبرى عاجزون . ولكننا وقفنا على اسماء بعضهم مشتتة في الكتب ورأينا بعضها مجموعاً في القصيدة الحميرية والاذواء فيها طبقتان طبقة سماها الملوك المثامنة وهم ثمانية اذواء كانوا أقوياء ناهضوا حمير في أيام دولتهم على ما يظهر . والطبقة الثانية اذواء مستقلون . والاذواء المثامنة ضمنهم الشاعر في الابيات الآتية :

اين المثامنة الملوك وملكهم ... ذلوا لصرف الدهر بعد جماح
ذو تعلبان وذو خايل ثم ذو ... شجر وذوجدن وذو صرواح
أو ذو مغار بعد أو ذو جرفز ... ولقد محا ذا عثكلان ماح

وأما سائر الاذواء فاكبرهم ذو مراثد جد الناظم وهذا قوله فيهم :

أو ذو مراثد جدنا القيل ابن ذي ... شجر ابو الاذواء رحب الساح
وبنوهم ذو فين ذو سفر وذو ... عمران أهل مكارم وسماح

(١) الاغاني ٧٥ ج ١٦

والقيل ذو ريان من أبنائه … راح الحمام اليه بالرواح
ام اين ذو الرحين أو ذو يرحم … سقيا بكاس للمنون ذباح
ام اين ذو بهر وذو يزن وذو … نوش وذو نوح وذو الانواح
ام اين ذوفيقان او ذو اصبح … لم ينج بالامساء والاصباح
ام اين ذو الشمبين اصبح صدعه … لم يلتئم لمثقف الاقداح
او ذو حوال حيل دون مرامه … او ذو مناح لم يبح بمراح
ام اين ذو غمدان أو ذو فائش … او ذو رعين لم يفز بفلاح
أوذوالكناس وذوالكلاع ويحصب … اضحوا وهم للنائبات اضاحي
ام اين ذو أفنان او ذو اقرع … أو ذو الجناح هزبر كل كفاح
أو ذو العبير وذو ذرانج خانه … دهر بعيد اليسر كالذلاح
ام اين ذو ينين ام ذو اعر … وبنو شراحيل وآل شراح
ام اين ذو ثاب وذو هكر وذو … نمر وذو ضر وذو المسراح
ام اين ذو غيمان أو ذو شودن الـ … لاهي ببيض في النساء ملاح
ام اين ذو شهران او ذو ماور … اضحت ديارهم بلا قداح
ام اين ذو فهد وشمال ابنه … فلقد عفاهم دهرهم بمتاح
ام اين ذو شحط وذو تبع معاً … او ذو ملاح لهو خير ملاح
ام اين ذو أوسان او ذو ماذن … ام اين ذو التيجان والابراح

أما الاقيال فهم صغار الملوك الذين يقتصرون على مملكة صغيرة كالمحفد الكبير أو مؤلفة من بضعة قصور وفيهم طائفة من العياهل أو الملوك لحضرموت وقد ذكر الحميري بعضهم بقوله :

وعياهل من حضرموت من بني … اجماد ذي الاشبا وآل صباح
والعز من جدن وابنا مرة … وبني شبيب والاولى من مناح
وبني الهزيل وآل فهد منهم … من كل هش بالندى مرتاح[١]

ناهيك ببيوتات اليمن وأهل الشرف والسؤدد ممن لم تكن لهم دولة ولكنهم كانوا هم والاذواء والاقيال يعترفون بسيادة ملوك حمير أو سبا مع استقلال كل منهم بشؤونه الداخلية كما كان شأن ملوك المسلمين في الاجيال الاسلامية الوسطى مع خلفاء بني العباس.

---

(١) Kremer, Him. Kasideh

او هم كلوك الطوائف في الدول الكبرى (١) فلم تخل اليمن من الاذواء حتى في ابان سيادة الدول الكبرى ولما ذهبت دولة حمير ودخلت اليمن في حوزة الاحباش ظل اولئك الاذواء أو الاقيال يتصرفون بشؤون انفسهم ولهم ثروة ونفوذ الى ما بعد الاسلام بقرن وبعض القرن (٢)

٢ – الجبأية والقتابية

هما أمتان تجاريتان من امم اليمن لم يعرفها العرب وانما ذكرهما اليونان حوالي تاريخ الميلاد في عرض كلامهم عن المعينيين والسبأيين قال بلينيوس « ان المر المعيني هو بالحقيقة غلة الجبأية والحضرموتية وكانت الاطياب على العموم تحمل للتجارة على ايدي الجبأيين وحدهم » فيدل ذلك على علاقة بينهم وبين المعينيين . ويرى غلازر ان الجبأية طائفة من المعينيين لانه وجد اسمهم بالحرف المسند مراراً بجانب اسم المعينيين بقرائن تدل على اشتراكهم في التجارة . ولم يكن الجبأيون دولة وانما هم عشيرة أو طائفة تشتغل بنقل التجارة لها زعيم كامير القبيلة . ويظن مولر ان الاسم مشتق من جبأ اي جمع الاطياب وجاء ذكرهم مرة وعليهم ملك منهم وقد اشتد ساعدهم وكانت تجارة افريقيا تنقل على يدهم وفرضتهم التي يختزنون بها بضائعهم « عقيل » وفي صفة جزيرة العرب للهمداني « جبأ مدينة المفاخر وهي لآل السكرندي من بني ثمامة آل حمير الاصغر » (٣)

اما القتابية فنسبتهم الى السبأيين مثل نسبة الجبأية الى المعينيين . وظنهم سبرنجر بني قضاعة عند العرب وخالفه مولر وغلازر . وبرهن مولر انهم طائفة سبأية قائمة بنفسها ووجد اسمهم على الآثار بالمسند « قتابان » ولعل سد قتاب الآتي ذكره من سدودهم وكانوا يقيمون في عقيل نحو القرن الثاني قبل الميلاد ثم جاءهم الجبأية واخرجوهم منها فاقاموا في تمناء فلحقهم الجبأية اليها واخرجوهم منها . وكان من امرائهم امير اسمه شحر يا ليل يوهرجب أي المثمر ويظن مولر ان القتابية بطن من السبأية خرجوا من ظفار بلاد حمير ودخلوا في حوزة السبأيين ثم نزحوا الى مأرب حتى تغلب عليهم الجبأية (٤)

٣ – القريون

وذكر استرابون امة عربية سماها جرهيين Gerrhae قال انهم اغنى العرب يقتنون

---

(١) حمزة ١٢٩ (٢) ابن خلدون ٢٤٣ ج ٢ (٣) الهمداني ٥٤

(٤) Müller, Burg. II. 71—78

الرياش الفاخر ويتمتعون بكل أسباب الرخاء والترف ويكثرون من آنية الذهب والفضة والفرش الثمينة ويزينون جدران منازلهم بالعاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة [1] وقال ايضاً ان مدينتهم جرّا Gerra او جرها واقعة في بقعة كثيرة الملح تبعد نحو ٢٠٠ ستادة عن البحر . وقال اغارسيدس انهم اغنى أهل الارض وسبب غناهم اتجارهم بغلال بلاد العرب والهند فيحملونها على القوافل الى الغرب أو بحراً الى بابل بفرضة جرّا ولهم سفن ضخمة تسير في الاوقيانوس الهندي ومراكب تسير في الانهر يصلون بها الى بابل . وقد يصعدون بها في دجلة الى مدينة اوبيس ومنها تنقل البضائع الهندية والعربية وتنتشر في بلاد مادي وارمينيا وما جاورها وان هذه الامة اصلها من بابل

ولم يذكر العرب أمة ولا دولة ولا عشيرة بهذا الاسم . وقد ذهب المستشرقون الى انها من امم البحرين على خليج فارس وان جرّا أو جرها هي الجرعاء فرضة من فرض تلك الناحية بالاحساء ولها ذكر في شعر العرب . ولكننا نرى أن الجرهيين هم أهل اليمامة تحريف القريين نسبة الى « قريَّة » اسم اليمامة القديم ويؤيد ذلك قدم سكان اليمامة وعمرانها القديم في ايام طسم وجديس كما تقدم . وفي كتب العرب ان ملك طسم كان عمليقاً والعماليق اصلهم من بابل

وهناك دول اخرى تولت بعض اقسام اليمن جاء ذكرها عرضاً في كتب اليونان او العرب لا نعرف من اخبارها شيئاً نثق بصحته كالدولة الحضرموتية التي ذكرها اليونان Chatramotitae [2] ولعلها التي يريدها العرب بقولهم « امة حضرموت » ويعدونها من العرب العاربة غير البائدة قال ابن خلدون « وأما حضرموت فمعدودة في العرب العاربة لقرب ازمانهم وليسوا من العرب البائدة لانهم باقون في الاجيال المتأخرة الا ان يقال ان جمهورهم قد ذهب من بعد عصورهم الاولى واندرجوا في كندة وصاروا من عدادهم فهم بهذا الاعتبار قد هلكوا وبادوا والله أعلم » ثم أتى بشيء من اخبارهم وذكر ملوكهم ذكراً يفتقر الى تمحيص فاكتفينا بالاشارة اليها [3] وقد رأيت ذكر عياهل حضرموت في القصيدة الحميرية

وقل نحو ذلك عما ذكره العرب عن حضورا وجرهم وغيرها سيأتي ذكر جرهم في أثناء كلامنا عن الطبقة الثالثة من العرب

---

(١) Strabon, III, 382 (٢) Strabon, III. 360 (٣) ابن خلدون ٣٠ ج ٢

تمدن اليمن القديم

اذا عددنا دولة حورابي عربية كما ترجح عندنا للاسباب التي ذكرناها في كلامنا عن هذه الدولة كان العرب من أسبق الامم الى التمدن لانهم أنشأوا الدول وشادوا المدن ونظموا الحكومة وسنوا الشرائع وبنو المدارس والهياكل ورقوا الهيأة الاجتماعية بترقية شأن المرأة منذ أربعة آلاف سنة وقد أتينا بامثلة من ذلك في صدر هذا الكتاب ونقتصر هنا على تمدن عرب اليمن الذين لا خلاف في عربيتهم . وقد رأيت انهم كانوا أهل تمدن ودولة لا تقل عن دول معاصريهم في اشور وفينيقية ومصر وفارس فابتنوا المدن وشادوا القصور والهياكل وتبسطوا في العيش مثلهم لكن تمدنهم لم يكن حربياً كتمدن الاشوريين والفرس والمصريين بل كان تجارياً كتمدن الفينيقيين فكانوا واسطة التجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب في عهد ذلك التمدن . فانقطعوا لاعمالهم وتفرغوا لاستثمار ارضهم بغرس الحبوب وحفر المناجم واصطناع العطور والاطياب وركوب القوافل في القفار والسفن في البحار لنقل السلع . وتوالت اجيال منهم كانوا هم وحدهم تجار العالم كما كان اخوانهم الفينيقيون في اجيال اخرى وقد تعاصروا حيناً وتعاونوا على ذلك دهراً طويلاً

على ان هذا التمدن لم يرد له ذكر في كتب العرب الا قليلا وانما استنتجناه مما كتبه اليونان عن التاريخ القديم وما اكتشفه العلماء من آثار المدن وما قرأوه على اطلالها من اخبارها . ونقسم الكلام في ذلك الى سبعة ابواب (١) النظام الاجتماعي (٢) الصناعة والزراعة والتعدين (٣) العمارة (٤) التجارة (٥) الحضارة (٦) الدين (٧) اللغة والكتابة

١ — النظام الاجتماعي

الدولة

لم يصل الينا شيء من احوال الحكومة ونظامها في تمدن اليمن الا ما قد يستفاد من قرائن الاحوال . والظاهر ان المعينيين مؤسسي ذلك التمدن في اليمن اتوا به من بابل او نسجوه على منوال تمدنها . فقد كانت المملكة عندهم مؤلفة من قصور او محافد يملك كلاً منها شيخ او امير هو صاحب القصر أو المحفد كما تقدم وفي المحفد هيكل او معبود . وينسب القصر الى صاحبه او الى ذلك المعبود . ونشأ من أصحاب تلك القصور او المحافد

رجال طمعوا بجيرانهم وأخضعوهم وأنشأوا الدول الكبرى كالمعينية والسبأية والحميرية .
على ان هذه الدول كلها تجارية فاذا مدت سلطتها الى خارج اليمن فللاستعمار التجاري
الا نادراً

رأس الحكومة عندهم الملك وهو مطلق الحكم لا يخرج من قصره في مأرب او غيرها من قصباتهم الا نادراً . وقلما كانوا يعتنون بتنظيم الجند لقلة الحروب والفتوح الا ما يدفعون به عن أنفسهم عند الحاجة أو لحماية القوافل في أسفارها وانما كانوا يجمعون الرجال لاستخدامهم في بناء المدن او القصور أو في انشاء السدود أو ترميمها . وكانت الحكومة عندهم وراثية تنتقل الى الابناء أو الاخوة الا حضرموت قبيل النصرانية فقد ذكر استرابون ان الملك فيها لا ينتقل من الاب الى الابن أو احد اهله وانما هو ينتقل الى أول مولود من الاشراف ولد في اثناء حكمه . وان من عاداتهم عند الاحتفال ببيعة الملك ان يرفعوا اليه قائمة باسماء نساء الاشراف الحوامل فيعين لكل منهن من يخدمها ويراقب وضعها ليعلموا السابقة الى الوضع وهل وضعت غلاماً أو جارية فاذا كان غلاماً أمر الملك بمن يعتني بتربيته واعداده الملك كما يربى ولاة العهد اليوم [١]

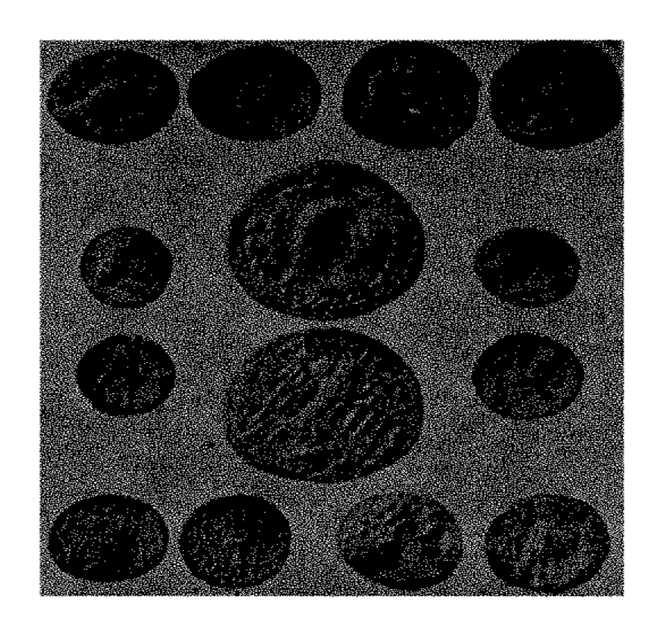
وكان لملوكهم ألقاب ذكرنا امثلة منها بجانب اسمائهم مثل ينيع وريام وصديق في الدولة المعينية وبيين وينوف ووتار في الدولة السبأية مثل ألقاب خلفاء المسلمين في صدر دولتهم كالفاروق والصديق والولي وألقاب العباسيين كالمنصور والرشيد والمأمون وغيرهم

وقد ضرب اليمنيون نقوداً نقشوا عليها صور الملوك وأسماءهم وأسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المسند وزينوها برموز سياسية أو اجتماعية كصورة البومة أو الصقر أو رأس الثور رمز الزراعة والفلاحة أو صورة الهلال وهو رمز ديني عندهم . وبجانب تلك الرموز كتابة بالقلم المسند كالخراطيش . ومن هذه النقود مجموعة حسنة في المتحف الادبي في فينا [٢] هذه امثلة منها (انظر ش ٢٢)

ويؤخذ من صورهم على النقود التي وصلت الينا ان ملوك اليمن كانوا يضفرون شعورهم جدائل يرسلونها على اقفيتهم او على جانبي رؤوسهم أو خديهم ويظهر انهم لم يكونوا يرسلون لحاهم ولا شواربهم لاننا لم نجد لها صورة على النقود ولا غيرها من الصور التي اكتشفوها في اليمن حتى الآن . فهم يشبهون المصريين أو الاثيوبيين من هذا القبيل اكثر مما يشبهون الاشوريين . وتلك الآثار من بقايا الدولة السبأية او الحميرية دون المعينية . وذلك يؤيد قولنا ان أصل السبأيين من الحبشة

---

(١) Strabon, III. 360 (٢) Müller, Südar. 67-77



ش ٢٢ — امثلة من نقود السبأيين في اليمن

وكانوا يركبون الافراس أو المركبات تجرها الخيول او الافيال ولا سيما بعد اختلاطهم بالاحباش على عهد الدولة الحميرية . وقد ذكر ثيوفانس خبر الوفد الذي أرسله يوستين قيصر القسطنطينية في اوائل القرن السادس للميلاد الى ملك حمير ورئيس الوفد اسمه يوليانوس قال انه رأى الملك واقفاً على مركبة يجرها أربعة افيال وليس عليه من الالبسة الا مئزر محوك بالذهب حول حقوية وأساور ثمينة في ذراعيه يحمل بيده ترساً ورمحين وحوله رجال من حاشيته وعليهم الاسلحة يتفننون باطرائه وتفخيمه . فلما وصل السفير وقدم له كتاب القيصر تناوله الملك وقبله ثم قبل السفير نفسه وقبل الهدايا التي حملها وفحوى الكتاب ان يرسل رجاله لدفع الفرس عن حدود بلاده ويحفظ طريق التجارة مفتوحاً لتجار الاسكندرية كما تقدم فوعد السفير انه فاعل ذلك (١)

الامة

كانت الامة في دول اليمن مؤلفة من أربع طبقات او طوائف (١) الجند المسلح لحفظ النظام وحماية القلاع وحراسة القوافل (٢) الفلاحون لزراعة الارض واستغلالها (٣) الصناع (٤) التجار . ولكل طائفة حدود لا تتعداها ولا ينتقل أحد منها الى سواها

(١) Sharpe, II. 345

وذكر استرابون ضرباً من الاشتراكية عند اولئك العرب غريباً في بابه . فبعد ان اورد اشتراك كل عائلة بالاموال والمتاع بين أفرادها وان رئيسها أكبر رجالها سناً قال « والزواج مشترك عندهم يتزوج الاخوة امرأة واحدة فمن دخل منهم اليها اولا ترك عصاه بالباب والليل خاص بأكبرهم وهو شيخهم وقد يأتون امهاتهم . ومن تزوج من غير عائلته عوقب بالموت . كان لاحد ملوك العرب ابنة بارعة في الجمال لها ١٥ أخاً كل واحد منهم يهواها حتى ملتهم واحتالت على منعهم بعصي اصطنعتها تشبه عصيهم وكان لكل منهم عصا عليها علامته . فكانت اذا خرج أحدهم من عندها حمل عصاه ومضى فتضع هي مكانها العصا التي اصطنعتها على مثالها فيتوهم سائر الاخوة انه لا يزال عندها وقد يجيء أحدهم يتفقد الباب ولما يرى العصا بجانبه يرجع فتبدل العصا الاولى بعصا مثل عصاه وهكذا . فاتفق مرة ان الاخوة كانوا جميعاً في ساحة ورأى أحدهم بباب اخته عصا وليس من اخوته أحد غائباً فظن فيها السوء فشكاها الى ابيها ولما اطلع على عذرها برأها »[1] هذه حكاية استرابون ولم نذكرها الا لغرابتها ولا نعلم مقدار ما فيها من الصحة

---

٢ – الصناعة والزراعة والتعدين

١ — الصناعة

ليست جزيرة العرب بلداً صناعياً وانما صناعتهم تحضير بعض أصناف التجارة كالبخور واللبان والطيوب وغيرها وكان ذلك مشهوراً عنهم بين الامم القديمة لا يشاركهم فيه أحد قال هيرودوتس « وبلاد العرب فيها وحدها البخور والمر والقرفة والدارصيني واللاذن والعرب يجنون كل هذه الاشياء بتعب جزيل الا المر . ولاجتناء البخور يحرقون تحت الاشجار التي تولده صمغاً يسمى ميعة يأتي به الفينيقيون الى الاغارقة فيحرقون هذا الصمغ تنفيراً لنوع من الحيات الطيارة التي تأوي الى تلك الاشجار ولا تذهب منها الا بدخان الميعة . اما القرفة فلما يذهبون لجنيها يغطون ابدانهم ووجوههم الا الحدق بجلود الثيران والماعز . والقرفة تنبت في بحيرة قليلة المياه تسرح حولها حيوانات كالخفافيش تصيح صياحاً هائلاً وهي شديدة الاذى فيتقي العرب أذاها بهذه الجلود ريثما يجنون القرفة . وأما الدارصيني فيجنى بطريقة أعجب من الاولى والعرب انفسهم لا يعرفون من اين يأتي . ويزعم البعض انه

---

(١) Strabon, III, 389

ينبت في البلاد التي تربى بها باخوس . وان طيوراً تحمل عيدان الدارصيني لتبني بها اعشاشها مع الطين في جبال وعرة بعيدة عن المدن لا يستطيع الانسان الوصول اليها . فالعرب يقال انهم يحتالون في الحصول على هذه العيدان بقطع من لحوم البقر او الحمير يضعونها في أقرب مكان من العش فيأتي الطير ويحملها الى فراخه وحالما يضعها في العش تثقله فيسقط فيتناول العرب عيدانه ويتجرون بها . اما اللاذن فطريقة جنيه اعجب من هذه لانهم يجدونه في لحى التيوس والاعناز كالعفن الذي يتولد على الخشب فيدخلونه في تركيب طيوب كثيرة والعرب يتطيبون باللاذن خصوصاً وبلاد العرب زكية الرائحة حيثما سرت . وفيها نوعان من الغنم أحدهما ذيله يزيد طوله على ثلاثة اذرع اذا ارسلوه انسحب وراء الغنم وتقرح . والنوع الآخر عرض ذيله ذراع »[1]

٢ — الزراعة

ومن قبيل الاعمال الصناعية ايضاً الزراعة ومن يجوب بلاد العرب حتى يأتي حيث كانت مدائن معين وسبا وحمير وغيرها من الدول القديمة لا يرى الا رمالاً محرقة وجبالاً جرداء فيستغرب ما يسمعه عن ثروة تلك الامم وسعة سلطانها . والحقيقة ان تلك البادية المحرقة كانت على عهد ذلك التمدن بساتين وغياضاً فيها الاغراس من الاشجار والرياحين والحنطة والازهار . وكانت الزراعة في رقي حسن مع مشقة الري في بلاد لا نيل فيها ولا فرات وانما هي تسقى من السيول في الشتاء فاذا اقبل الصيف شحت المياه ويبس الزرع فبلغ من رغبتهم في العمارة وعلو همتهم انهم انشأوا سدوداً كالجبال يحجزون بها المياه في الاودية حتى ترتفع ويسقوا بها المرتفعات يصرفون الماء اليها من نوافذ حسب الحاجة كما يفعلون بخزانات هذه الايام . والعرب اول من اصطنع الخزانات وهي السدود اعظمها سد مأرب وسنذكرها في الكلام على العمارة

وترى في الشكل (٢٣) صورة رجل من أهل اليمن يحرث الارض بالثيران وفوق الصورة كتابة بالمسند

وبلاد سبا ذكر استرابون انها اخصب بلاد العرب وذكر من محصولاتها المر والبخور والكبش قرنفل والبلسم وسائر العطريات فضلا عن النخيل والغاب . ووصف الهمداني وادي ضهر باليمن وقد شاهده شهادة عين فذكر فيه نهراً عظيماً يسقي جنبتي الوادي وعليهما من الاعناب نحو عشرين نوعاً قال « وفيه اصناف المضاه من الخوخ

(١) هيرودوتس ٢٤٠ — ٢٤٢



ش ٢٣ ـ فلاح يمني يحرث الارض

الحميري والفارسي والخلاسي والتين والبلس والكمثرى الذي ليس في الارض مثله يقول ذلك من يفد على صنعاء من الغرباء والاجاص والبرقوق والتفاح واللوز والجوز والسفرجل والرمان »

٣ ـ التعدين

ومن قبيل الصناعة أيضاً التعدين اي استخراج المعادن من بطن الارض . وقد اشتهرت بلاد العرب بمعادنها وجواهرها عند القدماء وان ظهر ذلك غريباً الآن لتقلب الاحوال وتحول الازمان ولكن التاريخ اصدق شاهد على ما كان في جزيرة العرب من الثروة في جوفها فضلاً عن سطحها . كان فيها كثير من مناجم الذهب والفضة والحجارة الكريمة وكان ذلك من أهم أسباب طمع الفاتحين فيها في ذلك العهد . وقد شبهها بعضهم بكلفورنيا هذا الزمان لكثرة مناجمها . وأقدم هذه المناجم في بلاد مديان ولها شهرة واسعة في التاريخ القديم حتى ألف بعضهم كتباً خاصة في معادنها وذهبها وآثارها وذكروا كثيراً من آثار هذه المناجم واكتشفوا مدناً كانت آهلة لم يبق غير أطلالها (١)

وذكر الهمداني في صفة جزيرة العرب وياقوت في معجم البلدان وغيرهما كثيراً من مناجم الذهب بعضها في اليمن والبعض الآخر في اليمامة او تهامة او البحرين . منها معدن نحب في ديار بني كلاب وحليت في تلك الديار ايضاً ومعدن بيش في مخاليف اليمن ومعدن قفاعة في اليمن ناهيك بذهب خولان الوارد ذكره في التوراة باسم حويلة

(١) Burton, Mines, 88 & 134

وفي اليامة كثير من المعادن خصص لها الهمداني فصلاً سماه معادن اليامة وديار ربيعة وهي معدن الحسن او الاحسن هو معدن ذهب غزير . ومعدن الحفير بناحية عماية وهو معدن ذهب غزير أيضاً . ومعدن الضبيب عن يسار هضب القليب ومعدن الثنية ثنية ابن عصام الباهلي ومعدن الموسجة من ارض غني فويق المغيرا ببطن السرداح ثم معدن شمام للفضة والصفر ومعدن تياس ومعدن العقيق ومعدن الحجة بين العمق وبين أفيعية ومعدن بيشة ومعدن الهجيرة ومعدن بني سليم فهذه معادن نجد [١] وقول العرب معدن كذا يراد به معدن الذهب الا اذا عرّفوه بالفضة او الصفر او غيرها

وفي بلاد العرب فضلاً عن مناجم الذهب مناجم الجواهر الاخرى كمعدن الفضة في الرضراض لا نظير له ومعادن للحديد غير معمولة في نقم وغمدان وفيها فصوص البقران ويبلغ المثلث منها مالاً كثيراً وهو ان يكون وجهه احمر فوق عرق ابيض فوق عرق اسود . والبقران الوان ومعدنه بجبل انس والسعوانية من سعوان واد جنب صنعاء وهو فص اسود فيه عرق ابيض ومعدنه بشهارة وعيشان من بلد حاشد . والجشّ في شرف همدان والبلور يوجد في مواضع منها . والمسنّي الذي يعمل منه نصب السكاكين يوجد في مواضع منها . والعقيق الاحمر والاصفر العنيقان من الهان . وبها الجزع الموشى والمسير منه النقمي والسعواني والضهري والخولاني والجرتي . والشزب يعمل منه الالواح وصفائح وقوائم سيوف ونصب سكاكين ومداهن وغير ذلك . وليس سواه الا في بلد الهند والهندي بعرق واحد [٢] . فضلاً عن مغاوص اللؤلؤ في البحرين وهي اشهر من ان تذكر

٣ — العمارة

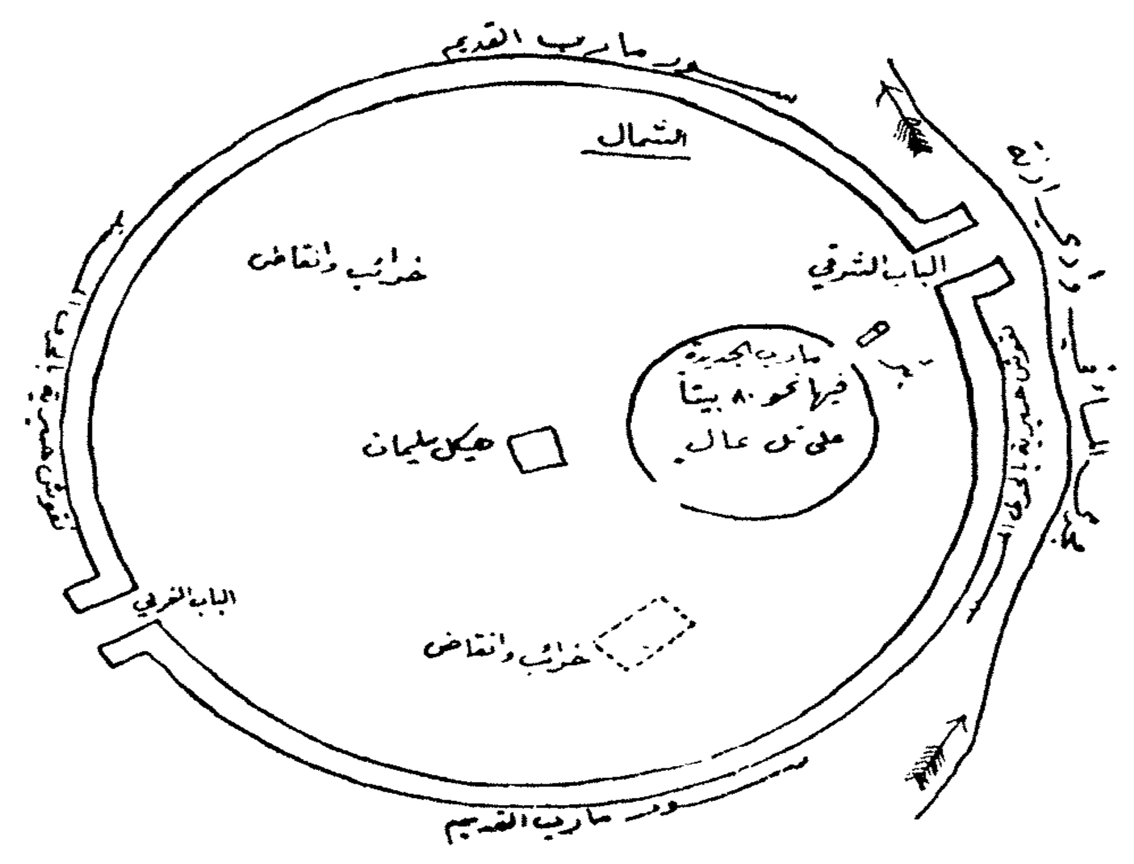
١ — مدن اليمن

انشأت العرب باليمن وغيرها مدناً اكثرها اندثر ولم يبق الا خبره مثل مأرب ومعين وبراقش وظفار وشبوة وناعط وبينون وصنعاء وغيرها وقد تقدم ذكر بعضها . واصل العمارة في مدن اليمن القصور والمحافد وهي أشبه بالقلاع او الهياكل يقيم فيها الاذواء كما تقدم . وربما احتوت المدينة الكبيرة على عدة قصور وهياكل فخمة البناء

(١) الهمداني ١٥٣ (٢) الهمداني ٢٠٢

كثيرة الزينة . وقد اطرى استرابون زخرف تلك القصور وقال انها تشبه بشكلها القصور المصرية [١] وذكر بلينيوس ان في مدينتي ناجية وتمناء باليمن ٦٥ هيكلاً وفي شبوة قصبة حضرموت ٦٠ هيكلاً [٢]

خريطة مدينة مارب بعد خرابها



الخريطة الثالثة ـ مدينة مارب او سبأ بعد خرابها

مأرب : وتسمى ايضاً « سبأ » هي اشهر مدائن اليمن ويلوح لنا ان لفظها آرامي الاصل مركب من « ماء » و « راب » اي الماء الكثير او السيل الكبير . ويؤخذ مما وقفوا عليه من انقاضها انها كانت مستديرة الشكل قطرها نحو كيلومتر يحدق بها سور له بابان احدهما شرقي والآخر غربي وبجانب الباب الغربي كتابة تفسيرها انه من بناء يثعمر بيين بن سمهعلي ينوف مكرب سبا [٣] وفي وسطها آثار هيكل يسميه اهل تلك الناحية الآن هيكل سليمان

(١) Strabon, III. 360 (٢) Glaser, Geo. II. 88

(٣) Müller. Burg. II. 16

وقد قال الطمحان يذكر مأرب :

أما ترى مأرباً ما كان أحصنه وما حواليه من سور وبنيان

وبذلك اشارة الى سورها المنيع . وكان السيل في وادي اذنة يجري في شرقيها كما ترى في الخريطة الثالثة ليسقي ما بين يديها وما حولها فتصير كأنها في جنان وغياض . غير ما كان فيها من الابنية الضخمة من الرخام كقصور سلحين والهجر والقشيب وقال علقمة :

ومنا الذي دانت له الارض كلها بمأرب يبني بالرخام ديارا

وقد شاهد الهمداني انقاض مأرب في القرن الرابع للهجرة فذكر في الاكليل بين تلك الانقاض أعمدة للعرش ولعله يريد قصر سلحين وهو القصر الذي كان يقيم فيه الملك . قال « انها لا تزال قائمة ولو اجتمع جيل على ان يصرعوا واحدة منها لم يقدروا لان كل عمود منها نقبوا له في الصفا ثم القم اسفله وصب بينه القطر » ويسمون قصر سلحين ايضاً قصر بلقيس . وقد أفاض الشعراء في وصف مأرب وآثارها قال علقمة :

وقصر سلحين قد عفاه ريب الزمان الذي يريبُ
تعوي الثعاليب في قراها ما في مساكنها غريبُ

وقال تبع :

ومأرب قد نطقت بالرخام وفي سقفها الذهب الاحمرُ

وقال علقمة :

او ما ترين وكل شيء للبلا سلحين خاوية كأن لم تعمر [1]

ومن مدن اليمن القديمة معين وبراقش وشبوة وظفار وصنعاء وهذه الاخيرة لا تزال باقية الى الآن . اما معين فقد خربت وغطتها الرمال حتى خفيت عن أهل اليمن انفسهم فكشفها هاليفي كما تقدم في الكلام عن دولة المعينيين وذكرنا ما قيل فيها وفي براقش

صنعاء : اما صنعاء فاحدث عواصم اليمن قبل الاسلام نزلها الاحباش بعد فتح اليمن وفيها عدة قصور أشهرها غمدان . والمدينة طيبة الهواء تغنى الشعراء في وصفها واطراء طقسها ورغدها قال ابو محمد اليزيدي [2]

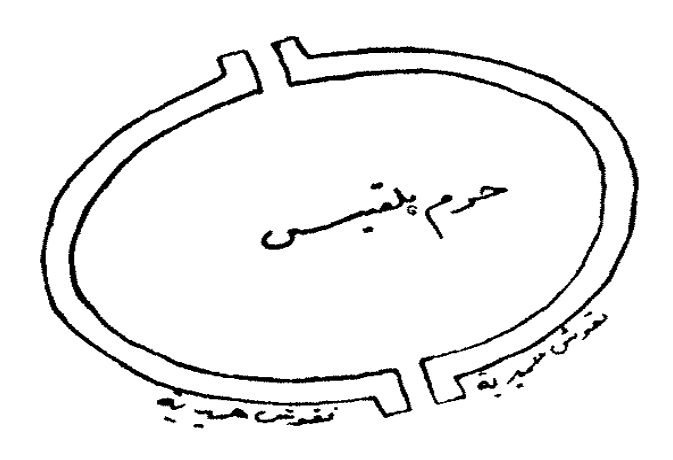
قلت ونفسي جمٌّ تأوّهها تصبو الى اهلها واندهها
سقياً لصنعاء لا أرى بلداً اوطنه الموطنون يشبهها

---

(١) Müller Burg. .II 86 — 88 (٢) ياقوت ٤٢٢ ج ٣

خفضاً وليناً ولا كبهجتها ارغد ارض عيشاً وارفهها
كأنها فضة مموّهة احسن تمويهها مموّهها
كم دون صنعاء سملقاً جرداً تذرو بمن رامها مموّهها
ارض بها العين والظباء معاً فوضى مطافيلها ووُلّهها
كيف بها كيف وهي نازحة مشبهٌ تيهُها ومهمهها

وفي صنعاء بنى ابرهة الحبشي القليس كما مرَّ



اعمدة واقفة

الخريطة الرابعة — حرم بلقيس

وعلى نصف ساعة من مأرب نحو الشرق الشمالي انقاض بناء عظيم يقال له « حرم بلقيس » وهو غير قصر بلقيس . ويظهر من بقاياه انه اهليلجي الشكل طوله من الشرق الى الغرب . ومحيطهُ ٣٠٠ قدم حولهُ سور له بابان شمالي وجنوبي وعلى السور نقوش كتابية بالحرف المسند يستدل منها ان المكان كان هيكلاً للعبادة منها نقش هذا تفسيره « ان كرب ايل وتار يوهنعم ملك سبأ وريدان بن ذمر علي يبين . وهلك امير بن كرب ايل أعادا بناء هذا الحائط لألمقه من اجل تقديس قصر سلحين ومدينة مأرب » ونقش آخر بمثل هذا المبنى باسم اليشرح بن سمهعلي ذرح ملك سبأ . وآخر باسم تبع كرب كاهن ذات غضرن [١] وعليه نقوش كثيرة غير هذه لا محل لايرادها

٢ — قصور اليمن

اما قصور اليمن فهي كثيرة جداً ذكر العرب عشرات منها في أشعارهم ووصفوا

(١) Müller. Burg. II. 18

بعضها وصفاً يوهم القارىء لاول وهلة انه بعيد عن الحقيقة لما سبق الى اذهان الناس من اعتقاد المبالغة في أقوال العرب ولـكنه عند التأمل لا يري فيه غرابة وان دل على فخامة وعظمة لا يعهدها الناس في العرب قبل الاسلام . وسنعول في ما تنقله من أخبارها على رجل شاهدها بنفسه وقد ثبت صدقه من قرائن كثيرة . نعني الهمداني صاحب كتاب صفة جزيرة العرب وكتاب الاكليل وهذا الاخير اجمع كتاب في وصف محافد اليمن ومساندها ودفائنها ولم يعثر العلماء الا على جزء صغير منه عني المستشرق مولر بنشره والتعليق عليه وفيه وصف كثير من الآثار الحميرية وفي جملتها سد مأرب وكان الناس يحسبون في كلامه مبالغة حتى ذهب ارنو وهاليفي وغلازر وشاهدوا آثار ذلك السد وبعض انقاض تلك القصور فوجدوا الرجل صادقاً في ما ذكره عنها فاعتقدوا صدقه في سائر ما قاله وهو يقول ان اشهر قصور اليمن وأعجبها قصر غمدان



ش ٢٤ — بقايا قصر غمدان

قصر غمدان : هو في صنعاء ذكر الهمداني وياقوت ان بانيه اليشرح يحصب [١] فاذا صح قولهما كان بناؤه في القرن الاول للميلاد وظل باقياً الى أيام عثمان بن عفان [٢] في أوائل القرن الاول للهجرة فيكون قد عاش نحو ٦٢٠ سنة . وشاهد الهمداني بقاياه تلاً عظيماً كالجبل وقال في وصفه انه كان عشرين سقفاً غرفاً بعضها فوق بعض

(١) Müller, Burg. I. 57 وياقوت ٨١١ج ٢ (٢) المسعودي ٢٦١ ج ١

أي عشرين طبقة مثل اكبر ابنية العالم المتمدن واعلاها بين كل سقفين عشرة اذرع وقال ان بانيه لما بلغ غرفته العليا اطبق سقفها برخامة واحدة شفافة وكان يستلقي على فراشه في الغرفة فيمر به الطائر فيعرف الغراب من الحدأة وهو تحت الرخام . وكانت حروفه أربعة تماثيل اسود من نحاس مجوفة رجلا الاسد في الدار ورأسه وصدره خارجان من القصر وما بين فيه الى مؤخره حركات مدبرة . فاذا هبت الريح فدخلت أجواف الاسود سمع لها زئير كزئير الاسد وكان يصبح فيها بالقناديل فترى من رأس عجيب . وكانت غرفة الرأس العليا مجلس الملك اثني عشر ذراعاً . وكان للغرفة أربعة أبواب قبالة الصبا والدبور والشمال والجنوب وعند كل باب منها تمثال من نحاس اذا هبت الريح زأر . وفيها مقيل من الساج والابنوس . وكان فيها ستور لها اجراس اذا ضربت الريح تلك الستور تسمع الاصوات عن بعد . وقال فيه اليشرح شعراً بالحميرية بقي منه هذا البيت :

وأني انا الفيـــل اليشرح حصنكُ (اي حصنتُ) غمدان عيهمت[1]

ومما قيل في وصف قصر غمدان :

يسمو الى كبد السماء مصعداً عشرين سقفاً سمكها لا يقصرُ
ومن السحاب معصبٌ بعمامة ومن الغمام منطقٌ ومؤزرُ
متلاحكا بالقطر منهُ صخره والجزع بين صروحه والمرمرُ

قصر ناعط : ويلي غمدان بالعظمة والشهرة « ناعط » وهو محفد مؤلف من عدة قصور . قال الهمداني في وصفه انهُ مصنعة بيضاء مدورة منقطعة في رأس جبل تنين بهمدان . وضمن قصور ناعط قصر المملكة الكبير الذي يسمى « يعرق » ومنها قصر ذي لعوة المكعب بكعاب خارجة في معازب حجارته على هيأة الدرق الصغار . قال وذرعت في معزب منه سبعة اذرع الا ثلثاً . وبها غير هذا القصر ما يزيد على عشرين قصراً كباراً سوى اماكن الحاشية وكان عليها سور ملاحك بالصخر المنحوت وما فيها قصر الا وتحته كريف للماء (صهريج) بجوف في الصخر فيبتلع الماء الذي ينزل من السطح وفيه الاسطوانات العظيمة طول كل واحدة نيف وعشرون ذراعاً لا يحضن الواحدة منها الا رجلان . وفيها بقايا مسامير حديد قيل انها كانت مراقي الى رؤوسها . وانها كان ينفث عليها الشمع اذا أرادوا الصرخة فتنظر النار من جبل سفيان ومن جبل حضور ورأس مدع وغيرها . وفيها يقول الهمداني على حد الخبرة ورأي العين ويصف ما شاهده عليها من التماثيل والصور : [2]

(١) Müller. Burg. I. 56 – 58

(٢) Muller. Sudar. 80

فمن كان ذا جهل بايام حمير وآثارهم في الارض فليأتِ ناعطا
يجد عمداً تعلو القنا مرمرية وكرسي رخام حولها وبلائطا
ملاحكها لا ينفذ الماء بينهـا ومبهومة مثل القراح خرائطا
على كرفٍ من تحتها ومصانع لها بسقوف السطح لبسٌ وعابطا
ترى كل عثال عليها وصورة سباعاً ووحشاً في الصفاح خلائطا
تجانب ما تنفك تنظر قابضاً لاحدى يديه في الحبال وباسطا
ومستفعات من عقاب واجدل على ارتب هم ذا فراخ وقامطا
وسرب ظباءٍ قد نهلن لمختف وغضف ضراء قد تعلقن باسطا
وذا عقدة بين الجياد مواكباً وساعي هاد للركاب مواخطا

ويظهر ان ناعطاً اقدم عهداً من غمدان لان علهان ونهفان ادخلا فيه اصلاحاً وهما ن ملوك حمير باوائل القرن الثاني قبل الميلاد — فهل تقلُّ هذه الآثار كثيراً عن بقايا تدمر واثينا ولقصر بعلبك وغيرها من مفاخر الدول القديمة ؟

ريدة او تلفم : قال الهمداني « قصر ريدة من اقدم قصور اليمن وهو قصر تلفم وليس من قصور اليمن قصر في اصل جبله بئر سوى تلفم وماؤها اعذب مياه اليمن واغزرها » قال « وحدثني بعض اهله انه وجد حجراً في تلفم مكتوب عليه بناه يريم » فاذا صح ذلك كان هذا القصر من بناء اواسط القرن الاول قبل الميلاد لان يريم ابن علهان . واصبح هذا القصر بعد الاسلام داراً للعلويين

مدر : هو محفد مؤلف من ١٤ قصراً شاهدها الهمداني وقال في وصفها « منها ما هو مشعب ومنها ما هو عامر . اما قصرها العامر فقد دخلته وهو بوجوه من الحجارة البلوطية خارجه ومثله في داخله وقد اجري عليه الماشق فلست ترى عليها فصلاً ما بين الحجرين حتى لو كان داخله كريفاً للماء ما خان ولا نفذه وفيها اعداد تلك القصور كرف للماءِ باعمدة حجارة طوال مضججة على اعمدة قيام بضعة عشر ذراعاً مربعة. وفي مسجد مدر اساطين مما نزع من تلك القصور ليس في المسجد الحرام مثلها هي اطول منها واكثف واحسن نجراً كانها مفرغة في قالب . وقبالة قصر الملك منها بلاطة مستقبلة للشرق عليها صورة الشمس والقمر يقابلانه اذا خرج »

صرواح : هو قصر عظيم من قدم ابنية اليمن ما بين صنعاء ومأرب ذهب قديماً وله ذكر في اشعار العرب قال علقمة :

من يأمن الحدثان بعـ ـد ملوك صرواح ومأرب

وقال عمرو بن النعمان بن سعد بن خولان :

ابونا الذي كانت بصرواح داره وفي جبلي نعمان عزٌّ تمكنا
ونحن ورثنا عز خولان ذي الندى مآثر عزٍّ مثلها لم يدمّنا
فاورثها سعد بن خولان جدنا بنيه فضافوها دهوراً وازمنا (١)

وقصور اليمن كثيرة وقد جمع ابو علكم المراني اهمها في قصيدة قال منها :

نحن المقاول والاملاك قد علمت اهل المواشي بانا اهل غمدانا
وانّا رب ينبون واضرعة والشيد من هكر ناهيك بنيانا
براقش ومعين نحن عامرها ونحن ارباب صرواح وروثانا
وناعط نحن شيدنا مخالفها وقصرها وقرى اشق ونوفانا
وتلفم البون والقصرين من خمر وتنعماً وقرى شرح ودعّانا
والهندتين بنى ذو التاج من بتع وقصر ذي الورد تاماً رأس ملحانا
وصبح نحو ونجراً فوق قبتها بنى لنا وشباماً بيت اقيانا
وفي ريام وفي النجدين من مدر علّى المنار وحف الشيد ايوانا
وفي ظفار بنت آباؤنا غرفاً في كوكبان وقصر الملك ريدانا
وقصر ينون علاه وشيده ذو الفخر عمرو وسوى قصر غمدانا
وقصر احور اسّ القيل ذو يزن وقصر ذي فائش ارباب قد كانا
وقصر سلحين علاه وشيده كهلان والدنا احبب بكهلانا
فاصبحت مأربٌ للريح مخترقاً بعد القصور وبعد الشيد ميدانا
ساق المياه الى سدٍّ بمأربنا للجنتين مغانينا وبغيانا (٢)

واكثر هذه القصور لها اوصاف اغضينا عنها خوف التطويل . غير القصور خارج بلاد اليمن كقصر الشموس في اليمامة والبتل التي كان يبنيها طسم وجديس وقد تقدم ذكرها في كلامنا عن هاتين الامتين . ناهيك بما خلفوه من اماكن الحج والنسك والكهانة مثل كعبة نجران للنصارى وريام بيت نسك كان يحج اليه الناس في رأس جبل اتوة من همدان ينسب الى ريام بن نهفان وحوله مواضع كانت الوفود تحلّ فيها. وقدام باب القصر حائط فيه بلاطة عليها صور الشمس والهلال هي من بقايا الصابئة كما سيأتي في الكلام عن الدين

(١) Muller, Burg, I, 66 (٢) Muller, Sndar, 87

وغير القلاع والمصانع وبعضها لا تزال قائمة الى الآن منها مصنعة وحاظة واسمها سباع تشابه ناعط في القصور والكرف كريفها اسمه درداع مساحته ٦٠٠ ذراع في مثلها وقلعة خدد معاندة لقلعة وحاظة بينهما ساعة من نهار وفيها قصر عظيم يقصر عنه الوصف . وللقلعة طريقان على باب كل طريق ماء فالطريق الجنوبي عليه كريف يسمى الوفيت منقور في الصخر الاسود عمقه في الارض خمسون ذراعاً وعرضه عشرون وطوله خمسون محجوز على جوانبه جدار يمنع السقوط فيه . والماء الثاني من شمال الحصن على باب الحصن الثاني في جوبة من صفا كالبئر مطوي بالبلاط ودرج ينزل فيه من رأس الحصن بالسرج في الليل والنهار على مسيرة ساعة حتى يؤتى الى الماء ولا يعلم من يكون على باب البئر من فوق [1]

دع عنك ما في اليمن من آثار الهمة العالية والمهارة في البناء من قطع الجبال كما قطعوا باب عدن وهو شق في جبل محيط بموضع عدن في ساحل لم يكن له طريق الى البر الا للرجل الواحد اذا ركب ظهر الجبل فقطعوا من الجبل باباً في عرض الجبل حتى سلكته الدواب والحمائل وغيرها . ومثله قطع بينون جبل قطعه بعض ملوك حمير حتى اخرج فيه سبيلا من بلد وراءه الى ارض بينون . فهو اشبه بما ينقره أهل هذا التمدن من الانفاق في الجبال لمرور المياه او قطر السكك الحديدية . ومن هذا القبيل حصن غراب وهو بقية قلعة منحوتة في الصخر عليها نقش بالمسند لفاتح اليمن الحبشي ذكر فيه خبر فتحه كما تقدم . واكتشف المستشرق هريس في هران قرب دامار صهاريج من الماء لها آبار عميقة كانوا يخزنون الماء فيها للجند اثناء الحصار وهي التي يسميها العرب الكرف وقد ذكرنا امثالها في ناعط وغيرها

الاسداد

ومن ادلة العمارة في بلاد اليمن الاسداد وهي جدران ضخمة كانوا يقيمونها في عرض الاودية لحجز السيول ورفع المياه لري الارضين المرتفعة كما يفعل أهل التمدن الحديث في بناء الخزانات . وانما عمد العرب الى بناء الاسداد لقلة المياه في بلادهم مع رغبتهم في احياء زراعتها . فلم يدعوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء الا حجزوا سيله بسد . فتكاثرت الاسداد بتكاثر الاودية حتى تجاوزت المئات . وذكر الهمداني في

(١) الهمداني ٧٨ ج ١ .

يحصب العلو من مخاليف اليمن وحده ثمانين سداً والى ذلك اشار شاعرهم بقوله :

وبالبقعة الخضراء من ارض يحصب ثمانون سداً تقذف الماء سائلا

وكانوا يسمون كل سد باسم خاص به او بالاضافة الى بلده فمن كبار هذه الاسداد قصعان وربوان وهو سد قتاب وشحران وطمحان وسد عباد وسد لحج (وهو سد عرايس) وسد سحر وسد ذي شهال وسد ذي رعين وسد نقاطة عند قرية ذي ربيع وسد نضار وهران وسد الشعبابي وسد المليكي وسد النوامي وسد المهباد وباقيها لطاف

واشهر اسداد اليمن « العَرِم » وهو سد مأرب الشهير وسنعود اليه . وسد الخانق بصعدة بناه نوال بن عتيك مولى سيف بن ذي يزن في القرن السادس للميلاد ومظهره في الخنفرين من رحبان . وقد أخربه ابراهيم بن موسى العلوي بعد هدم صعدة . وسد ريعان لابن ذي مأذن وسد سيان. واسداد بلاد عنس منها سد خيرة وسد بيت كلاب في ظاهر همدان وآخر في ظاهر دعان [١] وسد شبام قرب صنعاء على ثمانية فراسخ منها [٢]

ولم يقتصر بناء العرب للاسداد على ما بنوه في جزيرة العرب ففي مكران وبلوتشستان في عدوة خليج فارس الشرقية آثار اسداد كثيرة لا يعرف عنها اهل تلك الناحية شيئاً فلعل بعض العرب نزحوا الى تلك البقاع قديماً وابتنوا فيها تلك الاسداد

سد مأرب او سد العرم

هو أعظم اسداد بلاد العرب واشهرها وقد كثر ذكره في اخبار العرب واشعارهم على سبيل العبرة لما اصاب مأرب بانفجاره واليه اشار القرآن في سبأ بقوله :

« لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا انفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبّار شكور »

ذلك اقدم ما دوّن من خبر هذا السد في كتب العرب واختلف المسلمون في تفسيره

(١) Müller, Südar, 88 (٢) ياقوت ٢٤٩ ج ٣

التاريخي لاقتصاره على العبرة دون التاريخ اذ لم يذكر من بناه او كيف بني ومتى كان تهدمه . فدخل خبره كثير من المبالغات والخرافات . قال بعضهم ان بانيه سبا بن يشجب وقال غيرهم بناه لقمان بن عاد وجعله فرسخاً في فرسخ وجعل له ثلاثين مثقباً وجعل بناءه بالصخر والقار بحبس سيول العيون والامطار حتى يصرفوها من خروق في ذلك السد على مقدار ما يحتاجون اليه في سقيهم . قالوا ومكث كذلك ما شاء الله ايام حمير فلما انحل نظام مملكتهم وتقلص ظلهم وذهب الحفظة القائمون بامر السد انذروا بخرابه على عهد عمرو بن مزيقياء ملكهم زعموا ان كاهنة اسمها طريفة انذرتهم بذلك في حديث طويل [١] لا فائدة من ذكره جاء في جملته قصة جرذ رأوها تنقب في السد نخافوا انفجاره

واختلفوا في وقت حدوث ذلك السيل قال حمزة الاصفهاني انه حدث قبل الاسلام باربعمائة سنة [٢] اي في القرن الثالث للميلاد . وذكر ياقوت انه وقع في ملك حبشان ولعله يريد الاحباش لانهم لما فتحوا اليمن في القرن السادس اخربوا كثيراً من قصورها وابنيتها[٣] أو لعله اراد حسان بتصحيف اللفظ كما أراد ابن خلدون فقد ذكر أن السد تهدم في ايام حسان بن تبان أسعد (في القرن الخامس للميلاد) وقال آخرون غير ذلك مما يطول بنا ايراده

رواية الهمداني عن سد مأرب

واوثق روايات العرب عن سد مأرب ما قاله الهمداني في كتاب الاكليل وقد شاهد انقاضه بنفسه في أوائل القرن الرابع للهجرة وكان يقرأ المسند ويفهمه فوصف تلك الانقاض مع تطبيقها على قول القرآن وهذان القولان أصدق ما جاء عن خبر هذا السد واكثر مطابقة لما وجده النقابون الذين اكتشفوا آثار ذلك الخزان في القرن الماضي — قال الهمداني : [٤]

« قال الله تعالى (لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) وهي (اي سبا) كثيرة العجائب والجنتان عن يمين السد ويساره وهما اليوم غامرتان والغامر العافي واعاعفتا لما اندحق السد فارتفع عن ايدي السيول ووجدت في احداهما غريق اراك وفي أصله جذع نخلة أسود قد كبست بافيه السوافي فقال بعض من كان معي لا أظنه الا من بقايا نخل الجنتين وما أظنه بقي من العصر القديم . أما مقاسم الماء من مداخر السد فيما بين الضياع فقائمة

(١) ياقوت ٣٨٣ ج ٤ (٢) حمزة ١٢٦ (٣) الاغانى ٧٢ ج ١٦
(٤) Müller; Burg. II. 83

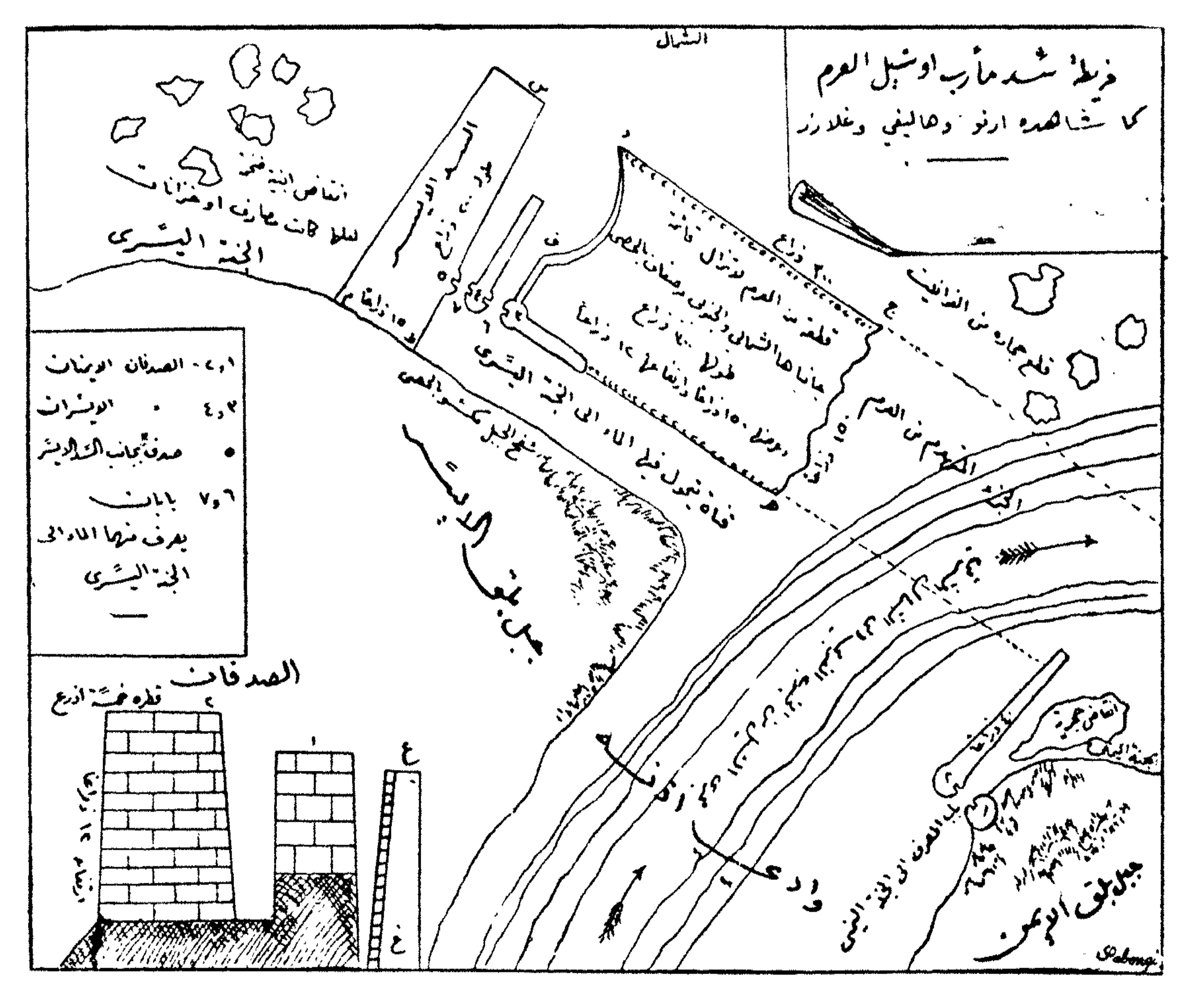
كأن صانعها فرغ من عملها بالامس . ورأيت بناء أحد الصدفين وهو الذي يخرج منه الماء قائماً بحاله على أوثق ما يكون ولا يتغير الا ان شاء الله . وانما وقع الكسر في العرم وقد بقي من العرم شيء مما يصالي الجنة اليسرى يكون عرض اسفله خمسة عشر ذراعاً . قال تبارك وتعالى (فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل) قيل الخمط الاراك والاثل الطرفاء والسدر المعروف وهو العلب وبها من الاراك ما ليس ببلد . ومن الحمام المطوق في الاراك ما يجل عن الصفة . وكان السيل يجمع من اماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن (من عروش وجوانب ردمان وشرعة وذمار وجهران وكومان واسبيل وكثير من مخاليف خولان) والوادي اسمه (اذنة) وفي هذا السد يقول الاعشى :

كفى ذاك للمؤتسي أسوة ومأرب قفّى عليها العرم
رخامٌ بناه له حمير اذا جاء ماؤهم لم يرم
فاروى الحروث وأعنابهم على ساعة ماؤهم ينقسم
فعاشوا بذلك في غبطة فجار بهم جارف منهزم
فطار القيول وقيالها بيهماء فيها سرابٌ يطم

وكان العرم مسنداً الى حائط ما بين عضاد بالمذخر بعاذيب من الصخر عظام ملحمة ملس الاساس بالقطر » انتهى كلام الهمداني

وظل الناس مع ذلك في شك من أمر هذا السد حتى تمكن المستشرق الفرنساوي ارنو من الوصول الى مأرب سنة ١٨٤٣ وشاهد آثاره ورسم له خريطة نشرت في المجلة الاسيوية الفرنساوية سنة ١٨٧٤ وزار مأرب بعده هاليفي وغلازر ووافقاه في قوله وصادقا على وصفه وهو يطابق ما قاله الهمداني من اكثر الوجوه . وعثروا في أثناء ذلك على نقوش كتابية في خرائب السد وغيره تحققوا بها خبره . واكثرهم اشتغالا في هذا السبيل غلازر وبين الاساطير التي وقف عليها اثنتان جاء فيهما خبر ترميم السد في زمن الاحباش بالقرن السادس للميلاد . فيدل ذلك على أنه ظل قائماً الى قرب ظهور الاسلام . ولعلّ السبب في نسبة بنائه وتهدمه الى عصور مختلفة وأشخاص مختلفين كثرة تصدعه وترميمه فكانوا يعدون كل تصدع تهدماً وكل ترميم بناء

وبعد ما قدمناه من أقوال المؤرخين والنقابين بشأنه يحسن بنا الاتيان على أصل وضعه وما هو عليه الآن ونوضح ذلك بالخريطة الخامسة



الخريطة الخامسة — سد مأرب او سيل العرم كما شاهده الباحثون في القرن الماضي

أصل وضع سد مأرب

في الجنوب الغربي من مأرب سلسلة جبال هي شعاب من جبل السراة الشهير تمتد مئات من الاميال نحو الشرق الشمالي . وبين هذه الجبال أودية تصب في واد كبير يعبر عنه العرب بالميزاب الشرقي وهو اعظم اودية الشرق تمييزاً له عن ميزاب مور أعظم اودية الغرب المتشعبة من جبل السراة المذكور . وشعاب الميزاب الشرقي كثيرة تتجه في مصابها ومنحدراتها نحو الشرق الشمالي . وأشهر جبالها ومواضعها في ناحية رداع العرش وردمان وقرن والجبال المشرفة على سويق وفي ناحية ذمار بلد عنس جميعاً وهو مخلاف واسع وبه ينون وهكر وفيها المحافد العنسية وبلد كومان وبلد الحدا وجبل اسبيل ورجمة وجبال بني وابش من مراد وغيرها ومخلاف ذي جرة وجهران وهران ومساقط بلد خولان من جنوبيه وما تيامن من القحف [1]

فشعاب هذه المواضع واوديتها اذا أمطرت السماء تجمعت فيها السيول وانحدرت حتى تنتهي اخيراً الى وادي اذنة وهو يعلو نحو ١١٠٠ متر عن سطح البحر فتسير فيه المياه نحو الشرق الشمالي حتى تنتهي الى مكان قبل مأرب بثلاث ساعات هو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلق عبرنا عن احدها بالايمن وعن الآخر بالايسر والمسافة بينهما ستمائة خطوة (او ذراع) ويسميهما الهمداني مأزمي مأرب يجري السيل الاكبر بينهما من الغرب الجنوبي الى الشرقي الشمالي في واد هو وادي اذنة (انظر الخارطة)

واليمن مثل سائر بلاد العرب ليس فيها انهر وانما يستقي اهلها من السيول التي تجتمع من مياه المطر . فاذا أمطرت السماء فاضت السيول وزادت مياهها عن حاجة الناس فيذهب معظمها ضياعاً في الرمال . فاذا انقضى فصل المطر ظمئ القوم وجفت أغراسهم فكانوا اما في غريق أو في حريق قلما ينتفعون حتى في ايام السيل من استثمار البقاع العالية على منحدرات الجبال . وقد يفيض السيل حتى يسطو على المدن والقرى فينالهم من أذاه اكثر مما ينالون من نفعه . فساقتهم الحاجة الى استنباط الحيلة في اختزان الماء ورفعه الى سفوح الجبال وتوزيعه على قدر الحاجة . فاختار السبأيون المضيق بين جبلي بلق وبنوا في عرضه سوراً عظيماً عرف بسد مأرب او سد العرم الذي نحن في صدده لري ما يجاور مدينتهم (مأرب) من السهول او سفوح الجبال

والجبلان المذكوران بعد ان يتقاربا عند بلق ينفرجان ويتسع الوادي بينهما . وعلى

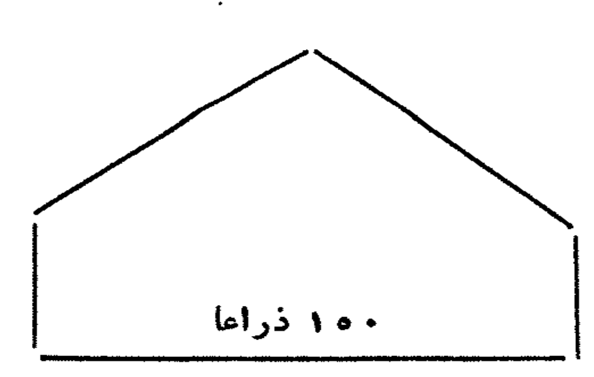
---

(١) الهمداني ٨٠

ثلاث ساعات منهما نحو الشمال الشرقي مدينة (مأرب او سبا) في الجانب الغربي او الايسر من وادي اذنة . فاذا جرى السيل حاذى بابها الشرقي (راجع الخريطة الثالثة) . وبين المضيق والمدينة متسع من الارض تبلغ مساحة ما يحيط به من سفوح الجبال نحو ٣٠٠ ميل مربع [١] كانت جرداء قاحلة فاصبحت بعد تدبير المياه بالسد غياضاً وبساتين على سفحي الجبلين وهي المعبر عنها بالجنتين بالشمال واليمين أو بالجنة اليمنى والجنة اليسرى

رسمه وكيف ينصرف الماء منه

والسد المشار اليه عبارة عن حائط ضخم أقاموه في عرض الوادي على نحو ١٥٠ ذراعاً (او خطوة) نحو الشمال الشرقي من المضيق وسموه « العرم » وهو سدٌّ أصم طوله من الشرق الى الغرب نحو ثمانمائة ذراع وعلوه بضعة عشر ذراعاً وعرضه ١٥٠ ذراعاً . لا يزال نحو ثلثه الغربي أو الايمن باقياً الى الآن كما ترى في الخريطة الخامسة (ج د ف هـ) وأما الثلثان الباقيان فهما اللذان تفجرا وفاض الماء منهما وعجزت الدولة عن ترميمهما وجرفت السيول انقاضهما . وقد نقطنا حديهما بالخارطة ليظهر امتداد السد على طوله كما كان في اصله بعرض الوادي . ويظهر مما شاهدوه في جزئه الباقي انه مبني بالتراب والحجارة ينتهي أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوهما طبقة من الحصى كالرصيف يمنع انجراف التراب عند تدفق المياه . ولو قطعت ذلك الحائط او السور قطعاً عرضياً لكان شكل مقطوعه على هذه الصورة :



فالعرم يقف في طريق السيل كالجبل المستعرض ويصده عن الجري فتجتمع مياهه وترتفع مثل ارتفاعها في خزان اصوان باعالي النيل . وينتهي العرم في طرفيه بمصارف للماء يختلف شكلها وأسلوبها عن مصارف خزان اصوان — وذلك ان الذين هندسوه جعلوا طرفيه عند الجبلين ابنية من حجارة ضخمة متينة فيها منافذ ينصرف منها الماء الى أحدى الجنتين اليمنى او اليسرى

فانشأوا عند قاعدة الجبل الايمن (الشرقي الجنوبي) وهو جبل بلق الايمن بنائين بشكل المخروط المقطوع (١ و ٢) علو كل منهما بضعة عشر ذراعاً سموهما الصدفين احدهما (١) قائم على الجبل نفسه والآخر (٢) الى يساره وبينهما فرجة عرضها خمس

(١) O, M. O. (1897) 127

أقدام . وقاعدة الايمن منهما تعلو قاعدة الايسر ثلاث اقدام (انظر رسمهما في طرف الخريطة الى اليسار) والايسر مبني من حجارة منحوتة يمتد منه نحو الشمال والشرق جدار طوله ٤٠ ذراعاً ينتهي في العرم نفسه ويندغم فيه . وعلو الجدار المذكور مثل علو الصدف ومثل علو العرم

وفي جانب كل من الصدفين المذكورين عند وجهيهما المتقابلين ميزابٌ يقابل ميزاباً في الصدف الآخر . والميزابان مدرجان اي في قاع كل منهما درجات من حجارة كالسلم الدرجة فوق الاخرى . ونظراً لشكل الصدفين الخروطي ولما يقتضيه شكل الميزاب السلمي أصبحت المسافة بينهما عند القاعدة اقصر منها عند القمة . وقد مثلنا الميزاب في الخارطة بشكل (غ ع) كأنك تنظر اليه بجانب الصدف

ويظهر من وضع الخروطين او الصدفين على هذه الصورة ان اصحاب ذلك السد كانوا يستخدمون المسافة بينهما مصرفاً يسيل منه الماء الى سفح جبل بلق الايمن فيسقي الجنة اليمنى . وانهم كانوا يقفلون المصرف بعوارض ضخمة من الخشب أو الحديد تنزل في الميزابين عرضاً كل عارضة في درجة فتكون العارضة السفلى اقصرها جميعاً فوقها عارضة اطول منها فاطول الى العليا وهي اطولها جميعاً . والظاهر ان تلك العوارض كانت مصنوعة على شكل تتراكب فيه او تتداخل حتى يتألف منها باب متين يسدّ المصرف سدًّا محكماً يمنع الماء من الانصراف الا عند الحاجة . فاذا بلغ الماء في علوه الى قمة الصدفين رفعوا العارضة العليا فيجري الماء على ذلك العلو الى سفح الجبل في اقنية معدة لذلك ونقرٍ أو احواض لخزن الماء أو توزيعها في سفح ذلك الجبل . فلا يزال الماء ينصرف حتى يهبط سطحه الى مساواة العارضة الثانية فيقف فمتى ارادوا رياً آخر نزعوا عارضة أخرى . وهكذا بالتدريج وعلى قدر الحاجة

وفي الطرف الايسر من العرم وهو الغربي الذي ينتهي بالجنة اليسرى بناء كالحائط (س ط م) دعوناه السد الايسر عرضه عند قاعدته ١٥ ذراعاً وطوله نحو ٢٠٠ ذراع وبجانبه من اليمين مخروطان او صدفان ايمنان (٣ و ٤) احدهما (٣) متصل بالعرم نفسه والآخر (٤) بينه وبين السد الايسر فيتكون من ذلك مصرفان (٦ و ٧) مثل المصرف الايمن لكل منهما ميزابان مدرجان متقابلان تنزل فيهما العوارض وتنزع حسب الحاجة لصرف الماء الى الجنة اليسرى . وينتهي العرم من حده الغربي بحائط منجلي الشكل (د ف) مبني بحجارة منحوتة صلبة لعله الذي يسميه الهمداني « المضاد »

وكان السيل اذا جرى في وادي اذنة حتى تجاوز المضيق بين جبلي بلق صده العرم

عن الجري فيتعالى ويحول جانب منه نحو اليسار الى السد الايسر . فاذا ارادوا ري الجنة اليمنى رفعوا من العوارض بين الصدفين الايمنين على قدر الحاجة واذا ارادوا ري الجنة اليسرى صرفوا الماء من المصرفين (٧ و ٨) بنفس الطريقة فيجرى الماء في اقنية واحواض في سفح الجبل الايسر حتى يأتي مأرب لانها واقعة الى اليسار كما تقدم

من بنى هذا السد ومتى

وقد عثر النقابون في انقاض سد مأرب على نقوش كتابية بالحرف المسند استدلوا منها على بانيه اهمها نقشان احدهما على الصدف الايمن (١) الملاصق للجنة اليمنى تفسيره « ان يثعمر بيين بن سمهعلي ينوف مكرب سبا خرق جبل بلق وبنى مصرف رحب لتسهيل الري »[١] والآخر على الصدف الآخر (٢) تفسيره « ان سمهعلي ينوف ابن ذمر علي مكرب سبا اخترق باق وبنى رحب لتسهيل الري » وسمهعلي هذا هو والد يثعمر المذكور وكل منهما بنى صدفاً او حائطاً وكلاهما من اهل القرن الثامن قبل الميلاد . فهما مؤسسانه ولم يتمكنا من اتمامه فأتمه خلفاؤهما وبنى كل منهم جزءاً نقش اسمه عليه . فعلى المخروط او الصدف (٤) في اليسار نقش قرأوا منه « كرب ايل بيين بن يثعمر مكرب سبا بنى . . . » وعلى جزء آخر من السد اسم « ذمر علي ذرح ملك سبا » وفي محل آخر اسم « يدع ايل وتار » وعلى السد الايسر مما يلي الجنة اليسرى عدة نقوش بمثل هذا المعنى[٢] مما يدل على ان هذا السد لم يستأثر ببنائه ملك واحد — تلك هي العادة في تشييد الابنية الكبيرة بكل زمان

اما تهدمه فالعرب يقولون انه حدث فجأة فتفرقت قبائل الازد وغيرها في جزيرة العرب بسبب ذلك . ويؤخذ من مجمل اقوالهم ان ذلك وقع حوالي تاريخ الميلاد أي نحو ظهور دولة حمير (ملوك سبا وريدان) وانتقال عاصمة السبائيين الى ظفار . فالظاهر ان السد تصدع حينئذ للمرة الاولى فرمموه وظلوا خائفين منه فتحولت عنايتهم الى تعمير ظفار وقل تمسكهم بالبقاء في مأرب فصاروا ينزحون بطوناً وافخاذاً لاسباب مختلفة ومنها القحط وغيره وأخذت مأرب بالتقهقر وكلما انفتق العرم من ناحية رمموه الى قبيل الاسلام فتهدم وأهملوه

ووفق غلازر في اثناء زيارته انقاض ذلك السد الى اكتشاف أثرين عليهما كتابة

(١) Muller, Burg. II. 13 (٢) Müller, Burg. II. 15

مطولة تتعلق بتهدم السد بعد دخول اليمن في حوزة الاحباش احدهما مؤرخ سنة ٥٣٩ م والآخر سنة ٥٦٥ م وهما من أهم ما وقفوا عليه من آثار تلك الدولة لما فيهما من الاشارات التاريخية والاجتماعية والعلائق السياسية احدهما كتبه ابرهة الحبشي وهذه خلاصته :

« بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه والروح القدس ان ابرهة عزيز الاحباش الاكسوميين ملك اراحميس زبيمان ملك سبا وذو ريدان وحضرموت ويمنت واعرابهم في نجد وتهامة قد نقش هذا الاثر تذكاراً لتغلبه على يزيد بن كبشة عامله الذي كان قد ولاه كندة وديء وعينه قائداً ومعه اقيال سبا الصحاريين وهم مرة وثمامة وحنش ومرثد وصنف ذو خليل واليزنيون اقيال معدي كرب بن السميفع وهفان واخوته ابناء الاسلم فانفذ الملك اليه الجراح ذا زنبور فقتله يزيد وهدم قصر كدار وحشد من أطاعه من كندة وحريب وحضرموت وفرّ هجان الذماري الى عبران . وبلغ الملك الاستصراخ فنهض بجنده الاحباش الحميريين ألوفاً في شهر ذو القياط من سنة ٦٥٧ (من تاريخ اليمن) فنزل اودية سبا ٠٠٠٠ فجاء يزيد وبايع وخضع للملك بين يدي القواد . وهم في ذلك جاءهم النبأ بتهدم السد والحائط والحوض والمصرف في شهر ذو المدرح سنة ٦٥٧ فامر بالعفو ٠٠٠ وبعث الى القبائل بانفاذ الحجارة للاساس والحجر الخام والاخشاب ورصاص الصب ٠٠٠ لترميم السد في مأرب . . فتوجه اولاً الى مأرب صلى في كنيستها ثم عمد الى الترميم فنبشوا الانقاض حتى وصلوا الى الصخر وبنوا عليه . وعلم وهو في ذلك ان القبائل تضايقت من العمل ورأى اعداءهم يعود بالضرر فعفا عنهم احباشهم وحميريهم واذن بانصرافهم ٠٠٠٠ ورجع الملك الى مأرب بعد ان عقد تحالفاً مع الاقيال الآتي ذكرهم : اكسوم ذو معاهر بن الملك ومرجزف ذو ذرناح وعادل ذو فائش واذواء شولمان وشعبان ورعين وهمدان والكلاع ٠٠٠ الخ وجاء اليه وفد النجاشي ووفد ملك الروم ورسول من المنذر وآخر من الحارث بن جبلة وآخرون جاؤا بعون الرحمن يخطبون مودته ٠٠٠٠ في اواخر شهر داوان وبعثوا اليه من غلة اراضيهم لترميم ما انصدع من البناء فرمموه ووسعوه حتى بلغ طوله ٤٥ ذراعاً وارتفاعه ٣٥ ذراعاً (ثم ذكر ما انفق فيه من الحجارة والاطعمة للعملة والحيوانات للعمل) واستغرق العمل في ذلك ٥٨ يوماً و ١١ شهراً وكان الفراغ منه في شهر ذو معان سنة ٦٥٨ » (١)

---

(١) Mitt. 1897

وهذه السنة في حساب الحميريين تعدل سنة ٥٤٣ للميلاد لانهم كانوا يبدأون تاريخهم سنة ١١٥ قبل الميلاد ولغلازر كلام في هذا الشأن [١] سنأتي عليه في الكلام عن التوقيت عند العرب ونكتفي هنا بالاشارة الى تاريخ الفتح من نقش حصن غراب فقد رأيت انه سنة ٦٤٠ حميرية او حبشية والمعول عليه انه كان سنة ٥٢٥ ميلادية والفرق بينهما ١١٥ سنة

٤ — التجارة في بلاد العرب

ان توسط بلاد اليمن بين امم العالم القديم جعلها واسطة التجارة بينها من أقدم ازمنة التاريخ فكان بينها وبين الهند علائق تجارية لا يعرف أولها . وكان للهنود محصولات ومصنوعات يحتاج اليها المصريون والاشوريون والفينيقيون وغيرهم فكان اليمنيون ينقلون هذه المتاجر الى تلك الامم في سفن البحر او قوافل البر . وكان على شواطىء اليمن فرض ترسو عندها السفن القادمة من الهند او وادي الفرات او وادي النيل كما ترسو اليوم سفن انكلترا وغيرها عند عدن في أثناء أسفارها بين اوربا والهند . وكانت لهم فرضة اسمها « موزا » يبنون فيها السفن الكبرى لقطع الاوقيانوس الهندي . ولهذا السبب عمرت جزيرة سوقطرة يومئذ لتوسطها في طريق تلك التجارة كما عمرت مالطة في البحر المتوسط لمثل هذا السبب . ومن الفرض التجارية المشهورة في اليمن في ذلك العهد عدن وقانا (حصن غراب) وظفار ومسقط ويغلب في مسقط ان ترسو عندها السفن الصاعدة في خليج فارس الى بابل

اصناف التجارة ببلاد العرب

أما الاصناف التي كانوا يحملونها من الهند فهي الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل والافاويه كالبهار والفلفل ونحوهما والقطن . وكانوا يحملون من شواطىء افريقيا الشرقية العطور والاطياب وخشب الابنوس وريش النعام والذهب والعاج غير ما كانوا يحملونه من حاصلات اليمن نفسها وهي البخور واللبان والمر واللادن . واكثر الاتجار بهذه الاصناف على يد القريين [٢] وبعض الحجارة الكريمة

---

(١) Glaser, Abb. 132 (٢) Strabon, III. 355

كالیشب والعقیق ويحملون من سوقطره العود والند ويحملون اللؤلؤ من البحرين فكان الهنود والافريقيون يحملون هذه الاصناف الى اليمن او يذهب اليمنيون انفسهم لاستجلابها. ثم يحملونها الى مصر والشام والعراق وكانوا يفضلون حملها بالبر على القوافل فراراً من أخطار الانواء في البحر الاحمر او خليج فارس لانهما أشد خطراً عندهم من بحر الهند . وكانت علائقهم التجارية على امتنها مع اخوانهم الفينيقيين يحملون اليهم أصناف الهند وغيرها على القوافل الى صور وغزة وغيرهما من شواطىء البحر المتوسط لتحمل من هناك الى سائر الشواطىء . والى ذلك أشار حزقيال بقوله مخاطباً صور (ص ٢٧ ع ٢١) « العرب وجميع رؤساء قيدار هم تجار يدك بالحملان والكباش والتيوس فانهم بهذه اتجروا معك . تجار شبا ورعمة متجرون معك وبافضل كل طيب وبكل حجر كريم وبالذهب أقاموا أسواقك . حاران وقانا وعدن وتجار شبا وأشور وكلمد متجرون معك »

وكان السبأيون يحملون من الجهة الاخرى مصنوعات صور ومحصولات الشام الى بلادهم وغيرها بطريق المبادلة قبل سبك النقود أهمها الحنطة والزيت والخمر ومصنوعات فينيقية أو ما يحمل من آسيا الشرقية كالمنسوجات الكتانية والقطنية والارجوان والميعة والزعفران والآنية من الحديد والصفر وسبائك الفضة لان هذا المعدن كان قليلاً في اليمن ولا يحملونه من الهند ولا من افريقيا . والفينيقيون انفسهم كانوا ينقلون بعض هذه المتاجر من الجنوب وان كانت اكثر أسفارهم الى الشمال وكان لهم على شواطىء خليج العجم مستودعات

طرق التجارة في بلاد العرب

كان للقوافل بين اليمن وفينيقية ومصر طرق خاصة فيها مراحل (محطات) ومرافق ومعدات وأقوام من اهل البادية يخفرونها . فالقافلة كانت تنتقل من حضرموت او عمان وتسير شمالا يخفرها عرب قيدار فيقطعون بها بادية الدهناء وما بعدها حتى تصل الى ددان فتعطف غرباً في نجد حتى تأتي الحجاز ومن هناك يستلم خفارتها المديانيون والادوميون او الانباط ويمرجون بها الى مكة او يثرب او المدينة ومنها الى بطرا عن طريق مدائن صالح . ومن بطرا تسير اما شمالا الى فينيقية وفلسطين فتدمر واما غرباً الى مصر . اما العراق فكانت التجارة تنتقل اليها بالقوافل رأساً من شرقي الجزيرة او بحراً من خليج فارس ومنه على القوافل الى تدمر . على ان البابليين كانت لهم مستودعات تجارية ايضاً على شواطىء ذلك الخليج مثل ما للفينيقيين في القريّة او

القطيف . وكان القريون يختصون بهذه التجارة الى بابل . وقد ذكر بلينيوس وبطليموس وغيرهما تفاصيل مهمة عن طرق التجارة ببلاد العرب وعينوا مسافاتها ومحطاتها مما لا محل له هنا

وكانت قوافل السبأيين تقاسي في أسفارها مشقات وأخطاراً من تعدي البدو في أثناء الطريق كما يصيب قوافل التجار او الحجاج في بوادي جزيرة العرب لهذا العهد فضلاً عن طول مدة السفر فتحولت الافكار نحو السفر البحري وهو أقرب تناولا وأقصر مسافة . فالبضائع التي تأتي للسبأيين من الهند وأفريقيا كانت تُخزن في موزا او عدن وبدلا من حملها بالقوافل براً الى بطرا او غزة أصبحوا ينقلونها في السفن بالبحر الاحمر الى خليج العقبة ومنها بالبر الى الشام او فلسطين او مصر. او ان ترسو السفن في القصير على البحر الاحمر وتنقل البضائع منها براً الى قفط على النيل . وكان المصريون قد سلكوا هذا البحر من عهد رعمسيس الثالث (ها كون) . وقد ذكرنا في كلامنا عن غزو المصريين بلاد العرب ان رعمسيس هذا بنى اسطولا أنزله البحر الاحمر وسافر فيه لارتياد بلاد الفنط (الحبشة والصومال) والارض المقدسة (بلاد العرب) وغرضه الرئيسي تسهيل التجارة البحرية بين مصر وأقصى الشرق وانه أنشأ طريقاً تجارياً برياً بين القصير وقفط وطريقاً بحرياً بين الاوقيانوس الهندي والنيل عن طريق بلاد العرب . ولما تولى سيتي الاول من العائلة التاسعة عشرة احتفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الاحمر تسهيلاً للعلائق التجارية بين مصر وجزيرة العرب او للدفاع او الهجوم عند الحاجة . والملاحة يومئذ محصورة بالفينيقيين في البحرين المتوسط والاحمر فكان ذلك الشعب النشيط يخترق البحار الى أقصى المعمور فاقتدى المصريون به

ولما مضى سيتي لم يخلفه من يعمل عمله فاهملت القناة ولم يكن المصريون أهل اسفار فبطلت الملاحة المصرية . واتفق على اثر ذلك سقوط صور واضطراب أحوال الفينيقيين وتوقف أسفارهم فاصبح البحر الاحمر في حاجة الى من يملكه فاتحد سليمان صاحب اورشليم وحيرام صاحب صور فانشأا السفن للتعاون على الملاحة . ولعله اول اشتراك دولي من هذا القبيل وجعلا المرفأ في ايلة (العقبة) تسير منها السفن في البحر الاحمر الى شواطىء بلاد اليمن تحمل منها البضائع الهندية والافريقية . ويقال انها كانت تستجلب تلك البضائع من مصادرها الاصلية . وفي سفر الملوك تفاصيل بهذا الشأن جاء فيها ذكر ملكة سبأ وخبرها مشهور . ولما مات سليمان توقفت الملاحة وعادت القوافل [1] وما زالت اليمن وسيلة التجارة في العالم القديم يشتغل بها المعينيون

(١) Lenormant, III, 266

والسبأيون والجبائيون والقتابيون والقريون حتى سلك الرومان البحور وعادت التجارة اليها فضعف امر العرب

٥ — الحضارة

أهل اليمن حضرٌ من أقدم ازمانهم ولذلك لم يطلق عليهم اسم « العرب » قديماً لانه كان يراد به « البدو » على الاجمال كما تقدم. فهم أهل مدن وقصور ومحافد وهياكل وأثاث ورياش لبسوا الخز وافترشوا الحرير واقتنوا آنية الذهب والفضة واغترسوا الحدائق والبساتين. قال اغاترسيدس « وللسبأيين في منازلهم ما يفوق التصديق من الآنية والاوعية على اختلاف أشكالها من الفضة والذهب وعندهم الاسرة والموائد من الفضة والرياش من افخر الانسجة واغلاها. قصورهم قائمة على الاساطين المحلاة بالذهب او المنزلة بالفضة يعلقون على افاريز منازلهم وابوابها صحائف الذهب مرصعة بالجوهر ويبذلون في تزيين قصورهم اموالا طائلة لكثرة ما يدخلونه في زينتها من الذهب والفضة والعاج والحجارة الكريمة وغيرها من المواد الثمينة »(١) ويؤيد ذلك ما جاء في شعر العرب من وصف القصور الفخمة كقول تبع يذكر بلقيس فقد قال في وصف عرشها :

عرشها رافع ثمانون باعاً　　كللته بجوهر وفريدِ
وبدرٍ قد قيدته وياقو　　ت بالتبر ايما تقييدِ

ومن قوله في مأرب :

ومأرب قد نطقت بالرخام　　وفي سقفها الذهب الاحمر

وذكر الهمداني في وصف قصر كوكبان انه « كان مؤزر الخارج بالفضة وما فوقها حجارة بيض وداخله ممرد بالمرمر والفسيفساء والجزع وصنوف الجوهر » وقال علقمة في وصف بينون :

واسأل بينون وحيطانها　　قد نطقت بالدر والجوهر

وقد ذكرنا كثيراً من هذا القبيل في باب قصور اليمن ومحافدها. ولم يقدم اليمنيون على هذا البذخ الا لتوفر الثروة بين ايديهم واغناهم السبأيون والقريون (٢)

٦ و ٧ — الدين واللغة

سيأتي الكلام على ذلك في باب أديان العرب ولغاتهم على العموم في الجزء الثاني من هذا الكتاب — وبقي من القحطانية على قول مؤرخي العرب دول الغساسنة والمناذرة وكندة سيأتي ذكرها في جملة عرب الشمال في الطور الثاني او الطبقة الثالثة

(١) Lenormant, III. 298　(٢) Strabon, III. 382

الطبقة الثالثة

العدنانية او الاسماعيلية

او عرب الشمال في الطور الثاني

أصولهم

نريد بعرب الشمال على الاجمال الاسماعيلية او العدنانية في اصطلاح كتاب العرب ومنازلهم شمالي بلاد اليمن في تهامة والحجاز ونجد وما وراء ذلك شمالا الى مشارف الشام والعراق وهم يرجعون بانسابهم الى اسماعيل بن ابراهيم . وحكاية اسماعيل عندهم مبنية على ما ذكرته التوراة من اخراج اسماعيل وامه هاجر الى برية بئر سبع وسكناه برية فاران . وان اولاده آباء القبائل التي أقامت ما بين حويلة الى شور وكانت شور عند برزخ السويس وحويلة خولان في شمالي اليمن وبينهما الحجاز ونجد وتهامة ومديان وجزيرة سينا

اما العرب فرواياتهم في أصل عرب الشمال تكاد تكون منقولة عن التوراة الا من حيث المكان الذي اقام فيه اسماعيل وامه فهم يجعلونه مكة بدل برية فاران ويقولون ان اسماعيل أقام بمكة وتزوج امرأة من جرهم أصحاب مكة في ذلك العهد فولدت له ١٢ ولداً . وليس لدينا رواية ثالثة عن اصل اولئك العرب . والروايتان متفقتان في ان اسماعيل ربي في البادية وانه كان رامياً بالقوس شأن اهل البادية وانه خلف ١٢ ولداً اسماؤهم تطابق اسماء بعض قبائل الشمال . وانما اختلفوا في المكان الذي أقام فيه اسماعيل . فالتوراة تقول انه برية فاران او جبل فاران وكلاهما عند العقبة شمالي جزيرة سينا والعرب يقولون انه مكة بالحجاز ويسهل تطبيق الروايتين متى علمنا ان جبال مكة او جبال الحجاز تسمى ايضاً فاران[1] فيكون المراد ان البرية التي اقام فيها اسماعيل برية الحجاز او انه اقام حيناً في سينا ثم خرج الى الحجاز وسكن هناك وتزوج . والتوراة لم تذكر اسماعيل بعد خروجه من بيت ابيه الا عند حضوره دفنه على عادتهم من

(١) المشترك وضعا لياقوت ٣٢٧

الاختصار في ما يخرج عن تاريخ أمة اليهود أودياناتها . وليس لدينا مصادر أخرى تنافي هذه الرواية أو تؤيدها ولا فائدة من الاخذ والرد فيها فنتركها ونعول على الثابت من أخبار عرب الشمال أو المتواتر الذي لا يخالف العقل أو النقل

قد رأيت في كلامنا عن الطبقة الاولى من العرب في صدر هذا الكتاب ان العمالقة وسائر القبائل البائدة كان مقامها في شمال جزيرة العرب الى مشارف الشام وضفاف الفرات وشواطيء النيل . وقد ذكرنا ذهاب تلك الدولة بتوالي الاجيال وانما أردنا ذهاب دولها أو سيادتها وذلك لا ينافي وجود بعض قبائلها أو شعوبها في حال البداوة أو الحضارة ولم تترك آثاراً منقوشة فذهبت أخبارها كما ذهبت أخبار كثير من الامم قبل زمن التاريخ . ولا بد من تغييرات توالت عليها أوجبت نهوضها وتقهقرها مع تغيير حدث في مساكنها شأن أهل البادية في الانتقال والرحلة ولم يصل الينا من أخبارها الا القليل . ومن جملة تلك التغييرات نزول اسماعيل أو بعض ابنائه بينها . وكان لهذا النزول تأثير في أحوالها اكثر من تأثير سواه حفظته التقاليد مما لا نبحث فيه الآن وانما ننظر في أولئك العرب باعتبار انهم شعوب مشتركة في الانساب ولها عادات واخلاق وأحوال تميزها عن عرب اليمن أو القحطانية . وعرفت قبائل الشمال في تاريخ العهد القديم باسم الاسماعيلية نسبة الى اسماعيل والعرب يسمونها أيضاً عدنانية نسبة الى عدنان أحد اعقاب اسماعيل

الفروق بين القحطانية والاسماعيلية

اهم الفروق بين هذين الشعبين نظام الاجتماع واللغة والدين وأسماء الاعلام كما يأتي :

١ً نظام الاجتماع : قد رأيت في كلامنا عن العرب في صدر هذا الكتاب ان لفظ « العرب » أريد به في الاصل سكان بادية جزيرة العرب في الشمال ثم أطلق على سائر سكانها وقلنا ان لفظ العرب باللغات السامية يرادف لفظ البدو عندنا . فالعرب هم البدو وهذا التعبير يصدق على عرب الشمال الذين نحن في صددهم فهم في الاكثر أهل خيام وابل ورحلة وغزو لا يستقرون في مكان لان معاشهم من كسب الابل والقيام عليها في ارتياد المرعى وانتجاع المياه والنتاج والتوليد وغير ذلك من مصالحها والفرار بها من أذى البرد عند التوليد الى القفار ودفئها وطلب التلول في المصيف للحبوب وبرد الهواء . لا يبنون بيوتاً ولا ينشئون مدناً بخلاف أهل اليمن فاكثرهم اصحاب قصور ومحافد ومدن وأسوار ومغارس وحدائق

٢ً اللغة : ان لغة اليمن أو عرب الجنوب تعرف بلغة حمير وهي تختلف كثيراً عن

لغة عرب الحجاز أو الشمال وان كانتا من أصل واحد . ولكن الفرق بينهما يدلّ على تباعد اصحابهما في العادات والاخلاق فهما تختلفان في الاعراب وفي الضمائر وفي كثير من أحوال الاشتقاق والتصريف مما سنأتي عليه عند كلامنا على لغات العرب

٣ً الاديان : يشترك هذان الشعبان في كثير من ضروب العبادة وفي عبادة بعض الاصنام ولكنهما يختلفان في الاجمال . فآلهة اليمن أقرب الى معبودات البابليين وعندهم عشتار وايل وبعل وغيرها . وأما الشماليون فيشتركون في عبادات تختلف عن تلك كاللات والعزى ومناة وهبل وغيرها مما سنبينه في فصل الدين

٤ً الاسماء : لكل من الطائفتين اسماء خاصة لا تشاركها فيها الطائفة الاخرى . ولا يخفى ما للاسماء من الدلالات الاجتماعية فاسماء اليمنيين في الدولتين المعينية والسبأية تشبه اسماء الدولة الحمورابية أو البابلية كما بيناه في محله كقولهم اب يدع واليفع ويثع ايل ومعدي كرب وابو كرب وعلهان واليشرح وكرب ايل وذمر علي ووهب ايل ويامر انعم وشمر يرعش ونحو ذلك مما لا شبيه له عند عرب الشمال في الطور الثاني . ويختص هؤلاء باسماء لا تجدها عند اليمنيين لانها من مقتضيات البداوة ولذلك رأيت بينهما كثيراً من اسماء الحيوانات لكثرة وقوع أبصارهم عليها فالفوها وأصبح لكل منها رمز عن خلق أو خصلة فسموا أبناءهم بها وليس ذلك من بقايا الطوتمية كما توهم بعضهم [1] فمن اسمائهم من هذا القبيل أسد ونمر وثعلبة وكلب وبكر وثعبان ونحوها

وبعض اسمائهم تنسب الى آلهتهم كعبد اللات وعبد العزي وعبد مناة وبعضها مقتبس من الامم المجاورة لهم كاليونان والسريان وقد حرفوها فامرء القيس مثلاً نظنه تحريف ماركوس (مرقس) وربما تعمدوا تحريفه ليكون له صبغة عربية كما حرفوا « سامرّا » فجعلوها « سرّ من رأى »وكما جعلوا دوسارس المعبود اليوناني«ذو الشرى» ويؤيد ذلك ان هذا الاسم (امرء القيس) لم يكن معروفاً عند العرب قبل النصرانية أو قبل مجاورتهم اليونان

وقد يتسمون باسماء اليونان بعد ترجمتها « فالحارث » يجوز ان يكون ترجمة جيورجيوس اليونانية ومعناها العامل في الارض . و « صخر » ترجمة بطرس ونحو ذلك . وبعض اسماء أولئك البدو مأخوذ من الاوصاف أو المناقب مثل سعيد وعامر وحسان وعلي ومحمد ونحوها . ولا عبرة بما أدخله العرب منها بين أسماء ملوك حمير مثل الحارث وعمرو فانه قليل ولم نجد له ذكراً في الآثار المنقوشة

---

(١) راجع كتاب أنساب العرب القدماء لمؤلف هذا الكتاب

اقدم اخبار العدنانيين او عرب الشمال

يؤخذ من القرائن التي تقدمت ان عرب الشمال في الطور الثاني تتصل أخبارهم باقدم تاريخ تلك الجزيرة ولا سيما اذا اعتبرنا حكاية اسماعيل تاريخية وعددناها بدء تاريخ جديد لاولئك العرب . لان الاسماعيلية يبدأ تاريخهم في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ومع ذلك فليس لدينا من أخبارهم القديمة ما يعول عليه كأن أولئك العرب كانوا في سبات ولم يستيقظوا الا حوالي التاريخ المسيحي . والغالب انهم كانوا خاملي الذكر لانهم لم ينشئوا دولاً وكانت دول العرب الاخرى في اليمن ومشارف الشام والعراق وغيرها تستخدمهم في نقل التجارة على القوافل بين ممالك ذلك التمدن ويعبرون عنهم تارة بالاسماعيلية وطوراً بقيدار أو غيرها

واقدم ما ذكره العرب عن أخبار الاسماعيلية مأخوذ اكثره عن اليهود وعليه صبغة عربية خلاصته ان اسماعيل لما نزل مكة كان فيها بقية من جرهم وآخرهم مضاض بن بشير فتزوج اسماعيل من بناتهم وتعلم العربية منهم وتناسل فيهم وأولاده هم العرب الاسماعيلية ويسمونهم المستعربة لانهم دخلوا في العرب وهم ليسوا منهم كما فعل القحطانية في اليمن قبلهم . وأشهر اولاد اسماعيل قيدار توّجه اخواله وعقدوا له الملك عليهم بالحجاز واسمه وارد في التوراة . وتناسل من قيدار أعقاب كثيرة حتى ولد عدنان . والعرب مختلفون في عدد الآباء بين اسماعيل وعدنان فقال بعضهم انهم اربعون أباً وقال آخرون انهم عشرون أو خمسة عشر أو اقل من ذلك . ومن عدنان تناسل العرب الاسماعيلية فعندهم ان عدنان ولد عكاً ومعدًّا ومعد هو أبو القبائل العدنانية أو الاسماعيلية كما سترى

واقدم ما علمناه من أخبار هذه القبائل وصل الينا عن طريق التوراة . فقد جاء في سفر التكوين بانباءِ قصة يوسف بعد ان طرحه اخوته في البئر قوله « ثم جلسوا يأكلون ورفعوا عيونهم ونظروا فاذا بقافلة من الاسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم محملة نكمة وبلساناً ولاذناً وهم سائرون لينزلوا الى مصر » [١] وكان ذلك في القرن الثامن عشر قبل الميلاد وكان الاسماعيليون يحملون التجارة الى مصر وهم الذين اشتروا يوسف وباعوه بمصر

ثم جاء ذكرهم في سفر القضاة بعد ذلك الحين بخمسة قرون وهم يحاربون الاسرائيليين ويسمون هناك تارة « بني المشرق » وطوراً « الاسماعيليين » [٢] وبعد

(١) سفر التكوين ص٣٧ عدد ٢٥ (٢) القضاة ص٦ عدد ٣٣ و ٧ : ١٢ و ٨ : ٢٤ و٢٦

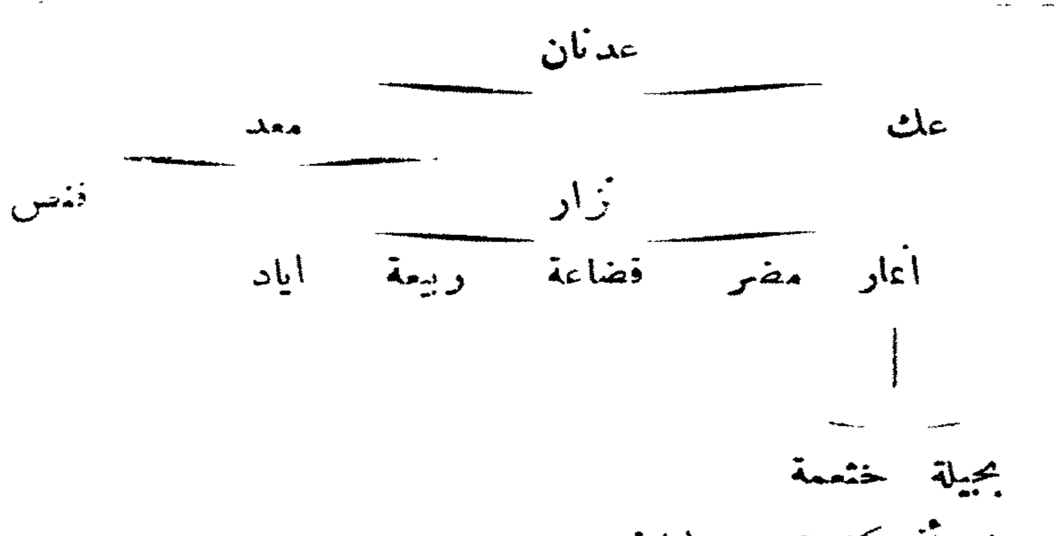
ذلك بخمسة قرون أخر ذكر أولئك العرب في سفر أشعيا باسم « قيدار » وهو في التوراة ابن اسماعيل فيراد باسمه قبيلة الاسماعيلية على الاقل وهو يتنبأ بقرب زوال مجدهم [١] واصبح الاسماعيلية في عرف التوراة من ذلك الحين قبيلتين قيدار ونبيت وظن بعضهم ان المراد بالنبيت او النبيط الانباط أصحاب بطرا وعارضهم آخرون

وبعد أشعيا بقرن وبعض القرن (في القرن السادس قبل الميلاد) جاء نبوخذنصر الذي يسميه العرب بختنصر واكتسح شمالي جزيرة العرب وغلب على الاسماعيلية أو بني قيدار أو بني المشرق في البادية . وقد جاء ذلك الخبر في أسلوب التحذير أو النبوءة قال « على قيدار وممالك حاصور التي ضربها نبوخذ نصر ملك بابل هكذا قال الرب قوموا اصعدوا الى قيدار ودمروا أبناء المشرق انهم يأخذون اخبيتهم وغنمهم ويستولون على شققهم وجميع أدواتهم وابلهم وينادون عليهم بالهول من كل جهة » [٢] ذلك آخر ما ذكرته التوراة عن الاسماعيلية

ويظهر في كل حال ان تلك القبائل كانوا أهل ماشية وخيام وابل وكانوا يحملون التجارة ولهم شأن وثروة وذهب وارجوان . وقد ذكرنا ما قاله حزقيال عن العرب وقيدار في عرض رثائه مدينة صور . وجاء في سفر القضاة « قال لهم جدعون اني اقترح عليكم أمراً واحداً يعطيني كل واحد منكم خرصاً من غنيمته فقد كانت لهم خرصان من ذهب لانهم اسماعيليون فقالوا لك ذلك وبسطوا رداء فالقى عليه كل امرىء منهم خرصان غنيمته وكان وزن الخرصان الذهب التي طلبها الفاً وسبع مئة مثقال ذهب ما خلا الاهلة والنطفات والثياب الارجوانية التي كانت على ملوك مدين وما خلا القلائد التي كانت في اعناق جمالهم » [٣]

أما العرب فاقدم ما ذكروه من احوال الاسماعيلية انما يأتي متمماً لاخبار التوراة ولعلهم اخذوه عن اليهود او بنوه على رواياتهم نعني غزوة بختنصر العرب وقد اوردناها في كلامنا عن غزوة الاشوريين بلاد العرب . ثم سكت المؤرخون عنهم دهوراً كأن بختنصر اضعفهم فتفرقوا وذهبت شهرتهم أو خفيت اخبارهم . ثم تكاثروا وعادوا الى الظهور في اوائل النصرانية او قبيلها وهم قبائل وأمم ذات شأن ملأوا تهامة وتفرقوا فيها الى الحجاز ونجد وبادية الشام وغيرها في ازمان متفاوتة القبيلة بعد القبيلة وترجع كلها الى خمسة اصول لكل اصل منها فروع عديدة . اما الاصول المشار اليها فيتصل نسبها بعدنان على هذه الصورة :

(١) اشعيا ص ٢١ عدد ١٦ و ١٧ (٢) يهوديت ٢ ع ٣ ونبوءة ارمياء ٤٩ ع ٢٨
(٣) القضاة ٨ ع ٢٤ و٢٦



اما الفروع فسيأتي كل مجموع منها في محله

عرب عدنان

منازلهم في تهامة ونجد والحجاز

كانت العرب العدنانية بادية اقامت في تهامة والحجاز ونجد الا قريشاً فقد تحضروا في مكة . وتقسم العدنانية اولا الى فرعين عظيمين عك ومعد . اما عك فنزلت في نواحي زبيد جنوبي تهامة وقد ذكرها اليونان في كتبهم فسموها [illegible] وبقي من عك بقية الى ايام الاسلام وليس لهم تاريخ يذكر

اما « معدّ » فهو البطن العظيم ومنه تناسل عقب عدنان كلهم واذا قال العرب « معدّ » يريدون القبيلة لا الرجل . فاذا صحت غزوة بختنصر كما ذكرها العرب كانت معد قبيلة كبرى في القرن السادس قبل الميلاد . وانقسمت الى فرعين كبيرين نزار وقنص والكثرة والنسل في نزار وهم عدة فروع اشهرها خمسة قضاعة ومضر وربيعة واياد وانمار وكانت منازلهم في تهامة والحجاز ونجد على هذه الصورة [1]

كانت مساكن قضاعة ومراعي انعامهم جدّة من شاطىء البحر الاحمر فما دونها شرقاً الى منتهى ذات عرق وهي الحد بين نجد وتهامة الى حيز الحرم من السهل والجبل . وقبائل مضر اقامت في حيز الحرم الى السروات وما دونها من الغور وما

(١) البكري ١٣

والاها من البلاد . واقامت ربيعة في مهبط الجبل من غمر ذي كندة (بينه وبين مكة مسيرة يومين) وبطن ذات عرق وما صاقبها من بلاد نجد الى الغور من تهامة . واقامت اياد وانمار معاً ما بين حد ارض مضر الى حد نجران وما والاها وصاقبها . وصار لقنص وغيره من ولد معد ارض مكة وأوديتها وشعابها وجبالها وما صاقبها من البلاد

وما زالت هذه القبائل في منازلها هذه بوفاق كأنهم قبيلة واحدة في اجتماع كلمتهم وائتلاف اهوائهم تضمهم المجامع وتجمعهم المواسم حتى وقعت الفتنة بينهم فتفرقت جماعاتهم وتباينت مساكنهم والى ذلك يشير المهلهل بقوله :

غنيت دارنا تهامة في الدهـ ـر وفيها بنو معدٍّ حلولا
فتساقوا كأساً امرَّت عليهم بينهم يقتل العزيز الذليلا

واليك ما يذكره العرب من اخبار هذه القبائل واسباب تفرقها كل على حدة

١ ــ قضاعة

هي اول من نزح من قبائل معد . وبعض النسابين يعدّون قضاعة من القحطانية والارجح عندنا انها من عدنان . وكان السبب في نزوحها حرباً وقعت بينها وبين ربيعة بسبب فتاة ربيعية تعشقها رجل قضاعي من بني نهد وانتصرت مضر واياد وانمار لربيعة وانتصرت عك لقضاعة فدارت الدائرة على قضاعة فاجلوا عن اماكنهم ويمموا نجداً وفي ذلك يقول عامر بن ظرب وهو من مضر :

قضاعة اجلينا من الغور كله الى فلجات الشام تزجي المواشيا
وما عن تقالٍ كان اخراجنا لهم ولكن عقوقاً منهم كان باديا
بما قدم الهنديُّ لا درَّ درهُ غداة تمنى بالحرار الامانيا

وتقسم قضاعة الى بطون تفرقت في جزيرة العرب في نجد والبحرين ومشارف الشام فانشأ بعضها دولاً في العراق والشام وغيرهما وظل الباقون بادية رحلاً . اما بطون قضاعة فهي مع اسماء منازلها :

(١) تيم اللات : نزحت الى البحرين وكان فيها قوم من النبط فاجلوهم واقاموا مكانهم

(٢) زيد بن حلوان : نزلوا عبقر من ارض الجزيرة بالعراق واليهم تنسب الزرابي العبقرية والبرود الزيدية

(٣) سليح : نزلوا مشارف الشام وفلسطين وكانت لهم دولة سيأتي خبرها

(٤) اسلم : هم اربعة افخاذ عذرة ونهد وحوتكة وجهينة نزلوا جميعاً الحجر بوادي القرى ثم نزحوا الى نجد

(٥) تنوخ : نزلوا البحرين ثم رحلوا الى الحيرة وانشأوا بها دولة سنذكرها

(٦) ربان بن حلوان : هي ثلاثة افخاذ كلب وجرم والعلاف لحقوا بالشام

(٧) بلي وبهرا : نزحوا الى بلاد اليمن حتى نزلوا مأرب واقاموا بها زماناً ثم تفرقوا فجاء بلي الى ما بين تيماء والمدينة — وهذا جدول يوضح تفرع قبائل قضاعة باختصار :

قضاعة
- اسلم — جهينة
- سليح — معد — ضجعم — عوف — عمر | هبولة — زياد / هبالة — داود اللثق
- زيد
- عمران — حلوان
- ربان
- تغلب — وبرة | النمر / اسد - تيم اللات — تنوخ / كلب — كنانة
- عمرو | بهرا / بلي

ولم يكن نزوح هذه البطون وغيرها من قضاعة دفعة واحدة ولا نظن السبب الذي ذكروه لنزوحها صحيحاً او لعله بعض السبب . واما السبب الحقيقي فهو البداوة لان اهل البادية اذا تكاثروا مع الزمن تضيق بهم مواطنهم لتقاعدهم عن الزرع وقلة عنايتهم في اصلاح الارض واستثمارها . ينزلون المكان وفيه من الماء او الكلإ ما يكفيهم فاذا تكاثروا وتناصر عن كفايتهم ذهب بعضهم يطلبون سواه — غير ما قد يدعو الى النزوح من اسباب العدوان وطلب الغزو

وكان بنو قضاعة اقدم النازحين من بني عدنان ويظهر انهم نزحوا حوالي تاريخ الميلاد او قبله قليلاً فمن نزل البلاد العامرة انشأ دولاً وفتح مدناً ومن نزل البادية ضاعت اخباره . على ان لكل فرع من فروعهم شأناً خاصاً واخباراً وصل الينا بعضها مختلطاً متضارباً فلا نذكر منهم الا الذين انشأوا الدول او كان لهم تأثير سياسي في تاريخ ذلك العصر

دول قضاعة

قد رأيت ان بطون قضاعة كثيرة ولم يصل الينا من اخبارهم الا القليل . ويقال بالاجمال انهم نبغوا وانساحوا في الارض حوالي تاريخ الميلاد . ولعلهم هبوا للفتح على أثر دخول الجنود الرومانية بلادهم بحملة اليوس غالوس قبيل الميلاد كما تقدم . فان مثل هذه النهضة طبيعي بعد الحركات الحربية كما حدثت نهضة قريش قبيل الاسلام بعد هجوم الاحباش على مكة في عام الفيل . ويؤيد ذلك ما جاء في كتب العرب ان قضاعة كانوا في تهامة ثم نزحوا الى البحرين [١] فلعل نزوحهم كان فراراً من جند الروم . ووافق ذلك تضعضع ملوك الطوائف في العراق وفارس وهم يسمعون بخيرات تلك البلاد وخصبها بالنظر لباديتهم فحملوا على العالم المتمدن يلتمسون الرزق . او ربما كان لنزوحهم سبب آخر . وفي كل حال فقد مرَّ بمشارف الشام والعراق بضعة قرون كان يتنازع السيادة عليها القضاعيون كما كان يتنازعها قبلهم النبطيون والتدمريون وكما تنازعها بعدهم الغساسنة والمناذرة

واشهر بطون قضاعة التي كان لها تأثير في التاريخ اربعة وهي :

١و٢ — جهينة وبلي

هما القسم الغربي من بطون قضاعة وكانت منازل جهينة من حدود رضوى والاشعر الى واد ما بين نجد والبحر . ومنازل بلي في حدود جهينة شمالا الى حد تبوك ثم الى جبال الشراة ثم الى معان ثم راجعاً الى ايلة الى المغار ثم الداروم ثم الجفار غرباً الى الفرما في حدود مصر [٢] وبعبارة اخرى كانت منازلهم ما بين ينبع ويثرب وحدود مصر في متسع من برية الحجاز وعلى شواطىء البحر الاحمر كانهم كانوا يشغلون الجزء الشمالي من الحجاز العربي وبرية سينا الى حدود مصر . ولم تكن لهم دولة وملوك ولكنهم غلبوا على بادية مصر وصعيدها اجيالا . فقد ذكر ابن خلدون انهم « اجتاز منهم امم الى العدوة الغربية من البحر الاحمر وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكثروا هناك سائر الامم وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم وازالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فارهقوهم الى هذا العهد » [٣]

ويوافق ذلك ما ذكره اليونان عن اخبار مصر لاوائل النصرانية فقد ذكر استرابون وبلينيوس « ان العرب تكاثروا في ايامهما على العدوة الغربية من البحر

(١) حمزة ٩٤ (٢) الهمداني ١٣٠ (٣) ابن خلدون ٢٤٧ ج ٢

الاحمر حتى شغلوا ما بينه وبين النيل في اعلى الصعيد واصبح نصف سكان قفط منهم . وكانت لهم جمال ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر والنيل » وكان العرب في ايام أوغسطس قيصر باوائل النصرانية قد دوخوا الحبشة وتملكوها واوغلوا في بلاد النوبة ولهم فيها وفي مصر طرق مختصرة يعرفونها . وبالغ اليونان في وصف خشونتهم وحبهم الغزو وقالوا « ان زعماءهم يدهنون وجوههم بالزنجفر كما يدهنون وجوه آلهتهم وانهم يقاتلون للغزو لا للفتح حتى ضايقوا مصر واضطر اليونان ان يقيموا الحامية عند شلال اصوان . واتفق في اثناء ذلك تجريد الروم لفتح بلاد العرب بقيادة اليوس غالوس المتقدم ذكره ومعه معظم جند مصر فانتهز اولئك العرب تلك الفرصة وزحفوا على الصعيد وضايقوا اهله » ويسميهم المؤرخ « عرب الاحباش » وكانت عليهم ملكة يقال لها قنداقة وتغيرت لغة الاثيوبيين وعاداتهم بنزول اولئك العرب فيها فبعد ان كانت مصرية أصبحت عربية (١)

فيستدل من ذلك ان العنصر العربي كان في اوائل النصرانية غالباً على صحراء مصر الشرقية والحبشة والنوبة فان لم يكن المراد بهم قبيلتي جهينة وبلي اللتين ذكرهما ابن خلدون فقد مهدتا فتح تلك البلاد لهم لان الرومانيين ما زالوا منذ دخلت مصر في حوزتهم وهم يجردون الجند لرد هجمات العرب والعرب يهزمونهم

٣ — تنوخ

جذيمة الابرش

تنوخ فرع كبير من قضاعة جاء ذكره في كتب اليونان وهم يلفظونه « تانويت » Thanouite (٢) وذكر النسابون ان تنوخاً مزيج من قضاعة والازد قالوا « ان زعيماً من الازد اسمه مالك بن فهم اتى البحرين والتقى هناك بزعيم من قضاعة اسمه مثل اسمه فتحالفا على التعاون في القتال فسموا « تنوخاً » وكان ذلك في ايام ملوك الطوائف او في اوائل النصرانية (٣)

وكان لتنوخ دول في مشارف الشام والعراق اقدمها في العراق لجذيمة الابرش او الايرص او الوضاح بن مالك بن فهم المذكور . والعرب مختلفون في نسبه ويرى المسعودي وحمزة انه من تنوخ قضاعة (٤) وهو الراجح عندنا جرياً على ما يقتضيه سياق التاريخ .

---

(١) Sharpe, II. 90 & 37 (٢) Sprenger, 208 (٣) حمزة ٩٥

(٤) المسعودي ٢٠٠ ج ١ وحمزة ٩٤

ولهذه الدولة شأن في تاريخ العرب لانها مهدت السبل لدولة المناذرة اصحاب الحيرة وكانت دار ملكها في المضيرة بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا . واول ملوكها مالك بن فهم وخلفه ابنه جذيمة المتقدم ذكره وذكروا انه كان معاصراً للزباء وله معها واقعة ذكرناها في كلامنا عن تدمر — فهو اذن من اهل القرن الثالث للميلاد

وكان جذيمة ملكاً عظيماً ثاقب الرأي شديد النكاية ظاهر الحزم ذكروا انه اول من غزا بالجيوش فشنَّ الغارات على قبائل العرب واستولى من السواد على ما بين الحيرة والانبار والرقة وعين التمر والقطقطانية وسائر القرى المجاورة لبادية العراق فكان يجبي أموالها وله هيبة وسطوة فمدحه الشعراء واستجدوه . ولم يكن له غلام ذكر يرث ملكه فبعد ان ملك ستين سنة خلفه على ملكه ابن اخته عمرو بن عدي وهو أول من اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب واول ملك ذكره اهل الحيرة في كتبهم وهو جدُّ دولة آل نصر او لخم ومنهم المناذرة [١] وسيأتي ذكرهم

أما تنوخ الشام فجاؤها عند انحلال دولة النبطيين في بطرا وكانت دولة الروم قد ملكت الشام فقربوهم واستعملوهم على بادية العرب ومشارف الشام كما استعملوا اخوانهم بني سليح ثم الغساسنة بعدهم . واخبار دولة تنوخ هذه مضطربة متناقضة لم يذكر العرب من ملوكها الا ثلاثة هم النعمان بن عمرو وعمرو بن النعمان والحواري بن عمرو [٢] ولم يذكروا شيئاً من اعمالهم ولا زمن ملكهم على انه لم يطل فغلبهم على تلك البلاد بطن آخر من قضاعة اسمه سليح — وتفرقت تنوخ واقام بعضها في قنسرين [٣]

٤ — سليح

جاءت سليح مشارف الشام مع التنوخيين اخوانهم لكنهم لم يملكوا الا بعدهم . وكانت الدولة في بطن من بطونهم يقال لهم « الضجاعمة » خلفوا التنوخيين على حكومة مشارف الشام وكان نزولهم في بلاد مواب من ارض البلقاء وفي سلمية وحوارين والزيتون [٤] ولم يذكر العرب من ملوكهم الا ثلاثة هم النعمان بن عمرو بن مالك ومالك بن النعمان وعمرو بن مالك [٥] كانوا يملكون العرب في مشارف الشام ويأخذون منهم الاتاوة ديناراً عن كل رجل ويجمعونها للروم عند الحاجة الى حرب او عمل يستطيعونه . وما زالوا على ذلك حتى غلبهم الغساسنة على الشام وحلوا محلهم كما سيجيء

(١) حمزة ٩٦ (٢) ابن خلدون ٢٤٩ ج ٢ واليعقوبي ٢٣٤ ج ١ والمسعودي ٢٠٦ ج ١ (٣) ياقوت ١٨٥ ج ٤ (٤) الهمداني ١٧٠ (٥) المعارف ٢١٥

والظاهر ان ملوكهم كانوا اكثر من ذلك فقد ذكر اصحاب الاخبار ان بني غسان لما اتوا مشارف الشام كانت في حوزة الضجاعم وعليهم ملك منهم اسمه زياد اللثق بن هبولة فطالب الغسانيين بالاتاوة فاستنكفت وأبت اداءها فاقتتل الفريقان ودارت الدائرة على غسان وأقرت بالصغار وأدت الاتاوة حتى صارت حكومة الضجاعم الى سبطة بن المنذر بن داود وقيل سبيط بن ثعلبة بن عمرو . وفي ايامه تغلب الغسانيون وأخرجوا الضجاعمة من الشام في حديث ذهب مثلاً . وذلك ان سبيطاً لما طالب الغسانيين بالاتاوة كان اميرهم ثعلبة بن عمرو وشدد في طلبها وكان ثعلبة حليماً فقال « هل لك في من يزيح علتك في الاتاوة » قال « نعم » قال « عليك باخي جذع بن عمرو » وكان جذع فاتكاً فاتاه سبيط نخاطبه بذلك نخرج عليه ومعه سيف مذهب وقال « هل فيه عوض من حقك » اي من ان أجمع لك الاتاوة قال « نعم » فقال « خذه » فمد سبيط يده وتناول غمد السيف فاستل جذع نصله وضربه حتى قتل فقيل « خذ من جذع ما اعطاك » وذهبت مثلاً [١] وصارت مشارف الشام الى غسان من ذلك الحين — هذا ما رواه العرب وفي تاريخ الروم ان اميراً من العرب في القرن الرابع للميلاد اسمه زكوموس Zkomos صار من عمالهم المعروفين برتبة فيلارك Phylarch [٢] فربما كانت زكوموس تحريف ضجعم هذه

مدينة الحضر

فلما غُلب الضجاعمة على امرهم بالشام نزح بعضهم الى العراق ونزلوا الجزيرة وفيها مدينة يقال لها الحضر قرب تكريت بينها وبين الموصل والفرات ويسميها اليونان (اترا) Atra وكانت حصينة عليها الابراج والقلاع يتولاها حاكم جرمقاني من اهلها اسمه الساطرون وعلى الضجاعمة ملك اسمه الضيزن فتح الحضر وتولاها حيناً وكانت الدولة الساسانية في اوائلها فلما أفضى الملك الى سابور بن اردشير وهو سابور الاول ورأى من الضيزن طمعاً وغزواً سار اليه وحاربه وفتح المدينة بعد ان حاصرها اربع سنين . وتتبعهم سابور حتى اخرجهم من بلاده [٣] وذهب ملك الضجاعمة من ذلك الحين

سائر قضاعة

كلب : وكان لقضاعة ايضاً دولة صغرى في دومة الجندل وتبوك في اعالي الحجاز

(١) ابن خلدون ٢٧٩ ج ٢ وحمزة ١١٥ (٢) Noeldeke (٣) ابن خلدون ٢٤٩ و١٧١ ج ٢

حكامها من كلب من قضاعة خلفهم عليها السكونيون من كندة

وكان لقضاعة بطون اخرى أقامت في اماكن مختلفة من جزيرة العرب في البحرين ووادي القرى واليمن كما تقدم ولكنهم لم يكن لهم دولة تذكر

فانتقال القضاعيين الى شمالي جزيرة العرب نهضة عربية في طلب الفتح او التوسع في الرزق من جملة نهضات كثيرة مما علمناه او لم نعلمه أهمها وأكثرها تأثيراً نهضتهم في زمن المسلمين فانهم قلبوا فيها العالم وغيروا وجه التاريخ

٢ ـ انمار

فلنرجع الى تفرق قبائل عدنان من تهامة فبعد قضاعة ضاقت تهامة عن انمار فنزحت والعرب يجعلون سبب النزوح خصاماً بينها وبين مضر وان انمار فقأ عين اخيه مضر وهرب ولعلهم يرمزون بذلك عن شيء . وانهما بطنان بجيلة وخثعم قطعنا الى جبال السروات فنزلوها وملكوها وتخاصموا عليها في خبر طويل وتفرقت بطون بجيلة من الحروب التي كانت بينهم

٣ ـ اياد

ثم نزحت اياد من تهامة ذكروا أن السبب في نزوحها حرب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر في خانق وغلبت اياد على امرها فخرجت من تهامة الى العراق وفي ذلك يقول احد بني حفصة من مضر :

اياداً يوم خانق قد وطينا بخيل مضمرات قد برينا
تمادا بالفوارس كل يوم غضاب الحرب تحمي المحجرينا
فابنا بالنهاب وبالسبايا وأضحوا بالديار مجندلينا

ونزلت اياد في سواد العراق قرب مكان الكوفة . اقاموا هناك دهراً وانتشروا في تلك الانحاء وكانوا يغزون اهل العراق على عادة عرب البادية والعجم يحملون منهم حتى تولى كسرى انو شروان فاغارت اياد على نساء من الفرس فاخذوهن فغزاهم كسرى فقتل منهم ونفاهم عن ارض العراق فنزل بعضهم تكريت وبعضهم الجزيرة وارض الموصل فاستنصر عليهم قوماً من بكر وائل ففتكت بهم وتفرقوا في ارض الروم وبلاد الشام . وقيل في سبب نكبتهم غير ذلك [1]

(١) البكري ٧

٤ — ربيعة

لم يبق من بني معدّ في تهامة من القبائل الكبرى الا ربيعة ومضر وهما أكبرها . فنزحت اولاً ربيعة بسبب فتن قامت بين قبائلها وهذه أهم تلك القبائل بحسب تفرعها : (انظر الجدول) . واشهر القبائل التي نزحت منها عبد القيس نزلت البحرين وهجر وفيها اياد فاجلت اياداً وغلبت عبد القيس على البحرين واقتسموها بين قبائلهم وهي كثيرة

ونزلت قبائل أخرى من ربيعة في نجد والحجاز واطراف تهامة وما والاها ونزلت قبائل منها في بلاد اليمن فخالفت أهله ومنهم اكلب . وقامت سائر قبائل ربيعة في ظواهر نجد والحجاز وهم بكر وتغلب وعنزة وضبيعة حتى وقعت الحرب بينهم في قتل جساس كما سيجيء

وما زالت الوقائع والحروب تنقلهم من أرض الى أرض وتغلب في كل ذلك ظاهرة على بكر حتى التقوا يوم قضة وهي عقبة في عارض اليمامة فكانت الدائرة لبكر على تغلب فتفرقوا وتبددت تغلب في البلاد وانتشرت بكر بن وائل وعنزة وضبيعة باليمامة فيما بينها وبين البحرين الى أطراف سواد العراق ومناظرها وناحية الابلة الى هيت. وانحازت النمر وغفيلة الى اطراف الجزيرة وعانات وما دونها الى بلاد بكر بن وائل وما خلفها من بلاد قضاعة من مشارف الارض [1] — (راجع الخريطة الثامنة من خرائط هذا الجزء)

ربيعة { اسد ، ضبيعه }
اسد { عنزة ، جديلة ـ افصى }
افصى { هنب ـ قاسط ، عبد القيس }
قاسط { نمر ، وائل }
وائل { بكر ، تغلب — جشم }
بكر { علي ـ صعب ، يشكر ـ كعب }
صعب { لجيم ، عكابة ـ ثعلبة }
لجيم { حنيفة ، عجل }
ثعلبة { شيبان — ذهل — مرة ، قيس — ضبيعة — مالك ، ذهل — شيبان — سدوس }

اللواء في ربيعة

ولربيعة شأن عظيم في تاريخ العرب لانها هي التي بدأت باخراج العدنانية من سيطرة اليمن أو غيرها وطلبت الاستقلال كما يجيء . وكان من نظامهم في اجتماعهم للحرب او

(١) البكري ٥٦

الغزو ان يكون اللواء للاكبر فالاكبر . فكان لواؤهم أي زعامتهم في عنزة وكانت سنتهم ان يوفروا الجامم ويقصوا شواربهم فلا يفعل ذلك من ربيعة الا من يخالفهم ويريد حربهم ثم تحول اللواء الى عبد القيس وكانت سنتهم اذا شتموا لطموا واذا لطموا قتلوا من لطمهم . ثم تحول اللواء في النمر بن قاسط وكان لهم غير سنة من تقدمهم . ثم تحول الى بكر بن وائل فساءوا غيرهم في فرخ طائر كانوا يوثقونه بقارعة الطريق فاذا علم الناس بمكانه لم يسلك أحد منهم ذلك الطريق ومن اضطر للمرور سلك عن يمين الطائر أو يساره . ثم تحول اللواءُ الى تغلب فوليه منهم وائل بن ربيعة (وهو كليب المشهور) . وكانت سنتهم اذا سار زعيمهم هذا أخذ معه جرو كلب فاذا مرَّ بروضة أو موضع يعجبه ضرب الجرو ثم القاه في ذلك المكان وهو يصيح ويعوي فلا يسمع عواءه أحد الا تجنبه ولم يقربه . وكانوا يقولون كليب وائل ثم اختصروه فقالوا « كليب » فغلب عليه (١)

٥ — مضر

ولم تزل مضر بعد خروج ربيعة مقيمة وحدها بمنازلها في تهامة حتى تباينت قبائلها وكثر عددهم وفصائلهم وضاقت بلادهم عنهم فطلبوا المتسع والمعاش وتتبعوا الكلاء والماء وتنافسوا في المحال والمنازل وبغى بعضهم على بعض فاقتتلوا وهم قبائل عديدة كما ترى في الجدول بالصفحة التالية . وهي ترجع الى حيين كبيرين قيس عيلان وخندف — فظهرت أولاً خندف على قيس فظعنت قيس من تهامة طالعين الى بلاد نجد الا قبائل منهم انحازت الى أطراف الغور من تهامة فنزلت هوازن ما بين غور تهامة الى ما والى بيشة وبركا وناحية السراة والطائف وذي المجاز وحنين واوطاس وما صاقبها من البلاد

وخندف تشمل طابخة ومدركة فخرجت طابخة الى ظواهر نجد والحجاز . فنزلت مزينة جبال رضوى وما والاها في الحجاز وزحت تميم وضبة من الحجاز وحلوا منازل بكر وتغلب التي كانوا ينزلونها في اثناء الحرب بينهم . ومضوا حتى خالطوا اطراف هجر ونزلوا ما بين اليمامة وهجر . ونفذت بنو سعد الى يبرين وتلك الرمال حتى خالطوا بني عامر بن عبد القيس ووقعت طائفة منهم الى عمان وصارت قبائل منهم بين أطراف البحرين الى ما يلي البصرة ونزلوا هناك منازل كانت لاياد

(١) ابن الاثير ٢٣٦ ج ١

- مضر
  - الياس
    - عيلان
      - قيس
        - سعد
          - غطفان
            - عبس
            - ذبيان
        - جديلة
          - فهم
          - عدوان
        - خصفة
          - عكرمة
            - منصور
              - هوازن
                - منبه
                  - قسي (وهو ثقيف)
                - سبيع
                - بكر
                  - سعد
                  - معاوية
                    - نصر
                    - صعصعة
                      - عامر
                        - نمير
                        - كعب
                          - جعدة
                          - عقيل
                          - قشير
                        - كلاب
                  - زيد
              - سليم
    - مدركة
      - هذيل
      - خزيمة
        - أسد
        - كنانة
          - عبد مناة
            - مدلج
            - الدئل
          - النضر
            - مالك
              - فهر (قريش)
    - طابخة
      - اد
        - ضبة
        - مزينة
        - مر
          - تميم
            - زيد مناة
              - سعد
                - كعب
                  - عوف
                    - بهدلة
                    - عطارد
                      - شهبة
                        - جناب
                          - صفوان
                  - عدن
                  - عمرو
              - مالك
                - مالك
                - حنظلة
                  - مالك
                    - دارم
                      - مجاشع
                        - زيد
                          - عدس ومنها زرارة
                        - سفيان
                    - يربوع
            - الحرث
            - عمرو
              - مالك
                - مازن
              - اسيد
              - العنبر

(ويقال لمدركة وطابخة خندف)

واقامت قبائل مدركة بتهامة وما والاها من البلاد وصاقبها فصارت مدركة في ناحية عرفات وعرنة وبطن نعمان . وكانت لهذيل جبال من جبال السراة ولهم صدور اوديتها وشعابها الغربية ومسائل تلك الشعاب والاودية . ونزل فهم وعدوان من قيس عيلان بجوار هذيل . وخذيعة بن مدركة اسفل هذيل واستطالوا في تلك التهائم الى أسياف البحر . واقام ولد النضر بن كنانة حول مكة وما والاها وبها جماعتهم وعددهم فكانوا جميعاً ينتسبون الى النضر بن كنانة . واقام ولد فهر حول مكة حتى انزلهم قصي بن كلاب الحرم وهم قريش [1] . فنزل الحجاز من العرب على اختلاف أصولهم أسد وعبس وغطفان وفزارة ومزينة وسليم وفهم وعدوان وهذيل وخثعم وسلول وهلال وكلاب ابن ربيعة وطي وأسد وجهينة وغيرها (راجع الخريطة الثامنة)

وكل قبائل عدنان بدو رحل الا قريشاً [2] فانهم تحضروا في مكة وسيأتي ذكرهم

هذه فذلكة اختصرنا فيها تفرق قبائل عدنان من تهامة الى انحاء بلاد العرب وقد حدث ذلك على الغالب في القرون الاولى قبل الميلاد وبعده بالتدريج . بقي علينا ايراد اخبارهم بعد تفرقهم الى ظهور الاسلام ولكنهم قبائل رحل لا كتابة عندهم ولا مقر لهم واكثر حوادثهم الغزو والنهب الا ما ذكرناه عن بعض قبائل قضاعة . فلا يتأتى سرد وقائعهم متناسقة وقلما يكون لها أهمية تاريخية لان اكثرها خصام على مرعى او ماء أو اختصام على فتاة أو نهب أو نحو ذلك . ولم يحفظ الاخباريون منها الا وقائع قليلة سموها ايام العرب سنأتي على خلاصتها بعد ان نذكر من بقي من دول الطبقة الثالثة غير عدنان من عرب الشمال في الطور الثاني نعني الدول القحطانية خارج اليمن

الدول القحطانية خارج اليمن

قد رأيت من تاريخ سبا وحميرانهم ملكوا اليمن بضعة عشر قرناً وكانوا دولاً تجارية قليلة الغزو والحرب فكان القتل فيهم قليلاً وكانوا يتكاثرون حتى تضيق بهم مواطنهم وهم عرضة للقحط من قلة المطر أو انفجار الاسداد فكانوا ينزحون بطوناً وافخاذاً يطلبون الرزق في أطراف جزيرة العرب شرقاً وشمالا فينزل بعضهم اليمامة أوالبحرين أو عمان او الحجاز أو مشارف الشام او العراق فحيثما آنسوا فرجاً استقروا وتناسلوا

(١) البكري ج ٦ ٥ - ٥٨ (٢) ابن خلدون ٢٩٩ ج ٢

بدواً او حضراً . وقد تطول آجالهم حتى ينشئوا الدول ويبنوا المنازل أو تقصر فيبيدون بالحرب أو غيرها . ولقلة الكتابة عندهم لم يصل الينا من أحوال النازحين الا القليل . وقد وصلنا هذا القليل مشوشاً مضطرباً لضياع أخبارهم واختلاطها لبعد عهدها . وهذا هو سبب اختلاف الرواة في انسابهم بين ان يرجعوا بها الى حمير او كهلان أو معد او العمالقة او غير ذلك مما يعسر تحقيقه . فننظر في تلك الدول او القبائل من حيث تأثيرها في شؤون التاريخ

فالدول العربية التي ظهرت في شمال جزيرة العرب من الطبقة الثالثة غير قبائل عدنان التي تقدم ذكرها بضع دول يعدها مؤرخو العرب من بني قحطان وقد جاريناهم في تسميتها واهمها: دول الغساسنة في الشام والمناذرة في العراق وكندة في نجد وما يليها. ويقول نسابو العرب ان هذه الامم وبضع عشرة أخرى من القبائل التي عاصرتها في شمالي جزيرة العرب ترجع بانسابها الى كهلان بن سبا بن قحطان على هذه الصورة :

كهلان:
- طي
- الاشعر
- بجيلة
- جذام
- الازد:
  - مازن
  - غسان
  - عدنان:
    - الاوس
    - الخزرج
    - خزاعة
  - مزيقيا
  - ازد شنوءة
- عاملة
- كندة
- لخم — نصر
- مذحج
- همدان

فهذه القبائل وعددها ١٩ قبيلة لكل منها بطون وافخاذ وعمائر وعشائر لا يهمنا منها في هذا المقام الا التي انشأت الدول وكان لها دخل في التاريخ على ما وصل الينا من أخبارهم وهي غسان ولخم وكندة

انساب هذه الدول قحطانية أم عدنانية

اجمع النسابون تقريباً على نسبة هذه الامم الى كهلان من قحطان وانهم خرجوا من اليمن وتفرقوا في انحاء جزيرة العرب مع من ذكرناهم من اخوانهم بعد تهدم سد مأرب وان هذه البطون هاجرت اليمن على أثر سيل العرم . ولهم في ذلك حديث

لا بأس من ايراد خلاصته : قالوا ان الامكنة المعمورة في أرض اليمن كان اكثرها لكهلان وحمير وكان رئيس القوم يومئذٍ عمرو بن عامر ماء السماء من كهلان فتوفي عن عدة أولاد قبل السيل فخلفهُ على الرئاسة أخوه عمران بن عامر وليس له أولاد وكان ذا ثروة وله الحدائق والبساتين ما لم يكن لاحد غيره مثله . وكان في قومه كاهنة اسمها طريفة فانبأتهُ بقرب انفجار السد بجرذ تنقب فيه . فخاطب خاصته بذلك واستكتمهم الخبر حتى يحتال في الخروج بهم الى بلاد أخرى فتواطأ مع ابني أخيه على ان يخاصماه ويهيناه فيظهر الغضب ويعزم على الرحيل ويعرض أمواله للبيع فيشتريها الناس ويقبض أثمانها ويرحل . وقد وفق الى ما أراده فابتاع الحميريون بساتينهُ وحدائقه وقصوره وهم لا يعلمون وارتحل بنو كهلان من اليمن وهم ارهاط فنزل كل رهط منها في بلد وهم :

(١) رهط ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر نزلوا المدينة ومنهم الاوس الخزرج

(٢) رهط حارثة بن عمرو بن عامر نزلوا مكة وهم خزاعة

(٣) رهط عمران بن عامر نفسه ذهبوا الى عمان وهم ازد عمان

(٤) رهط ازد شنوءة في تهامة

(٥) جفنة بن عمرو بن عامر وهو مزيقياء سار نحو الشام وهم الغساسنة

(٦) لخم في العراق ومنهم المناذرة او آل نصر

غير طيء وكندة وغيرها ولهم في تفرقهم أقوالٌ أخر . وكل هذه البطون أو القبائل قد رأيت انها ترجع بانسابها الى كهلان بن سبا أي انهم قحطانية — ذلك ما اجمع عليه العرب ولكن لنا رأياً في هذا الاجماع لا يخلو ذكره من فائدة

قد رأيت في ما ذكرناه عن الفروق بين القحطانيـة والعدنانية ان لكل منهما خصائص في اللغة والاجتماع والعادات والدين واسماء الاعلام . واذا تدبرت أحوال هذه الدول من غسان ولخم وكندة رأيتها تنطبق على العدنانية اكثر مما على القحطانية من حيث اللغة فاننا لم نر في كلامهم وأقوالهم ما يدلّ على انهم كانوا يتكلمون لغة حمير بل لغة العدنانية أو عرب الشمال في الطور الثاني . وقد يقال انهم اقتبسوا لغة الوسط الذي انتقلوا اليه ولكننا نستبعد ذلك لان الغالب في اقتباس لغة الآخرين ان يقع من الضعيف نحو القوي — فلو كان اولئك القوم قادمين من بلاد اليمن لحافظوا على لسانهم وسائر عاداتهم لانهم كانوا يومئذ ارفع منزلة من بدو الشمال وكان هؤلاء ينظرون الى

أصحاب الصولة والعلم . وزد على ذلك ان اليمنية كانوا يكتبون بالحرف المسند ولا نرى لهذا الحرف ذكراً في أخبارهم ولا أثراً في اطلالهم

وقد علمت ان الكهلانيين أهل حضارة كما رأيت في ما ذكرناه من حديث سيل العرم وكيف ان الكهلانيين كانوا أهل حدائق وقصور باعوها وانتقلوا . فلو صح ذلك لاختاروا الاقامة في بلد آخر من اليمن غير مأرب وما جاورها لان السيل لم يخرب الا جزءاً صغيراً من اليمن . فلم يكونوا يعدمون مكاناً يقيمون فيه كما كان يقيم سواهم من قبائل الحضر . واخوانهم الحميريون ما زالوا أهل دولة وعمران وظلوا في رغد ورخاء وسعة من العيش الى ظهور الاسلام

فما كان اغنى الكهلانيين عن الرحلة الى بادية الشام أو العراق والرجوع الى البداوة وهي شاقة على من تعود الحضارة والرخاء

واعتبر ذلك في معبوداتهم فانها من معبودات عرب الشمال أو العدنانية ولم نجد عندهم ما يميزهم عن هؤلاء من هذا القبيل . ولو كانوا من عرب اليمن لوجدنا بين معبوداتهم اسم عشتار أو ايل أو نحوها

وهكذا يقال في أسمائهم وليس فيها رائحة الاعلام السبأية أو المعينية بل هي مثل أسماء سائر عرب الشمال ولا سيما الذين سكنوا مشارف الشام قبلهم كالانباط ونحوهم ومنها الحارث وثعلبة وجبلة والنعمان وغيرها . ولا يعترض بما ذكره العرب بين أسماء ملوك حمير من أمثال هذه فان اكثرها مبدل باسماء شمالية وانما عمدتنا في ما ذكرناه على الاسماء التي وقفوا عليها في الآثار المنقوشة

فلا دليل على قحطانية هذه الامم الا أقوال النسابين وهي أضعف من ان يعول عليها في هذا الشأن لاحتمال ان تكون تلك الامم قد انتحلت الانتساب الى عرب اليمن التماساً للفخر بين قوم لا يعرفونهم ولا سيما بعد ان تقربوا من الروم أو الفرس وصاروا من عمالهم .

هذه ملاحظات نعرضها على اولي البحث لينظروا فيها فاذا رأوا بها اصابة والا فلا دخل لها في ما سنورده من تواريخ تلك الدول وعلائقهم بالدول المعاصرة

فلنتكلم عن هذه الدول كل واحدة واحدة وهي غسان ولخم وكندة ونبدأ بغسان

دولة الغساسنة

يزعم نسابو العرب ان الغساسنة لم يرحلوا من اليمن الى الشام رأساً بل اقاموا حيناً في تهامة بين بلاد الاشعريين وعك على ماء يقال له غسان فنسبوا اليه . وكان هذا المكان معروفاً هناك حوالي تاريخ الميلاد وقد ذكره اليونان في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد في جملة بلاد تهامة وشواطىء البحر الاحمر. اما القبيلة فذكرها بطليموس في اواسط القرن الثاني للميلاد (١) قال انهم يقيمون على شواطىء جزيرة العرب الغربية نحو ما هو الآن تهامة فاذا صح انتقادنا نسبة الغساسنة الى كهلان كانوا بالحقيقة من عرب تهامة العدنانيين أو غيرهم ممن ضاعت انسابهم



ش ٢٥ — قصر في بصرى حوران

وفي كل حال فان الغساسنة نزلوا مشارف الشام وفيها الضجاعم من قضاعه فغلبوهم على ما في أيديهم كما تقدم وانشأوا لانفسهم دولة تحت رعاية الروم في ما هو الآن البلقاء وحوران عرفت بدولة الغساسنة أو بني غسان فتحضروا بتوالي الاجيال وعمروا المدن وشادوا القصور والقلاع وكانت عاصمتهم بصرى في حوران وتعرف انقاضها باسكي شام وفيها كان دير بحيراء الراهب

(١) Sprenger 42 & 52



الخريطة السادسة ـ مشارف الشام والعراق ومنازل غسان ولحم

ملوك غسان

ان ما ذكره كتاب العرب عن ملوك هذه الدولة كثير الاختلاط والاضطراب لتناقضه ونقصه ومخالفته في بعض أجزائه لحوادث الدول المعاصرة . وأقدم ما لدينا عن تسلسل ملوك غسان واوفاها كتاب سني الملوك لحمزة الاصفهاني وهو أقدم المحققين من مؤرخي العرب وغرضه على الاكثر تحقيق توالي الملوك ومدات حكمهم ومعاصريهم وقلما يلتفت الى أعمالهم . فعنده ان ملوك غسان ٣٢ ملكا حكموا نحو ستمائة سنة وقد أورد اسماءهم وانسابهم ومدات حكمهم كما تراها في الجدول الآتي :

ملوك غسان على رواية حمزة الاصفهاني

		مدة الحكم			مدة الحكم
١	جفنة بن عمرو مزيقياه	٤٥	٧	المنذر الاكبر بن الحارث الثاني	٣
٢	عمرو بن جفنة	٥	٨	النعمان » »	١٥ ١/٢
٣	ثعلبة بن عمرو	١٧	٩	المنذر الاصغر » »	١٣
٤	الحارث الاول بن ثعلبة	٢٠	١٠	جبلة » »	٣٤
٥	جبلة بن الحارث الاول	١٠	١١	الايهم » »	٣
٦	الحارث ٢ بن جبلة (ابن مارية)	١٠	١٢	عمرو » »	٢٦

		مدة الحكم
١٣	جفنة بن المنذر الاكبر	٣٠
١٤	النعمان « « «	١
١٥	النعمان بن عمرو « «	٢٧
١٦	جبلة بن النعمان	١٦
١٧	النعمان بن الايهم	٢١
١٨	الحارث الثالث بن الايهم	٢٢
١٩	النعمان بن الحارث الثالث	١٨
٢٠	المنذر بن النعمان	١٩
٢١	عمرو « «	٣٣
٢٢	حجر « «	١٢
٢٣	الحارث الرابع بن حجر	٢٦
٢٤	جبلة بن الحارث الرابع	١٧
٢٥	الحارث٥بن جبلة (بن ابي شمر)	٢١
٢٦	النعمان بن الحارث (ابو كرب)	٣٧
٢٧	الايهم بن جبلة بن الحارث٥	٢٧
٢٨	المنذر « « « «	١٣
٢٩	شراحيل « « « «	٢٥
٣٠	عمرو « « « «	١٠
٣١	جبلة بن الحارث	٤
٣٢	جبلة بن الايهم	٣

فمدة سيادة الغسانيين على رواية حمزة المذكور نحو ٦٠٠ سنة أي من أوائل القرن الاول للميلاد الى ظهور الاسلام . ولكننا نعلم من قرائن أخرى ومما قدمناه من أن الغسانيين كانوا في أواسط القرن الثاني للميلاد لا يزالون في تهامة ان هذه الرواية لاتخلو من الخطأ

وقد عني الاستاذ نولدكي الالماني الشهير بدرس تاريخ هذه الدولة من مصادر يونانية وسريانية فوجد ملوكها الذين عرفهم الروم لا يتجاوز عددهم عشرة ملوك أقدمهم حكم في آخر القرن الخامس للميلاد وآخرهم عند ظهور الاسلام فلا تتجاوز مدة حكمهم قرناً وبعض القرن

وهاك جدولا للملوك الغسانيين الذين اعترف نولدكي بوجودهم (١)

١	جبلة ابو شمر	توفي نحو سنة ٥٠٠
٢	الحارث بن جبلة ابي شمر	٥٦٩
٣	المنذر ابو كرب بن الحارث	٥٨٢
٤	النعمان بن المنذر	٥٨٣
٥	الحارث الاصغر بن الحارث الاكبر	من سنة ٥٨٣ - ٦١٤
٦	« الاعرج « « الاصغر	
٧	النعمان بن الحارث الاصغر	
٨و٩	عمرو اخو النعمان وحجر ابنه	
١٠	جبلة بن الايهم	٦٣٦

(١) Nœldeke, 53

واستخرج نولدكي من أشعار العرب وغيرها اسماء ملوك وأفراد غسانيين لم يذكرهم المؤرخون كابن سلمى ذكره حسان ويزيد بن عمرو في الاغاني وغيرهما . وعثر على تفاصيل من أحوال أولئك الملوك لم يعرفها العرب أو انهم شوهوها بالتناقل وانكر كثيراً من الحوادث التي ذكرها العرب للغسانيين أو وضع فيها شكاً

والاستاذ نولدكي بحاث نقاد وقد عول في ما قاله على مآخذ وثيقة من تواريخ الكنيسة أو الدولة اكثرها مدوَّن في حينه وجاءت اخبار هؤلاء الملوك فيها مقرونة باخبار قياصرة القسطنطينية او ولاة الشام وتواريخهم معروفة ثابتة . فلا ننكر عليه اصابته في كثير من ملاحظاته ولكننا لا نوافقه على حصر ثلاث الدولة في عشرة ملوك حكموا مئة سنة وبعض المئة كما اننا لا نوافق حمزة الاصفهاني على انهم ٣٢ ملكا حكموا ستة قرون للاسباب الآتية :

الروم والعرب

فتح الاسكندر الشام والعراق في القرن الرابع قبل الميلاد وأراد اصحابه اكتساح جزيرة العرب فامتنعت عليهم لوعورة الطرق اليها وبداوة أهلها. وقاتلوا النبطيين فارتدوا عنهم خائبين . وتحقق خلفاء الاسكندر على الشام ان اخضاع أهل البادية لا يتيسر لهم فعمدوا الى مسالمتهم للاستعانة بهم في نقل القوافل او حماية الطرق او استنصارهم على جيرانهم الفرس او غيرهم . ودخلت الشام في حوزة الرومان في القرن الاول قبل الميلاد وبادية الشام في حوزة الانباط ومن والاهم وحالفهم من العرب . وقد رأيت ما آل اليه امر الانباط في أول القرن الثاني للميلاد ولم يغلبهم الروم الا لتحضرهم واركانهم الى السكينة والرخاء فتفرقوا في مشارف الشام والعراق

أما بدو العرب في تلك الضواحي فلم يغلبهم الروم ولا غيرهم فكانوا يضايقون الدولة فينزلون أطراف المدن للغزو أو يتعرضون للقوافل بالنهب كما يفعل بدو هذه الايام بقافلة الحج وغيرها . ويئس الروم منهم فعمدوا الى مسالمتهم لاتقاء شرهم واشهرهم يومئذ الضجاعمة بنو سليح من قضاعة

وكانت العراق وفارس يحكمها ملوك الطوائف بعد الاسكندر يستبدُّ كل منهم بقسم منها يشتغلون بذلك عن مناوأة الروم اعدائهم القدماء حتى اذا نشأت الدولة الساسانية في أول القرن الثالث للميلاد وجمعت كلمة الفرس تحت لوائها اصبح الروم يخافونها على بلادهم لما بينهما من المنافسة القديمة فازدادت رغبتهم في تقريب العرب ليس لاتقاء شرهم

فقط بل للاستعانة بهم على أولئك المنافسين

وانفق نزوح الغسانيين نحو الشمال كما تقدم وقد نزلوا البلقاء وفيها الضجاعمة وغيرهم من قبائل العرب وتنازعوا على المقام هناك وتنافسوا في النفوذ على أهل البادية فظهر الغسانيون . فلما احتاج الروم الى نصرتهم استنصروهم وقربوهم فتنصروا بتوالي الاجيال وأصبح لهم شأن في حروب الروم والفرس

عدد ملوك غسان ومدات حكمهم

لا مشاحة في ان المؤرخين اختلفوا كثيراً في عدد ملوك هذه الدولة وفي تسلسلهم ومدات حكمهم يدلك على ذلك اختلافهم في عدد الملوك من كل اسم على حدة . فذكر حمزة مثلاً خمسة ملوك باسم النعمان وهم عند ابن الكلبي واحد وعند نولدكي اثنان وقس على ذلك اختلافهم في سائر الاسماء على هذه الصورة :

	عند ابن الكلبي	عند حمزة	عند نولدكي
النعمان	١	٥	٢
المنذر	٣	٤	١
الايهم	١	٢	١
عمرو	١	٥	١

واعتبر ذلك الاختلاف ايضاً في عدد الملوك على الاجمال فقد رأيت ان عددهم عند حمزة الاصفهاني ٣٢ ملكا وهم عند ابن قتيبة ١١ وعند الجرجاني ٩ وعند المسعودي ١٠ واختلفوا في أول من ملك منهم فقال بعضهم ثعلبة وقال آخرون الحارث بن عمرو وقال غيرهم جفنة وقال غيرهم غير ذلك . وقس عليه اختلافهم في تعاقب اولئك الملوك وسني ملكهم واعمالهم مما يجعل القطع في حقيقة ذلك كله مستحيلاً فنقتصر على النظر في قائمة حمزة وما جاء في كتب اليونان

يقول حمزة ان عدد ملوك غسان ٣٢ ملكا اولهم جفنة بن عمرو وآخرهم جبلة بن الايهم وانهم حكموا نحو ستمائة سنة وذلك كثير لان الغسانيين لم ينزلوا الشام الا بعد أواسط القرن الثاني للميلاد وقد يكون نزولهم في القرن الثالث فلا تتجاوز مدة حكمهم ٤٠٠ سنة وهذا ما قاله أبو الفداء [1] مع انه أورد من أسماء ملوك غسان مثل الذي اورده حمزة وفي مثل ترتيبه ولكنه خالفه في مجمل سني حكمهم واغضى عن مدة

(١) ابو الفداء ٧٦ ج ١ .

حكم كل واحد منهم على حدة . ولعله تحاشى ذلك لتحققه من سياق التاريخ ان مدة دولتهم لم تتجاوز ٤٠٠ سنة مع اعتقاد وصحة عـدد ملوكها فخاف اذا جارى حمزة في ذكر مدة حكم كل منهم ان تأتي النتيجة مخالفة لمـا تحققه فاكتفى بذكر المدة على الاجمال . ولو امعن النظر في تفصيل سني الحكم مع تعاقب الحاكمين من حيث تسلسلهم من الاب الى ابنائه لظهر لهُ سبب ذلك الاختلاف فيعلم ان ما اورده حمزة من تفصيل سني الحكم لا يخالف ما تحققهُ هو عن مجملها

وبيان ذلك ان الاصفهاني نقل مدات اولئك الملوك كما سمعها او قرأها ممن سبقه كل ملك على حدة كما في القائمة التي ذكرناها ثم جمع السنين فبلغت نحو ستمائة سنة وجمع عدد الملوك فبلغ ٣٢ ملـكاً فذكر ذلك مجملاً في آخر الـكلام وهذا مصدر الخطأ . لان مدات الحـكم اذا ثبت مقدار كل منها على حدة لا يستلزم ان يكون مجموعها صحيحاً . اذ يؤخذ من تعدد الاخوة الذين تولوا الحـكم في بعض الاحوال ان كثيرين منهم كانوا يحكمون متعاصرين اذ لا يعقل ان يحكم أولاد الحارث الثاني بن جبلة (ابن مارية) الستة مثلاً الواحد بعد الآخر بعد وفاة والدهم ومجموع مدات حكمهم ٩٤ سنة لاننا اذا فرضنا ان والدهم توفي في سن الاربعين لاقتضى ان يعيش معظمهم أ[illegible] من مئة سنة . ويقال نحو ذلك في ابناء جبـلة بن الحارث بن أبي شمر وابناء المنذر والنعمان ــ ولايضاح ذلك رتبنا ملوك غسان في جدول حسب تسلسلهم على رواية حمزة وابي الفداء وبجانب كل اسم مدة الحكم تقريباً (انظر الجدول في الصفحة التالية)

فاذا نظرت في هذا الجدول تبين لك ما أردناه وهان عليك رد مجموع مدات الحكم الى ٤٠٠ سنة وان كنا لا نستطيع تعيين كل مدة على حدة تعييناً مدققاً

بقي علينا النظر في ما صح عند الاستاذ نولدكي من قلة ملوك هذه الدولة . فعنده ان عددهم لا يتجاوز عشرة ملوك فـكيف يمكن تطبيقها على قائمة حمزة ولو جعلنا مجموع المدات ٤٠٠ سنة فان الفرق لا يزال بعيداً . وتعليل ذلك في اعتقادنا ان الغسانيين قضوا زمناً طويلاً في ضواحي الشام يتوارثون الامارة والروم لا يعرفون عنهم شيئاً لانهم لم يحتاجوا الى نصرتهم أو يستخدموهم في جندهم . والغسانيون في اثناء ذلك يحكمهم امراؤهم وهم يحصون سني حكمهم . وقد يتعاصر اميران او ثلاثة أو أكثر فيتولى كل منهم بطناً أو رهطاً من القبيلة ــ وما زالوا على ذلك حتى احتاج الروم اليهم في محاربة الفرس فلما استخدموا بعضهم ومنحوهم لقب ملك كما سيجيء اطلق العرب هذا اللقب على سائر امرائهم فسموهم ملوك غسان كما يطلق كتاب هذا العصر

على ولاة مصر من ابناء محمد على لقب « خديو » مع ان أول من نال هذه الرتبة منهم اسماعيل وهو خامسهم . وهذا هو جدول ملوك غسان :

حكم من سنة	
٢٢٠ م	جفنة بن عمرو
٢٦٥	عمرو بن جفنة
٢٧٠	ثعلبة بن عمرو
٢٨٧	الحارث الاول بن ثعلبة
٣٠٧	جبلة بن الحارث الاول
٣١٧	الحارث الثاني بن جبلة (ابن مارية)
٣٢٧	عمرو جبلة الايهم النعمان المنذر الاصغر المنذر الاكبر
٣٨٠	النعمان الحارث الثالث النعمان جفنة المحرق عمرو (لم يحكم)
٤٣٠	النعمان عمرو النعمان
٤٦٠	حجر المنذر عمرو جبلة
٤٨٦	الحارث الرابع
٥١٢	جبلة
٥٢٩	الحارث بن أبي شمر (الخامس)
٥٦٩	النعمان أبو كرب جبلة (لم يحكم)
٦٢٥	شراحيل الايهم المنذر عمرو الحارث (لم يحكم)
٦٣٣	جبلة جبلة

ويؤيد ذلك ان الروم لم يحتاجوا الى نصرة العرب لمحاربة الفرس في أوائل الدولة الساسانية لانهم كانوا يحتقرونها ويعتدون بقوتهم حتى كانوا يهاجمون الفرس في بلادهم وقد غلبوهم ايام دقلطيانوس مراراً في أواخر القرن الثالث للميلاد واوائل الرابع

وتنازل لهم الفرس عن بعض بلادهم (١) ثم اصاب الدولة الرومانية الانقسام وتضعضعت أحوالها بالحروب الاهلية حتى استبد قسطنطين بالدولة وجمع شتاتها وانصرف الى نشر النصرانية وتأييدها . وافضت حكومة الفرس في أيامه الى سابور ذي الاكتاف فحاربه الروم وكانت عاصمته في جندي سابور فنقلها الى المدائن بالعراق وطال حكمه وحارب الروم في عدة وقائع باواسط القرن الرابع . وفي أوائل القرن الخامس عقد يزدجرد ابن بهرام معاهدة صلح مع الروم لمئة سنة وشعر الروم بضعفهم من ذلك الحين ورأوا الفرس يستنجدون الاخميين عرب العراق فاضطروا الى استنصار عرب الشام وهم الغساسنة

ملوك غسان في تاريخ اليونان

أول من ذكر اليونان من أمراء غسان في خدمة الروم أمير اسمه « جبلة » لم يذكروا والده ولا لقباً يمتاز به وانما قالوا انه نصرهم سنة ٤٩٧ م فاخمد ثورة اقلقت راحتهم فمنحوه رتبة فيلارك Phylarch أي أمير أو رئيس قبيلة وجعلوه عاملاً على بطرا . ويرى نولدكي ان جبلة هذا هو والد الحارث بن جبلة أكبر ملوك غسان وأكثرهم ذكراً في كتب اليونان من ٥٢٩ — ٥٦٩ م واذا نظرنا في قائمة حمزة بعد تعديل - ي الحكم بحسب تعاقب الابناء نراه يوافق الحارث بن أبي شمر فقد قدرنا هناك انه نبغ في أوائل القرن السادس . وجاء في أخباره بكتب العرب ما يلائم أخبار الروم عنه (٢)

وقد جاء في تاريخ مالالاس ان الحارث المذكور حارب المنذر ملك الحيرة سنة ٥٢٨م وهو المنذر بن ماء السماء (حكم من سنة ٥١٤ — ٥٤٦ م) كما سترى في تاريخ ملوك الحيرة وكان الحارث المذكور يومئذ يلقب فيلارك فاستعانه الروم بواقعة في السامرة فاز بها فرقوه سنة ٥٢٩ وسموه « باسيليوس » ومعناه في لسانهم « الملك » ولكنهم كانوا يستخدمونه اصطلاحاً لقباً للامراء على اعمالهم كما فعل المسلمون بعد ذلك في الاعصر الاسلامية الوسطى فكانوا يسمون الوزراء والقواد ملوكا . ولما عرض لكتاب السريان ذكر هذا الامير في كتبهم ترجموا اللقب حرفياً فقالوا « ملك » وجاراهم العرب في ذلك . اما الروم فلا يفهمون منه هذا المعنى . ولذلك فلما أرادوا ترقية الحارث المذكور بعدئذ لقبوه بالبطريق وهو لقب أشراف الروم وعمالهم . وعرف من ذلك الحين باسم « البطريق الحارث » وقد تمتع بهذا اللقب هو وابنه أبو كرب

(١) Gibbon, I. 249 (٢) ابن خلدون ٢١٩ ج ٢

وشاع ذلك وعرفه السريان واليونان . وكانوا يلقبونه احياناً « فلابيوس » وهو من القاب القواد عند الروم . أما العرب فلم يحفظوا من القابه غير « الملك » واطلقوه على سائر امراء هذه الاسرة

الحارث بن جبلة عند الروم

كان للحارث هذا مقام رفيع عند الروم وكانوا يهابون سطوته ويعجبون بشجاعته وقد بالغوا في تقريبه وترقيته والخلع عليه حتى سموه ملكاً وبطريقاً كما رأيت. وبلغ من شهرته في الشجاعة وشدة البأس حتى كانت النساء يخوفن أولادهن باسمه فاذا بكى الطفل او تمرّد قالت له امه « اسكت والا اتيتك بالحارث بن جبلة » ولم يبلغ هذه الشهرة الا بعد ان ابلى في نصرة الروم والدفاع عن مملكتهم

وكان الحارث هذا من اكبر اعوان بليزاريوس القائد الروماني في محاربة الفرس سنة ٥٣١م لرد هجمات الفرس والعرب المناذرة عن مملكة الروم. وكان كسرى انوشروان قد خلف اباه قباذ على عرش ايران في تلك السنة وكان على مملكة الروم القيصر يوستنيان العظيم فتعاصر الملكان وكلاهما شديد البأس . وكان جند الروم يومئذ في حرب باوربا وافريقيا وقائده الاكبر بليزاريوس المذكور فسعى يوستنيان في مصالحة الفرس ليتفرغ لتلك الحرب فصالحه انوشروان على شروط رضياها . ثم أدرك أنوشروان ما كسبه عدوه بتلك المصالحة لان بليزاريوس امعن في فتوحه بافريقيا وأوربا فندم على صلحه ولم يتعود النكث فلجأ الى عامله على العرب في الحيرة وهو اذ ذاك المنذر بن ماء السماء اللخمي وكان ذا دهاء ولم يدخل في المعاهدة . والمنافسة بين المنذر هذا وبين الحارث زعيم الغسانيين طبيعية يومئذ وكانا في نزاع على طريق الماشية في جنوبي تدمر يزعم المنذر انها من مملكته ويقول الحارث انها له وتحاربا فانتصر كسرى لعامله وكأنه اوعز اليه سراً ان يوغل في سوريا غزواً ونهباً ففعل فعادت الحرب بسبب ذلك بين الدولتين . وحمل كسرى على سوريا وأسيا الصغرى وكاد يفتح القسطنطينية ونصيره المنذر المذكور . فاهتزت مملكة الروم وارتعدت فرائص القيصر فاستنهض قائده بليزاريوس واستنصر عرب غسان وخلع على زعيمهم الحارث بن جبلة فمشى جند الروم بقيادة هذين الرجلين وتقدم بليزاريوس في معظم هذا الجيش حتى خالف جند كسرى في الطريق فنزل ما بين النهرين وتجاوز نصيبين الى بلاد الفرس وخلف الحارث وراءه ليستأثر هو بثمار الفتح والنهب وادرك الحارث غرضه فقطع أخباره عنه . وبلغ كسرى ما فعله الروم فرجع اليهم وأخرجهم من بلاده ولم يفلح الروم بحملتهم هذه لاسباب لا محل لها هنا

ثم تقاتل الغساسنة واللخميون وطالت الحرب بينهما وانتهت بواقعة آلت الى دخول قنسرين في حوزة الحارث بعد ان قتل بعض أبنائه وقتل المنذر بن ماء السماء . وهي المعركة التي يسميها العرب يوم ذات الخيار أو عين اباغ . ويقولون في سببها ان المنذر المذكور نزل عين اباغ وبعث الى الحارث بالشام يقول « اما ان تعطيني الفدية فانصرف عنك بجنودي واما ان تأذن بحرب » فارسل اليه الحارث « انظرنا ننظر في أمرنا » فجمع عساكره وسار نحو المنذر وارسل اليه يقول « انا شيخان فلا نهلك جنودنا وانما يخرج رجل من ولدي ورجل من ولدك فمن قتل خرج عوضه آخر واذا فني أولادنا خرجت انا اليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك » فتعاهدا على ذلك وغدر المنذر بالحارث فانزل بعض رجاله بدلاً من أولاده فقتل للحارث ولدان ثم علم بالمكيدة فحمل على المنذر برجاله وهم ٤٠٠٠٠ فقتلوا المنذر وهزموا رجاله [1]

وعقب يوم اباغ يوم حليمة وفيه حمل المنذر بن المنذر المقتول (تولى سنة ٥٨٢) للاخذ بثار أبيه فلاقاه الحارث الاعرج (غير ابن أبي شمر) في مكان اسمه مرج حليمة ودارت الحرب بينهما أياماً لا ينتصف احدهما من صاحبه . فجعل الحارث ابنته زوجة لمن يقتل المنذر فقتله لبيد ابن عمرو الغساني وكانت واقعة هائلة اجتمع فيها عرب العراق كافة تحت راية المنذر وعرب الشام كلهم تحت راية الحارث. وفي ابن الاثير ان الحارث صاحب يوم حليمة هو نفس الحارث صاحب يوم اباغ ولكن سياق التاريخ يقتضي ان يكون سواه . فلعله الحارث حفيد ابن أبي شمر ولم يذكره حمزة بين ملوك غسان بل ذكر ابنه جبلة (راجع الجدول) أو لعل المنذر ثأر لابيه قبل ان يتولى الملك

وشخص الحارث بن أبي شمر سنة ٥٦٣ م الى القسطنطينية لمخابرة القيصر بشأن ابنه المنذر ليكون خلفاً له في امارة القبائل وفي ما ينبغي اتخاذه من الوسائل على صاحب الحيرة وهو يومئذ عمرو بن هند مضرط الحجارة . وهي أول مرة زار الحارث عروس المدائن (القسطنطينية) فادهشه ما رآه فيها من العظمة والابهة والثروة كما دهش أهلها من رؤية الحارث الذي طالما سمعوا به وخوفوا أبناءهم باسمه فرأوه رجلاً ذا هيبة وقامة وجلال اما هو فلم يستأنس بالمدينة ولا باهلها لبعدها عما الفه من طلاقة البادية وسذاجة عيشها

والحارث هذا هو الذي توسط لامرىء القيس الشاعر في الذهاب الى قيصر القسطنطينية بعد ان اودع السموأل ادراعه في القصة المشهورة [2] وتوفي الحارث

(١) ابن الاثير ٢٤٥ ج ١ (٢) الاغاني ٩٩ ج ١٩

سنة ٥٦٩ م وقد قضى أربعين سنة في الحروب والغزوات ونال من المنزلة والسطوة ما لم ينله سواه وخلفه ابنه المنذر والروم يسمونه المنذروس . وكان على الحيرة قابوس اخو عمرو بن هند فحاربه المنذر وغلبه . وكان المنذر قد حارب مع جند الروم في حياة أبيه وهو أمير فلما خلف اباه سمي بطريقاً واعان الروم في مواقع كثيرة وحاز فوق ما حازه أبوه من الاحتفاء فشخص الى القسطنطينية سنة ٥٨٠ مع ولديه فاحتفل به الروم وقيصرهم يومئذ طيباريوس فالبسه التاج ولم يلبس أبوه قبله غير الاكايل وسماه بعض مؤرخي الروم لذلك « المنذر ملك العرب »

فاذا كان الحارث بن جبلة هذا هو الحارث بن أبي شمر عند العرب كما قلنا فالمنذر ابنه هو النعمان بن الحارث عندهم ويلقبونه ابا كرب وليس عندهم للحارث ابن اسمه المنذر وانما هو ابن ابنه كما ترى في الجدول فلا ندري وقع الخطأ من العرب ام من الروم

وذكر الروم بعد المنذر ابنه النعمان حكم سنة ٥٨٢ ولم يطل حكمه فخلفه الحارث الاصغر ثم غيره وغيره كما مر بالجدول المنقول عن نولدكي . ولم يذكر الروم من اعمالهم شيئاً لانهم قلما استنجدوهم في أواخر الدولة لاشتغال الفرس عنهم واشتغال الروم بانفسهم الا ما كان من حمل الفرس على مملكة الروم سنة ٦١٣ وفتحوا سوريا فذهبت دولة العرب منها وانقضت بذلك الفتح وآخر ملوكها عند الروم حجر بن النعمان . فلما نهض هرقل لاسترجاع سوريا من الفرس ظهر من الغسانيين جبلة بن الايهم وخبره مع عمر بن الخطاب في صدر الاسلام مشهور



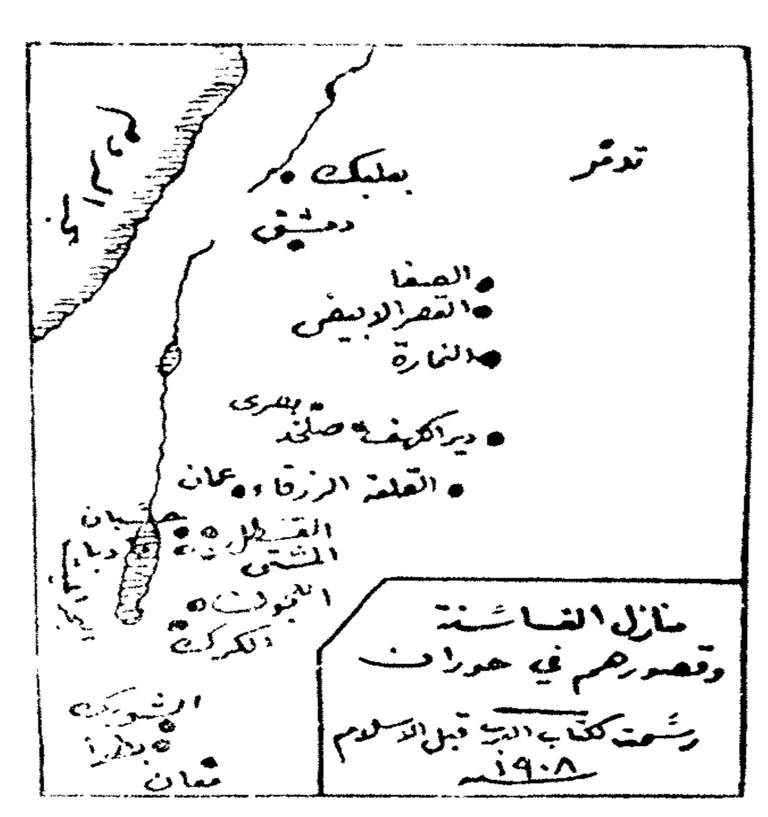
ش ٢٦ ــ قلعة صلخد في حوران

مملكة الغساسنة وآثارها

لما نزل آل غسان الشام خيموا في باديتها من جهة حوران ثم سكنوا البلقاء واذرح واتسعت مملكتهم باتساع سلطانهم فبلغت معظم اتساعهـا في ايام الحارث بن جبلة المذكور وأولاده واصبحت كلمة الغسانيين نافذة في حوران وسائر مشارف الشام وفي تدمر وعلى سائر عرب سوريا وفلسطين ولبنان البدو الحضر . وشاد الغسانيون كثيراً من القصور والاديار وانشأوا المدن والقرى وبنوا القناطر واصلحوا الصهاريج . ومما ينسبون بناءه اليوم من المواضع أو البلاد « قسطل » بالبلقاء وفيها يقول كثير :

سقى الله حياً بالموقر دارهم   الى قسطل البلقاء ذات المحارب [1]

ومنها اذرح من أعمال الشراة والجرباء بجانبها ويقال ان في اذرح كان أمر التحكيم بين ابي موسى الاشعري وعمرو بن العاص وشادوا نجران ومعان

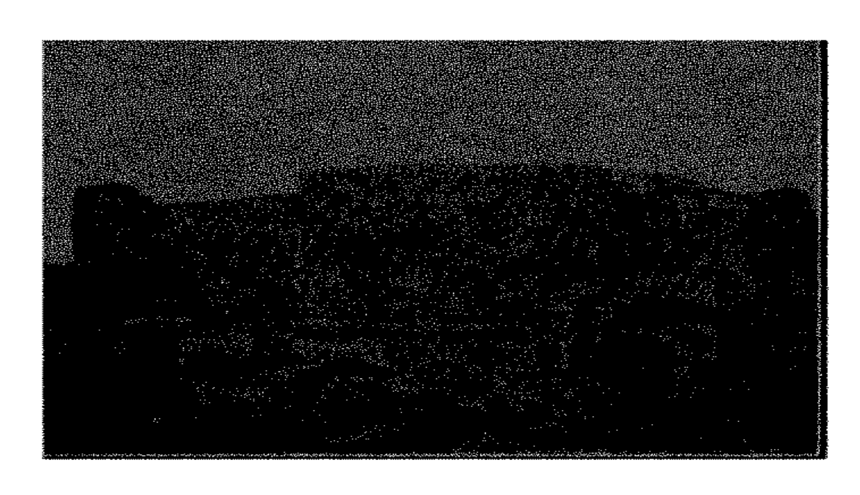


الخريطة السابعة ـ منازل الغساسنة وقصورهم

ومما ينسبونه اليوم من القصور صرح الغدير والقصر الابيض والقلعة الزرقاء وقصر المشتى وقصر الفضا وقصر منار وقصر السويداء وقصر بركة وقصر ابين وغيرها . ومن

(١) ياقوت ٩٥ ج ٤

الاديار دير حالي ودير الكهف ودير هناد ودير النبوة . ومن الابنية الاخرى القناطر وجسر عاملة واصلاح صهاريج الرصافة رصافة الشام . وذكر لهم العرب ابنية اخرى يصعب معرفة اماكنها لقلة العناية في التنقيب عن آثار هذه الدولة ولتصحيف اسمائها



ش ٢٧ ـ بقايا قصر المشتى

وآخر من عني بالتنقيب عن تلك الآثار الاستاذ دوسو الفرنساوي حوران ووعورها في اللجا والحراء والرحبة وجبل الصفا واطلع على كثير من الآثار والانقاض فاستدل من ذلك على خط دفاع كان في أطراف حوران يفصل بينها وبين البادية . وهذا الخط كان مؤلفاً في الاصل من عدة حصون في جملتها القصر الابيض والنمارة ودير الكهف والقلعة الزرقاء وقد شاهد انقاضها فرأى القصر الابيض مبنياً في



ش ٢٨ ـ بقايا القصر الابيض .

منبسط من الارض مربع الشكل حوله سور فيه برج عال . ووصف قصور النمارة ودير الكهف وغيرها كما شاهدها وليست كلها من بناء الغسانيين وان كنا لا نعلم بانيها . وعلى كل حال فالقصر الابيض يمتاز عنها بنقوش جميلة فيها صور طيور وخيول وفهود وأسود وبقر وافيال حتى السمك . وفيه شيء من الطرز الفارسي الساساني والمظنون ان الغسانيين بنوه في ظل الروم ليقيموا فيه على حدود البادية لدفع العرب المهاجمين . ويرى دوسو خلاف ذلك مجاراة لنولدكي بقرب عهد الغساسنة [١] وتلك الابنية اقدم منهم عهداً لا سيما وانهم عثروا في انقاض النمارة على اثر عربي مكتوب بالحرف النبطي سنة ٣٢٨ م عن امير لخمي ولم يجدوا فيه ذكراً لامير غساني — وسنعود الى ذلك

دولة اللخميين في العراق

كان اللخميون عمال الفرس على اطراف العراق كما كان الغساسنة عمال الروم على مشارف الشام . وقد رأيت في كلامنا عن قضاعة ان أول من حكم العراق آل تنوخ ومنهم جذيمة الابرش وان الحكم صار بعده الى ابن أخته عمرو بن عدي وهو من آل نصر فرع من لخم . ولذلك فان هذه الدولة تسمى دولة آل نصر او آل لخم أو آل عمرو بن عدي أو ملوك الحيرة أو المناذرة على السواء

وتاريخ هذه الدولة أوضح من تاريخ آل غسان واثبت لانه كان مدوناً في كتب الحيرة مثبتاً في كنائسهم وأشعارهم وفيها انسابهم واخبارهم ومبالغ أعمار من ولي منهم للاكاسرة وتاريخ نسبهم وعليها كان معوَّل المسلمين في ما ورد من أخبار هذه الدولة [٢]

واكمل ما وصل الينا من توالي ملوك هذه الدولة ومبالغ أعمارهم ما ذكره حمزة الاصفهاني في كتابه سني الملوك فانه اورد نسب كل ملك ومدة حكمه ومن عاصره من ملوك الفرس ومدة معاصرة كل ملك ولذلك هان علينا تعيين بداية حكم كل منهم ونهايته مع ملاحظة قرائن أخرى اقتضت التعديل في بعض الاحوال . ولا سيما في مدات حكم بعض الملوك التي تجاوزت طور المعقول كمدة حكم عمرو بن عدي فقد جعلوها ١١٨ سنة ومدة خلفه امرىء القيس ١١٤ سنة فعدَّلنا ذلك وامثاله بالتطبيق على مدات حكم المعاصرين من ملوك الفرس وغيرهم وبقرائن أخرى — وهذا جدول باسماء ملوك الحيرة وبداية تاريخ كل منهم وبجانبه جدول ملوك الفرس الساسانية الذين عاصروا تلك الدولة :

---

(١) Dussaud 32 (٢) ابن خلدون ٢٦٢ – ٢

جدول ملوك آل لخم في الحيرة

اسم الملك	سنة الحكم	مدة الحكم
عمرو بن عدي	٢٦٨ م	٢٠
امرؤ القيس بن عمرو	٢٨٨	٤٠
عمرو بن امرىء القيس	٣٢٨	٤٩
اوس بن قلام	٣٧٧	٥
امرؤ القيس المحرق بن عمرو	٣٨٢	٢١
النعمان الاعور بن امرء القيس	٤٠٣	٢٨
المنذر بن النعمان الاعور	٤٣١	٤٢
الاسود بن المنذر	٤٧٣	٢٠
المنذر بن المنذر أخوه	٤٩٣	٧
النعمان بن الاسود ابن أخيه	٥٠٠	٤
علقمة أبو يعفر	٥٠٤	٣
امرء القيس بن النعمان	٥٠٧	٧
المنذر بن امرىء القيس الملقب ابن ماء السماء والحارث بن عمرو الكندي	٥١٤	٤٩
عمرو بن هند مضرط الحجارة	٥٦٣	١٦
قابوس اخوه	٥٧٨	٤
فيشهرت أو زيد	٥٨١	١
المنذر بن المنذر بن ماء السماء	٥٨٢	٣
النعمان بن المنذر ابو قابوس	٥٨٥	٢٨
اياس بن قبيصة	٦١٣	٥
زاديه	٦١٨	١١
المنذر المغرور	٦٢٨	٤

ملوك الدولة الساسانية في فارس

اسم الملك	سنة الحكم	مدة الحكم
اردشير	٢٢٦	١٥
سابور الاول بن اردشير	٢٤١	٣١
بهرام الاول هرمز بن سابور	٢٧٢	١
بهرام الثاني بن بهرام	٢٧٣	٣
بهرام الثالث بن بهرام بن بهرام	٢٧٦	١٧
نرسي بن بهرام	٢٩٣	٩
هرمز الثاني بن نرسي	٣٠٢	٧
سابور الثاني ذو الاكتاف	٣٠٩	٧٠
اردشير الثاني بن سابور	٣٧٩	٦
سابور الثالث بن سابور	٣٨٣	٥
بهرام الرابع » »	٣٨٨	١١
يزدجرد الاول بن بهرام (الاثيم)	٣٩٩	٢١
بهرام جور الخامس بن يزدجرد	٤٢٠	١٨
يزدجرد الثاني بن بهرام	٤٣٨	١٩
هرمز الثالث فيروز بن يزدجرد	٤٥٧	٢٧
بلاش بن فيروز	٤٨٤	٤
قباذ الاول بن فيروز	٤٨٨	٤٣
كسرى انوشروان بن قباذ	٥٣١	٤٧
هرمز الرابع بن كسرى انوشروان	٥٧٩	١١
كسرى برويز بن هرمز	٥٩٠	٣٨
من شيرويه بن كسرى الى يزدجرد الثالث	٦٢٨	٤

فملوك الحيرة ٢٢ ملكاً تولوا الملك ٣٦٤ سنة وكلهم من نسل عمرو بن عدي من آل نصر أو لخم الا ستة من الدخلاء وهم اوس بن قلام والحارث بن عمرو بن حجر الكندي وعلقمة بن يعفر واياس بن قبيصة وفيشهرت وزاديه الفارسي وقصبة ملكهم جميعاً الحيرة

الحيرة

كانت الحيرة على ثلاثة أميال من مكان الكوفة في موضع يقال له النجف على ضفة الفرات الغربية في حدود البادية بينها وبين العراق وتقع الآن في الجنوب الشرقي من مشهد علي [١] . وقد أكثر العرب من تحليل اسمها وتعليله على عادتهم في ارجاع الاعلام الى مشتقات عربية فقالوا سميت بذلك من الحيرة أي الضلال لان تبعاً لما بلغ موضع الحيرة (على ما يزعمون) ضلّ دليله وتحير . وزعم آخرون ان مالكاً لما نزلها جعلها حيراً اي حظيرة أو بستاناً واقطعه قومه ثم صارت الحيرة . وقال غيره بل سميت الحيرة من الحوار أي البياض لبياض ابنيتها . والحقيقة ان لفظها سرياني معناه الحصن او المعقل حوله الخندق وهي والحير العربية من أصل واحد كما ترى من تقارب اللفظ والمعنى . ولذلك كانوا يعرفونها بقولهم « حيرة النعمان » او « حيرة المنذر » اي حصنه أو معقله على جاري العادة في انشاء المدن يومئذ . فكان الملك أو الامير يبني معقلاً لنفسه وحاشيته ثم يبني الناس حوله فيتسع المكان بتوالي الازمان ويصير مدينة وعلى هذا النمط نشأت البصرة والكوفة والفسطاط وبغداد وغيرها من المدن الاسلامية [٢] ومن هذا القبيل ما بناه الغساسنة على حدود البادية في شرقي حوران من المعاقل أو القصور فقد كان المراد ببنائها حماية حدود المملكة من جهة البادية كما هو الغرض من حيرة العراق

والحيرة المذكورة ما لبثت الا قليلاً حتى صارت مدينة فيها المنازل والقصور والحدائق والانهار على حد قول الشاعر عاصم بن عمرو :

صبحنا الحيرة الروحاء خيلاً ورجلاً فوق اثباج الركاب
حضرنا في نواحيها قصوراً مشرّفة كاضراس الكلاب

واشتهرت الحيرة بصحة هوائها لقربها من هواء البرية النقي حتى قالوا « يوم وليلة في الحيرة خير من دواء سنة » وظلت الحيرة عامرة بعد الاسلام عدة أجيال . وكان بجوارها قصران كبيران هما الخورنق والسدير كالقلاع الاول على مرتفع متسلط على الحيرة على نحو ميل في شرقيها وسيأتي ذكرهما

(١) Rothstein, 13 (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج

سكان الحيرة

لما كانت الحيرة على طرف العراق في الغرب وليس بعدها غير البادية رغب فيها البدو فكان يؤمها البدوي لابتياع بعض الحاجيات ثم لا يلبث ان يقيم فيها . وكان يأتيها جماعات من مدن العراق والجزيرة فراراً من حكم أو تحياً عن عمل كان يحدث أحدهم حدثاً في قومه أو تضيق به المعيشة في بلده فيخرج الى ريف العراق وينزل الحيرة ولذلك كان سكانها اخلاطاً من امم شتى أكثرهم من العرب وقد قسمهم هشام الكلبي الى ثلاثة أقسام أولا: تنوخ من بقايا العرب الذين كانوا مع مالك بن فهم وجذيمة الابرش وكانوا يسكنون المظال والبيوت من الشعر او الوبر في غربي الفرات ما بين الحيرة والانبار وما فوقها (٢) العباد وهم سكان الحيرة نفسها الذين نزلوا فيها وابتنوا المنازل لسكناهم (٣) الاحلاف الذين لحقوا باهل الحيرة ونزلوا فيهم وهم ليسوا من تنوخ سكان بيوت الشعر ولا من العباد

وللعباد شأن في تاريخ العراق قبل الاسلام وبعده وقد اختلف الناس في حقيقتهم فقال بعضهم ان المراد بهم نصارى الحيرة على الاجمال وهم في الاصل قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية في الحيرة . ولما صارت النصرانية في اواسط القرن الخامس ثلاث كنائس الملكية واليعقوبية والنسطورية كانت النسطورية من حظ المشارقة على الخصوص في العراق وفارس والعباد من جملتهم . وابتنوا في الحيرة بيعة كبرى لهذه الطائفة تولاها عدة اساقفة وزادت اهميتها على الخصوص بعد ان تنصر ملوكها كما يدل على ذلك كثرة ما بنوه من البيع والاديار حتى النساء فقد كانت لهن عناية في انشاء المعاهد الدينية اشهرها دير هند الكبرى في الحيرة بنته هند أم الملك عمرو بن المنذر المعروف بعمرو بن هند وكان على صدر الدير نقش هذا نصه :

« بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الاملاك وأم الملك عمرو بن المنذر امة المسيح وأم عبده وبنت عبيده في ملك ملك الاملاك خسرو انوشروان في زمن مار افريم الاسقف . فالاله الذي بنت له هذا الدير يغفر لها خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بها وبقومها الى اقامة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر »

ودير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر . وللنصرانية في الحيرة تاريخ ليس هذا محله ولايضاح تاريخ ملوك الحيرة نذكر تسلسلهم في جدول ثم نأتي على اعمال كل منهم على حدة ؛

ملوك الحيرة آل نصر حسب تسلسلهم غير الدخلاء

عمرو بن عدي
امرؤ القيس بن عمرو
عمرو بن امرىء القيس
امرؤ القيس بن عمرو
النعمان الاعور بن امرىء القيس

امرؤ القيس — المنذر بن النعمان

المنذر بن ماء السماء — المنذر — الاسود

عمرو بن هند — المنذر — قابوس — النعمان

النعمان (ابو قابوس)

المنذر (المغرور)

ملوك الحيرة

(١) عمرو بن عدي من سنة ٢٦٨ — ٢٨٨ م

هو ابن عدي بن نصر من لخم تولى عدي شراب جذيمة الابرش في اثناء دولته . وكان لجذيمة اخت اسمها رقاش احبت الشاب واحتالت في تزوجه وتواطأت معه على ان يسقي أخاها حتى يسكر ثم يخطبها ففعل فاجابه جذيمة وهو سكران فلما صحا ندم فخاف عدي فهرب . ووضعت رقاش غلاماً جميلاً جاء به بعضهم الى جذيمة فاحبه لجماله وذكائه وسماه عمراً . ولما كان ما كان من أمر الزباء وقتلت جذيمة قام ابن اخته عمرو المذكور مقامه وأخذ بثأر خاله بحيلة على يد رجل من لخم اسمه قصير حتى قتلها في حديث طويل جاء فيه كثير من الامثال القديمة [١] واتخذ عمرو الحيرة منزلا خاصاً به وباهل دولته في أوائل الدولة الساسانية فعاصر سابور الاول والبهرامات الثلاثة

(١) ابن الاثير ١٤٩ ج ١

(٢) امرؤ القيس بن عمرو من سنة ٢٨٨ — ٣٢٨ م

وهو امرؤ القيس الاول بن عمرو بن عدي ويسمونه البدء وقد اتسع سلطانه وطالت مدة حكمه وبالغ العرب فيها فجعلها بعضهم مئة سنة وبعض المئة وهي لا تزيد على اربعين سنة. وامرؤ القيس هذا أول من وقف النقابون على اسمه من ملوك لخم منقوشاً على قبره وفيه تاريخ وفاته — وذلك ان دوسو المستشرق الفرنساوي عثر في خرائب النمارة التي ذكرناها بين آثار الغسانيين في حوران على حجر من الباسليت مربع الشكل مساحته ٠٠٤٠ متر في ٠٫٣٠ متر أصله من انقاض قبر قديم وهو العتبة العليا من ذلك القبر. وعليه خمسة أسطر منقوشة بالحرف النبطي واللسان العربي الشمالي وليس باللغة الحميرية أو الحرف المسند كما ينتظر لو ان آل نصر من بني قحطان كما يقولون. بل هي منقوشة باللغة العربية الشمالية أو لغة عدنان كما كانت في ذلك الحين أي في اوائل القرن الرابع للميلاد وبالحرف النبطي الذي كان يكتب به عرب الشمال. وهذه اقدم كتابة عربية شمالية قرأوها منقوشة على الآثار طولها متر و١٦ سنتمتراً في ٣٣ سنتمتراً هذه صورتها:

١
٢
٣
٤
٥

ش ٢٩ ـ كتابة عربية بخط نبطي على قبر امرىء القيس بن عمرو

وهذا نصها بالحرف العربي كل سطر على حدة:

١ تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج
٢ وملك الاسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجاء
٣ بزجو (؟) في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
٤ الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه
٥ عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده

هذا لسان عربي تشوبه صيغة آرامية يحتاج تفهمها الى ايضاح. ففيها من الالفاظ

---

(١) ابن الاثير ١٤٨ ج ١

الآرامية أو النبطية « ني » أي هذا و « نفس » قبر و « بر » ابن و « عكدي » اليوم وكان العرب يومئذ في دور الانتقال لاستخدام لغتهم بدل اللغة الارامية للكتابات الرسمية . واذا نظرت في صورة الخط نفسها رأيتها في أول دور الانتقال ايضاً من الشكل النبطي الى الشكل العربي . لان الخط العربي الشائع بيننا الآن متحول عن الحرف النبطي الذي كان شائعاً في مملكة الانباط [١] وقد نشرنا امثلة منه في ما تقدم

وتفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى هو :

١ هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج

٢ واخضع قبيلتي اسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج الى اليوم وقاد

٣ الظفر الى اسوار نجران مدينة شمر واخضع معداً واستعمل بنيه

٤ على القبائل والماهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه

٥ الى اليوم . توفي سنة ٢٢٣ في اليوم السابع من ايلول (سبتمبر) وفق بنوه للسعادة

وكان أهل الشام وحوران وما يليهما يؤرخون في ذلك العهد بالتقويم البصروي نسبة الى بصرى عاصمة حوران وهو يبدأ بدخولها في حوزة الروم سنة ١٠٥ للميلاد فاذا اضيفت الى ٢٢٣ كان المجموع ٣٢٨ الميلاد وهي السنة التي توفي فيها هذا الملك

فامرؤ القيس المذكور يرجح انه ملك الحيرة الذي نحن في صدده لاننا لا نعرف ملكا بهذا الاسم عاش نحو ذلك الزمن . ويرى الموسيو كليرمون غانو المستشرق الفرنساوي ان لفظ التاج كاف وحده للدلالة على علاقته بالفرس وان وجدوا قبره في حوران وهي تابعة للروم لان لقب « ذي التاج » من القاب ملوك الحيرة . وأما وجود قبره في حوران بعيداً عن الحيرة فلعل سببه ان سلطته امتدت على قبائل العرب في بادية الشام والعراق واقواها يومئذ معد وأسد ونزار ومذحج . ويظهر انه حارب شمر يرعش صاحب حمير وهو معاصر له (راجع قائمة ملوك حمير) وولى أولاده على تلك الاعمال كما ذكر على قبره . ويؤيد ذلك قول العرب « ان امرء القيس كان عاملاً للفرس على مذحج من ربيعة ومضر وعلى سائر بادية العراق والجزيرة والحجاز » [٢] ولعله جاء الى حوران في مهمة أو شأن وتوفي فيها فبنوا له قبراً دفنوه فيه . بنوا قبره في أرض رومانية وكتبوا عليها بالحرف النبطي قلم تلك الولاية وارخوه بتاريخها مما يدل على علائق ودية كانت بينه وبين الشام [٣] وعاصر امرؤ القيس من ملوك الفرس بهرام

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٥٤ ج ٣ (طبعة رابعة) (٢) ابن خلدون ١٧١ ج ٢

(٣) Dussaud, 37

الثالث ونرسي وهرمز بن نرسي وسابور ذا الاكتاف

(٣) عمرو بن امرىء القيس من ٣٢٨ — ٣٧٧ م

ولما توفي امرؤ القيس بن عمرو خلفه ابنه عمرو بن امرىء القيس وامه هند بنت كعب بن عمرو وطالت مدة حكمه نحو نصف قرن فعاصر ذا الاكتاف معظم حكمه ولا نعرف عنه شيئاً كأن ايامه كانت ايام سلم ورخاء فلم يذكره التاريخ — وأقل الناس ذكراً في التاريخ أقربهم الى السعادة

(٤) اوس بن قلام من ٣٧٧ — ٣٨٢ م

هذا دخيل في دولة آل نصر ليس له نسب فيهم . حكم خمس سنين في ايام اردشير ابن سابور حتى قتله احد بني نصر فعادت حكومة الحيرة اليهم

(٥) امرؤ القيس بن عمرو بن امرىء القيس من ٣٨٢ — ٤٠٣ م

ويعرف بامرىء القيس البدن وهو محرق الاول لانه أول من عاقب بالنار وحكم ٢١ سنة في أيام سابور بن سابور وبهرام بن سابور ويزدجرد الاول وليس لنا من أخباره ما يستحق الذكر

(٦) النعمان بن امرىء القيس الاعور السائح من ٤٠٣ — ٤٣١ م

هو من أشهر ملوك الحيرة حكم ٢٨ سنة عاصر فيها من ملوك الفرس يزدجرد الاول وبهرام جور . وكان من أشد ملوك العرب نكاية في أعدائه وابعدهم مغاراً . غزا الشام مراراً واكثر من المصائب في أهلها وسبي وغنم وجند الجند على نظام عرف به . وكان عنده من الجيش كتيبتان احدهما مؤلفة من رجال الفرس اسمها الشهباء والاخرى من تنوخ اسمها دوسر فكان يغزو بهما من لا يدين له من العرب . وكان صارماً حازماً ضابطاً لملكه واجتمع له من الاموال والرقيق والخول ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة

وكانت الحيرة على شاطىء الفرات والفرات يدنو من اطراف البر حتى يقرب من النجف فلما تبسط النعمان في العيش رأى أن يتخذ مجلساً عالياً يشرف منه على المدينة فاتخذ الخورنق على مرتفع يشرف على النجف وما يليه من النخل والبساتين والجنان والانهار مما يلي المغرب وعلى الفرات مما يلي المشرق . فاعجبه ما رأى في البر من الخضرة والنور والانهار الجارية ولقاط الكمأة ورعي الابل وصيد الظباء والارانب . وفي الفرات من الملاحين والغواصين وصياد السمك وفي الحيرة من الاموال والخول من يموج فيها من رعيته . فتفكر في ذلك وقال في نفسه «أي دَرك في هذا الذي قد

ملكته اليوم ويملكه غداً غيري » فبعث الى حجابه نحاهم عن بابه فلما جن الليل التحف كساءه وساح في الارض فلم يره أحد . وفيه يقول عدي بن زيد يخاطب النعمان بن المنذر الآتي ذكره :

وتدبر رب الخورنق اذ اشـ ـرف يوماً وللهدى تفكير
سرّه حاله وكثرة ما يملـ ـك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبهُ وقال وما غبطة حي الى الممات يصير

وقد ذكروا من حديث بناء الخورنق ما هو مشهور متناقل في حديث سنمار الذي بناه وكيف قتله حتى لا يبني سواه

وكان النعمان هذا متزوجاً الى زهير بن قيس بن جذيمة من بني عبس فارسل الى حيه المذكور يستزيره بعض أولاده فارسل ابنه شاساً فاكرمه النعمان واعطاه مالاً وطيباً فلما رجع شاس يريد قومهُ قتلهُ في الطريق رياح بن الاشل الغنوي وأخذ ما كان معه . وعلم أبوه فحمل عليهم فحصلت معركة عرفت بيوم رحرحان سيأتي ذكرها في كلامنا على أيام العرب

(٧) المنذر بن النعمان بن امرىء القيس من ٤٣١ – ٤٧٣ م

ذكر حمزة هذا المنذر وقال ان أمه هند بنت زيد مناة بن زيد بن عمرو الغساني وانه حكم ٤٤ سنة وذكر ملوك فارس الذين عاصرهم وهم بهرام جور بن يزدجرد الاثيم ويزدجرد بن بهرام وفيروز بن يزدجرد . ومع ذلك فهم يقولون انه تولى تربية بهرام جور دفعه اليه أبوه يزدجرد الاثيم ليربيه من الرضاعة فما بعدها . فلما بلغ خمس سنين احضر له مؤدبين علموه الكتابة والرمي والفقه بطلب من بهرام بذلك واحضر له حكيما من حكماء الفرس فوعى كل ما علمه فلما بلغ ١٢ سنة فاق معلميه فامرهم المنذر بالانصراف واحضر معلمي الفروسية فاخذ عنهم كل ما ينبغي له ثم صرفهم وأمر فاحضرت خيل العرب للسباق فعلمه ركوب الخيل والرمي والصيد وغير ذلك فاقبل على اللهو والتلذذ فمات أبوه وهو عند المنذر . فتعاهد العظماء وأهل الشرف على ان لا يملكوا أحداً من ذرية يزدجرد لسوء سيرته ونشوء بهرام عند العرب وتخلقه باخلاقهم وملكوا رجلاً من عقب اردشير بن بابك فاستنصر بهرام بالمنذر فنصره ورد اليه الملك بالسيف وأطاعه الجميع في حديث طويل [1] ولكنه ظل على لهوه حتى طمع به ملك الترك فعاد الى رشده وسار بهم وغلبهم

والمنذر هذا فضل على بهرام جور وعلى أبيه يزدجرد لانه أعانه في حروب كثيرة

(١) ابن الاثير ١٧٧ ج ٣

ومن جملتها حرب مع الروم . وذلك ان يزدجرد اضطهد النصارى في بلاده وجاراه ابنه بهرام جور فنهض الروم لنصرة النصارى أو هي ذريعة للحرب طمعاً بالفتح على عادة الطامعين من دول اوربا في الشرق . ولا يزال ذلك دأبهم الى اليوم — فانتشبت الحرب بين الدولتين وحاصر الروم نصيبين فاستنصر بهرام المنذر فلباه ووعد ان يكتسح له سوريا أيضاً وقد فعل وبالغ رجاله في النهب والقتل . فلما بلغ خبر ذلك الى القسطنطينية وقع الرعب في قلوب الروم وعمدوا الى الصلاة والاستعاذة بالله من ذلك الاسد العربي . ولو دخل الفرس عاصمة النصرانية يومئذ لتغير وجه اوربا كما تغير لما فتحها العثمانيون بعد ذلك بنيف والف سنة . ولكن اوربا نجت يومئذ باضطراب وقع في معسكر المنذر اضطرهُ الى عقد الصلح

(٨) الاسود بن المنذر بن النعمان ٤٧٣ — ٤٩٣ م

اشتهر هذا الملك بمعركة حارب بها الغساسنة واسر عدة من ملوكهم ثم أراد ان يعفو عنهم وكان له ابن عم اسمه أبو اذينة قد قتل آل غسان له اخاً في بعض الوقائع فقال ابو اذينة في ذلك قصيدة يغري بها الاسود على قتلهم مطلعها :

ما كل يوم ينال المرء ما طلبا	ولا يسوغهُ المقدار ما وهبا
وانصف الناس من ان فرصة عرضت	لم يجعل السبب الموصول مقتضبا

الى ان قال :

والعفو الا عن الاكفاء مكرمة	من قال غير الذي قد قلته كذبا
قتلتَ عمراً وتستبقي يزيد لقد	رأيت رأياً يجر الويل والحربا
لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها	ان كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا[١]

فقتلهم

(٩) المنذر بن المنذر أخوه ٤٩٣ — ٥٠٠ م — ليس له حوادث تستحق الذكر

(١٠) النعمان بن الاسود ٥٠٠ — ٥٠٤ م

لم يورد له العرب خبراً هاماً ولكن جاء في كتب اليونان انه قضى مدة حكمه الصغيرة وهو خارج الحيرة يحارب الروم في سوريا والجزيرة وابلى بلاء حسناً . وفي ايامه تعدى بكر وتغلب على حدود العراق فجرد النعمان المذكور اليهم فلم يقوَ عليهم وقتل من أهله كثيرون ولم يحضر المعركة بنفسه ولكنه مات في ذلك العام وهو محاصر الرها مع قباذ وهي ممتنعة عليهم وينسب مؤرخو النصرانية وفاته الى معجزة دينية[٢] وكان معاصراً لقباذ والد كسرى انوشروان

---

(١) ابو الفداء ٧٩ ج ١ (٢) Assemani, Bibl. Or. Vol. I. 276

(١١) علقمة أبو يعفر ٥٠٤ – ٥٠٧ م

كان معاصراً لقباذ وهو من غير آل نصر وليس له خبر يستحق الذكر

(١٢) امرؤ القيس بن النعمان ٥٠٧ – ٥١٤ م – شأنه مثل شأن علقمة

(١٣) المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء ٥١٤ – ٥٦٣ م

هو أشهر ملوك لخم واكثرهم عملاً لانه عاصر من ملوك الفرس قباذ المذكور وابنه انوشروان ومن قياصرة الروم يوستنيانوس ومن الغساسنة الحارث بن جبلة وكلهم من كبار الرجال اجتمعوا في عصر واحد . وفي أيامه فتح الاحباش بلاد اليمن على يد ابرهة وكان المنذر في جملة الوفود على ابرهة كما تقدم وهو صاحب يوم اباغ

افضت سيادة الحيرة الى المنذر المذكور في أواسط حكم قباذ وظهر في اثناء ذلك مذهب مزدك وغايته الاشتراك في الاموال والاشياء . وكان أعيان الفرس واشرافهم قد احرزوا اموالا طائلة ومجوهرات وعقارات لا تقدّر – قالوا : فاراد قباذ ان يستعين بهذا المذهب على مشاركتهم فيها فانتحله وتعصب لصاحبه وحمل رجاله عليه ومنهم من أطاع ومنهم من أبى والمنذر من جملة الذين انكروا هذه البدعة فلم يتبعها . وكانت دولة كندة الآتي ذكرها قد ظهرت وتوالى منها بضعة ملوك منهم الحارث بن عمرو ابن حجر الكندي وكان معاصراً لقباذ والمنذر . وملوك كندة يومئذ ينافسون اللخميين في السيادة على عرب الشمال كما ينافسهم الغسانيون . وكان الحارث الكندي المذكور يتقرب من الاكاسرة لفرصة يغتنمها لتأييد سلطته وهم يدافعونه أو يسايرونه حتى اذا تغير قباذ على المنذر تصدى الحارث للولاية فولاه قباذ الحيرة واخرج المنذر منها فظل مختبئاً بقية أيام قباذ فلما تولى انوشروان وكان على غير رأي والده اقبل عليه المنذر فرحب به ثم أعاده الى منصبه بعد ان قتل مزدك وهرب الحارث ونجا . واصلح انوشروان ما أفسده ابوه ومزدك [1]

وقد ذكرنا في تاريخ الحارث بن جبلة الغساني ما كان من حروبه مع المنذر المذكور في يوم اباغ وغيره . وهو صاحب الغريين ويومي البؤس والنعيم . وذكروا في سبب ذلك انه كان للمنذر نديمان من بني اسد ثملا فراجعا الملك مرة في بعض كلامه فامر وهو سكران فحفروا لهما حفرتين في ظهر الحيرة ودفنوهما حيين . فلما صحا ندم وامر ببناء صومعتين عليهما واقسم لا يمرّ أحد من وفود العرب الا بينهما . وجعل لهما في السنة يوم بؤس ويوم نعيم يذبح في يوم بؤسه كل من يلقاه ويطلي بدمه الصومعتين

(١) ابن الاثير ١٨٣ ج ١ والاغاني ٦٣ ج ٨

ويحسن الى من يأتيه في يوم النعيم . ولبث على ذلك برهة من الدهر حتى جاء عبيد ابن الابرص الاسدي الشاعر ممتدحاً واتفق قدومه يوم البؤس فشق على المنذر قتله ولم ير بداً من البر بقسمه في حديث لطيف لا محل له هنا [١]

وفي رواية أخرى ان الذي أتاه في يوم البؤس حنظلة بن أبي عفراء ولما علم بقرب اجله استمهل الملك ريثما يعود الى أهله وكفله رجل من خاصة المنذر حتى عاد وكان لرجوعه ووفائه تأثير على المنذر حتى ابطل هذه العادة [٢] . وقال بعضهم ان النعمان تنصر لهذا السبب ولقول حنظلة انه انما حمله على الوفاء النصرانية — وتشبه هذه القصة قصة يونانية عن رجل يوناني اسمه دامون من أصحاب فيثاغورس وتابعي مذهبه كان له صديق من هذا المذهب اسمه فنطياس حكم عليه ديونيسيوس الاول صاحب سرقوسة بالاعدام لتهمة وجهت اليه فالتمس الرجوع الى أهله يقضي عندهم اياماً يدبر بها شؤونه ثم يعود لتنفيذ الحكم فطلبوا من يضمنه فتصدى صديقه دامون وضمنه . ثم وفى فنطياس وعده وعاد قبل الموعد بيوم واحد فأعجب ديونيسيوس باريحية دامون ووفاء فنطياس فعفا عنهما وقربهما اليه وجعلهما من خاصته . وللمنذر بن ماء السماء يوم مشهور بين أيام العرب يعرف بيوم اوارة بينه وبين بكر بن وائل سيأتي ذكره في أيام العرب

(١٤) الحارث بن عمرو الكندي — جاء خبره في اثناء خبر المنذر بن ماء السماء ومدة حكمه داخلة في مدة حكم المنذر

(١٥) عمرو بن هند مضرط الحجارة من ٥٦٣ — ٥٧٨ م

هو عمرو بن المنذر بن امريء القيس ويسمونه المحرق الثاني ويعرف باسم امه هند بنت عمة امريء القيس الشاعر الشهير ولدت للمنذر عمراً هذا وقابوساً . وكان عمرو شديد السلطان وقد غزا بني تميم في دارهم وقتل من بني دارم كثيرين يوم اوارة الثاني وبالغ بالعظمة والكبرياء حتى توهم في نفسه الفضل على الناس كلهم وخيل له انه ليس من أمير في العرب لا يخدمه ويتمنى رضاه وكانت تلك الدعوى سبب قتله — وذلك انه قال يوماً لجلسائه « هل تعرفون أحداً من أهل مملكتي يأنف ان تخدم امه امي » قالوا « ما نعرفه الا ان يكون عمرو بن كلثوم التغلبي فان امه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو » . فسكت مضرط الحجارة على ما في نفسه وبعث الى ابن كلثوم يستزيره ويأمره ان تزور امه امه . فقدم ابن كلثوم في فرسان من تغلب ومعه امه ليلى فنزل على شاطيء الفرات وبلغ عمرو بن هند قدومه

(١) ياقوت ٧٩٣ ج ٣ (٢) الاغاني ٨٧ ج ١٩

فامر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات وصنع طعاماً دعا اليه وجوه أهل دولته فقرب لهم الطعام على باب السرادق وجلس هو وعمرو بن كلثوم وخواص أصحابه في السرادق ولامه هند قبة في جانب السرادق وليلى ام عمرو بن كلثوم معها في القبة وكان مضرط الحجارة قد قال لامه « اذا فرغ الناس من الطعام ولم تبق الا الطرف نحي خدمك عنك فاذا دنت الطرف استخدمي ليلى » ففعلت . فلما استدعي الطرف قالت هند لليلى « ناوليني ذلك الطبق » قالت « لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها » فألحت عليها فقالت ليلى «وا ذلاه يا آل تغلب » فسمعها ولدها ابن كلثوم فثار الدم في عروقه والقوم يشربون فعرف عمر بن هند الشر في وجهه ونهض ابن كلثوم الى سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هناك سيف غيره فاخذه وضرب به مضرط الحجارة فقتله وخرج فنادى يا آل تغلب فانتهبوا ماله وخيله وسبوا النساء ولحقوا بالحيرة . وعاصر عمرو المذكور كسرى انو شروان

(١٦) قابوس بن المنذر ٥٧٨ — ٥٨١ م

هو اخو عمرو المتقدم ذكره وكان ضعيفاً وفيه لين وسموه قينة العرس وله مع بني يربوع يوم طخفة وسيأتي خبره

(١٧) فيشهرت (أو زيد) ٥٨١ — ٥٨٢ م ليس له خبر يذكر

(١٨) المنذر بن المنذر بن ماء السماء ٥٨٢ — ٥٨٥ م

هو صاحب يوم حليمة الذي تقدم ذكره

(١٩) النعمان بن المنذر ابو قابوس ٥٨٥ — ٦١٣ م

كان معاصراً لهرمز الرابع وكسرى برويز وبلغت الدولة في أيامه منتهى الترف والرخاء اقتداء بالفرس . وبعد ان كان الاكاسرة في أوائل الدولة يعجبون بنشاط العرب وانفتهم ويعهدون اليهم بتربية اولادهم وتثقيفهم اصبح هؤلاء يعهدون بتربية اولادهم الى آخرين. وذلك أن المنذر بن المنذر والد النعمان المذكور عهد بتربيته الى رجل من عباد الحيرة اسمه عدي بن زيد وكان للمنذر ١٢ ولداً يسمون الاشاهب وكان النعمان من بينهم احمر ابرش قصيراً وكان قابوس عم النعمان قد بعث الى انو شروان بعدي بن زيد واخوته وهم من أهل الكتابة يعرفون الفارسية والعربية فكانوا في جملة كتابه ومترجميه . فلما مات المنذر والد النعمان اقام على ولده رجلاً من طيء اسمه اياس بن قبيصة وجعل امره كله بين يديه وفكر انوشروان في من يملكه على العرب بعد المنذر المتوفى وشاور عدي بن زيد المذكور واستنصحه في بني المنذر فاشار عليه بالنعمان

وكان في خاصة ملك الفرس رجل آخر من بني مرينا اسمه عدي ايضاً وكان هواه مع أخ للنعمان اسمه الاسود فساءه انتخاب النعمان للملك وعزم على الكيد به وبعدي بن زيد وحرض الاسود على ذلك واخذ هو يسعى سراً مكراً بعدي لدى النعمان نفسه بالاغتياب والوشاية واسترضاء الحاشية حتى أضغن النعمان عليه وكان عدي يومئذ في المدائن عند كسرى والنعمان في الحيرة . فبعث النعمان يستزيره فاستأذن كسرى بذلك ونزل الحيرة فامر النعمان بحبسه فجعل عدي يقول الشعر فبلغ النعمان قوله فندم على حبسه وخاف منه اذا أطلقه . وبلغ كسرى حال عدي فكتب الى النعمان ان يطلقه . وعلم النعمان بالرسالة قبل وصول الرسول فشاور أصحابه فخوفوه من اطلاقه فبعث اليه جماعة خنقوه ودفنوه . وكان الرسول قد رآه في السجن قبل وصوله الى النعمان فلما ادى الرسالة قال له النعمان اذهب الى السجن فخذه فقيل له انه مات منذ ايام فعلم انهم غدروا به وقتلوه فعاد الى النعمان بذلك فرشاه واستوثقه ان لا يقول لكسرى وقد ندم على ما فرط منه

ورأى النعمان ابناً لعدي اسمه زيد فاراد أن يكرمه تكفيراً عن اساءته لابيه فطلب اليه زيد أن يسعى له عند كسرى ليجعله مكان أبيه ففعل فتقرب زيد من كسرى وفي نفسه شيء على النعمان يضمره ويظهر الثناء عليه ويترقب الفرص . فاتفق ان كسرى احتاج الى نساء لتزويج اولاده فاشار عليه زيد ان يطلب من النعمان بعض بنات عمه واثنى على جمالهن وهو يعلم أن النعمان يضن بذلك فكلفه كسرى أن يسير في طلبهن وانفذ معه سفيراً يعرف العربية ليسمع جواب النعمان

فلما دخل زيد والرسول على النعمان افهماه ما طلبه كسرى فشق ذلك عليه فقال « ما في عِين السواد وفارس ما تبلغون به حاجتكم ؟ » فسأل الرسول زيداً عن معنى لفظ « عِين » فقال « البقر » فلما عادا الى كسرى اخبراه بما قاله فغضب لقوله « ما في بقر السواد ما يكفيه » وسكت اشهراً ثم بعث يستقدمه اليه . وبلغ النعمان غضبه فاخذ سلاحه وما استطاع حمله ولحق بجبلي طيء وكان متزوجاً اليهم وطلب منهم أن يمنعوه فابوا عليه خوفاً من كسرى . فاقبل وليس أحد من العرب يقبله حتى نزل في ذي قار على بني شيبان سراً فلقي هناك هانيء بن مسعود الشيباني وكان سيداً منيعاً فاودعه اهله وماله وفيه ٤٠٠ درع وتوجه الى كسرى فلما وصل الى بابه بعث اليه من قيده وارسله مخفوراً الى خانقين وحبسه فيها حتى جاء الطاعون فمات فيه سنة ٦١٣ م ويقول بعضهم ان النعمان هذا هو صاحب الغريين وانه كان يعبد الوثن فتنصر على يد عدي بن زيد المذكور. وانه باني قناطر النعمان قرب قرميسين والغالب انها من بناء الاكاسرة

وهو صاحب يوم طخفة ويوم السلان . الاول بينه وبين بني يربوع وسبب يوم طخفة ان الردافة وهي بمنزلة الوزارة والرديف يجلس عن يمين الملك كانت لبني يربوع من تميم يتوارثونها صغيراً عن كبير . فلما كانت ايام النعمان وقيل ايام ابنه المنذر سألها حاجب بن زرارة الدارمي التميمي النعمان لبني دارم فقال النعمان لبني يربوع في هذا وطلب منهم أن يجيبوا الى ذلك فامتنعوا وكان منزلهم اسفل طخفة فلما امتنعوا من ذلك بعث اليهم النعمان قابوساً ابنه وحساناً اخاه على أن يكون قابوس على الناس وحسان على المقدمة وضم اليهما جيشاً كثيفاً فيهم الصنائع والوضائع وناس من تميم وغيرهم فساروا حتى اتوا طخفة فالتقوا هم ويربوع واقتتلوا وصبرت يربوع وانهزم قابوس ومن معه وضرب طارق ابو عميرة فرس قابوس فعقره واسره وأراد ان يجز ناصيته فقال قابوس ان الملوك لا تجز نواصيها فارسله . واما حسان فاسره بشر بن عمرو بن جوين فمَنَّ عليه وارسله فعاد المنهزمون الى النعمان . وكان شهاب بن قيس بن كياس اليربوعي عند الملك فقال له يا شهاب ادرك ابني وأخي فان ادركتهما حيين فلبني يربوع حكمهم وارد عليهم ردافتهم واترك لهم من قتلوا وما غنموا واعطيهم الفي بعير . فسار شهاب فوجدهما حيين فاطلقهما ووفى الملك لبني يربوع بما قال ولم يعرض لهم في ردافتهم وقال مالك بن نويرة :

ونحن عقرنا مهر قابوس بعدما	رأى القوم منه الموت والخيل تلحبُ
عليه دلاص ذات نسج وسيفه	جراز من الهندي ابيض مقضب
طلبنا بها انا مداريك نيلها	اذا طلب الشأو البعيد المغرب

ويوم السلان بين النعمان المذكور وبني عامر بن صعصعة وسببه ان كسرى برويز كان يجهز كل سنة لطيمة (قافلة تجارية) تباع بعكاظ فغزا بنو عامر لطيمة منها في بعض السنين فغضب النعمان واستنفر أخاه لامه وبرة بن رومانوس الكلبي وارسل الى بني تميم فجمعهم وجهز معهم عيراً وقال لهم اذا فرغتم من عكاظ وانسلخت الحرم ورجع كل قوم الى بلادهم فاقصدوا بني عامر فانهم قريبون بنواحي السلان. فخرجوا وكتموا أمرهم وقالوا خرجنا لئلا يعرض أحد للطيمة الملك . فلما فرغ الناس من عكاظ علمت قريش بحالهم فارسل عبد الله بن جدعان قاصداً الى بني عامر يعلمهم الخبر فسار اليهم واخبرهم خبرهم فحذروا وتهيأوا للحرب وتحذروا ووضعوا العيون وعاد عليهم عامر بن مالك ملاعب الاسنة واقبل الجيش فالتقوا بالسلان فاقتتلوا قتالا شديداً وعادت العائدة على جيش النعمان [1]

(١) الاثير ٢٩٥ ج ١

(٢٠) اياس بن قبيصة من سنة ٦١٣ — ٦١٨ م

فلما مات النعمان استعمل كسرى اياس من قبيصة الطائي مكانه وأمره ان يجمع ما خلفه النعمان ويرسله اليه فبعث اياس الى هانيء بن مسعود بارسال ما استودعه النعمان فابى فغضب كسرى فاشار عليه أحد اعداء شيبان وسائر بكر بن وائل ان ينتظر ريثما ينزلون ذي قار فيبعث من يأخذهم بالقوة . فصبر كسرى حتى نزلوا المكان فبعث اليهم ان يسلموا ما خلفه النعمان عندهم أو الحرب فاختاروا الحرب فحمل عليهم اياس بن قبيصة ومعه جند الفرس والعرب واياد بالافيال والعدة الثقيلة . أما هانيء بن مسعود ففرق سلاح النعمان في رجاله وعزم على الفرار خوفاً من كثرة جند الفرس . فاعترضه رجل من عجل اسمه حنظلة بن ثعلبة وقال « يا هانيء اردت نجاتنا فالقيتنا في المهلكة » فردَّ الناس وقطع وضن الهوادج (احزمتها) وضرب على نفسه قبة واقسم لا يفر حتى تفر القبة فرجع الناس واستقوا ماء لنصف شهر فانهزم الفرس بصفوفهم وخيولهم وثبت العرب ثباتاً جميلا فانتصروا وفر الفرس مع كثرة عددهم سنة ٣ للبعثة وتعرف هذه الواقعة في تاريخ العرب بيوم ذي قار وقد انتصف فيه العرب من العجم ونقمت سائر العرب على اياس

(٢١) زاديه من ٦١٨ — ٦٢٨ م ليس له خبر يذكر

(٢٢) المنذر بن النعمان المغرور ٦٢٨ — ٦٣٢ م

هو آخر ملوك الحيرة قتل في البحرين يوم جواثا وليس له من الاعمال ما يستحق الذكر

مبلغ سيادة اللخميين

كان في بادية الشام والعراق والجزيرة والحجاز والبحرين ونجد قبائل كثيرة من البدو أهل الرحلة أكثرهم من عدنان يتولاهم امراؤهم أو مشائخهم بلا دولة أو جند ولا حصون أو قلاع الا نادراً وانما قلاعهم شجاعتهم وبداوتهم . وكانت الدول المتحضرة تستعين بهم في حروبهم كما تقدم . فتسابق الغساسنة والمناذرة الى ادخالهم في رعايتهم وكل منهما تنتمي الى دولة كبرى الغساسنة للروم والمناذرة للفرس . ونشأت في اثناء ذلك دولة كندة الآتي ذكرها وهي تنتمي الى حمير وكانت تنازعهما تلك السيادة . فاصبح عرب الشمال يتنازع السيادة عليهم ثلاث دول عربية تتناوب الفوز في ذلك على مقتضى الاحوال

وكانت قبائل البدو من الجهة الاخرى ترغب في الدخول تحت حماية احدى تلك

الدول لما فطر عليه أهل البادية من التنازع والتغازي والتخاصم . فكانت كل قبيلة تسعى في الانضمام الى دولة تستنجدها أو تلجأ الى جندها عند الحاجة وقد يتسابق بعضهم الى التقرب منها للتفاخر بخدمتها كما كان بنو يربوع يتفاخرون بردافة ملوك الحيرة . وكان لكل دولة من تلك الدول صنائع ووضائع والصنائع من كانوا يصطنعونه من القبائل للغزو به والوضائع كالمشائخ . ومرت برهة من الدهر كان فيها الانتماء الى احدى تلك الدول كالفرض الواجب فمن لا ينتمي الى احداها سموه « الاحمس » والجمع الحمس. وأشهر الحمس في الجاهلية حمس قريش فكانوا لقاحاً لا يدينون الملوك [1]

وكانت تلك القبائل اكثر احتكاكا بدولة اللخميين مما بالغساسنة واكثر تعظيماً لامرها وتهيباً منها . فكانوا اشد رغبة في الانضمام اليها والدخول في رعايتها فاتسع سلطان اللخميين اتساعاً كبيراً ولا سيما في ابان سطوة الفرس وضعف الروم . وقد رأيت مبلغ ذلك في أيام امرىء القيس بن عمرو صاحب قبر النمارة فانها شملت معظم القسم الشمالي من جزيرة العرب وبعض جنوبيها . ثم اختلفت بعد ذلك مما لا يتيسر حصره أو تحديده ولكننا نعلم ان مجالسهم كانت مرجع المستنجدين وميدان الشعراء والمادحين . ومن شعرائهم النابغة وحسان والمتلمس والمنخل ولهم مع الشعراء وقائع تدخل في مجلد كبير

ديانتهم

واختلفوا في ديانة ملوك الحيرة فمن قائل انهم تنصروا على عهد امرىء القيس الاول بن عمرو في أوائل القرن الرابع وقائل ان أول من تنصر النعمان بن المنذر في آخر القرن السادس وبينهما أقوال كثيرة لا سبيل الى تحقيقها لاختلاف القائلين فيها مثل اختلافهم في عدد الملوك وفي تعاقبهم وسني حكمهم

على اننا نرى في سجل الكنيسة الشرقية Synodicon Orientale ان الحيرة كان عليها اسقف سنة ٤١٠ وان ملكها حمى النصرانية سنة ٤٢٠ م ونرى من الجهة الاخرى ان النساطرة واليعاقبة اشتد جدالهم في أوائل القرن السادس للميلاد وتنافسوا في الرئاسة ففاز النساطرة . وملوك الحيرة كانوا الى أواسط القرن المذكور على الوثنية وان المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء كان يقدم ذبائح من البشر الى العزى [2] وكان بين نسائه امرأة من غسان اسمها هند الكبرى ام عمرو بن هند مضرط الحجارة

---

(١) ياقوت ٥١٩ ج ٣ وابن الاثير ٢٩٥ ج ١ (٢) Labourt, 109 & 206

كانت مسيحية فبثت مبادىء النصرانية في ابنها فنشأ نصرانياً ويؤيد ذلك ما نقشته على ديرها وقد ذكرناه

ولكن يظهر ان النصرانية لم تثبت بعد عمرو المذكور فلما مات رجع خليفته قابوس او المنذر بن المنذر الى الوثنية ونشأ ابنه النعمان فيها يذبح للاصنام حتى تنصر على يد الجاثليق صبر يشوع (١) ويقول العرب انه تنصر على يد عدي بن زيد (٢) وقد يتفق القولان بان يكون عدي رغبه في النصرانية والجاثليق عمده

دولة كندة

كندة على قول العرب بطن من كهلان وحكمنا فيهم مثل حكمنا في سائر عرب الشمال في الطور الثاني وقد بسطناه . وأصلهم فيما رواه الثقات من البحرين والمشقر وانهم اجلوا عنهما الى حضرموت وعددهم ٣٠٠٠٠ نفس في زمن لا يمكن تحديده. وأقاموا هناك ما شاء الله في بلد يعرف باسمهم « كندة » مرتفع عن الارض يشرف على حضرموت وتصب اوديته فيه ثم الى مهرة وقصبته الكبرى اسمها دمون (٣) . اقام الكنديون هناك دهراً وهم على وفاق مع الحميريين حكام تلك البلاد . وكان الحميريون يستخدمون خاصة كندة وكبارهم في بعض مصالحهم ويدخلونهم في حاشيتهم أو بطانتهم

واتفق على عهد حسان بن تبع ملك حمير ان حجر بن عمرو سيد كندة دخل في خدمته لقرابة بينهما - لان حساناً وحجراً كانا اخوين لام واحدة . وقد ذكرنا ما كان من فتوح حسان في جزيرة العرب شمالا وجنوباً وكان حجر معه . فلما أراد الرجوع الى اليمن رأى ان يختصه بكرامة فولاه قبائل معد كلها وهي كما علمت من قبائل البادية التي لا تجمعها دولة فولاه عليها ورجع الى بلده فدانت معه لحجر المذكور وهو حجر بن عمرو المعروف بآكل المرار (٤)

وذكر اليعقوبي لنزوح كندة عن حضرموت سبباً آخر قال انه وقع بين القبيلتين حروب طالت حتى كادت تفنيهما وكندة اضعفهما فرأت الرحيل من اليمن فصارت الى ارض معد فجاورتهم ثم ملكوا رجلا منهم هو أول ملوكهم واسمه مرتع بن معاوية بن ثور وخلفه آخر فآخر كما ترى في هذا الجدول :

(١) Labourt, 207 (٢) ابن خلدون ١٧١ ج ٢ (٣) الهمداني ٨٨
(٤) ابن خلدون ٢٧٢ ج ٢

	مدة الحكم
مرتع بن معاوية بن ثور	٢٠
ثور بن مرتع . حكم مدة قصيرة	٠٠
معاوية بن ثور . » » »	٠٠
الحارث بن معاوية بن ثور	٤٠
وهب بن الحارث	٣٠
حجر بن عمرو آكل المرار	٢٣
عمرو بن حجر بن عمرو آكل المرار	٤٠

الحارث بن عمرو بن حجر . كان معاصراً للمنذر بن ماء السماء وقد تقدم ذكره هذا ما ذكره اليعقوبي في تاريخه ولكن الاكثرين على ان أول من ملك كندة حجر بن عمرو آكل المرار ولعل هذا هو الصواب وان المراد بمن ذكر قبله آباؤه . وفي كل حال ليس لاحدهم عمل مذكور وأول من ذكرت اعماله حجر بن عمرو وقالوا في سبب تملكه على العرب في نجد ان سفهاء بكر غلبوا على عقلائها وغلبوهم على الامر واكل القوي الضعيف فنظر العقلاء في أمرهم فرأوا ان يملكوا عليهم ملكا يأخذ للضعيف من القوي ورأوا مع ذلك ان هذا لا يستقيم بان يكون الملك منهم اذ لا يطيعه قوم ويخالفه آخرون . فاجمعوا على ان يسيروا الى تبع اليمن (حسان) وكان التبابعة للعرب بمنزلة الخلفاء المسلمين وطلبوا اليه ان يولي عليهم ملكا . وكان حجر المذكور ذا رأي ووجاهة فولاه عليهم . ومع اختلاف الروايات في الصورة فان المغزى واحد وهو ان دولة كندة تابعة لدولة حمير . فقدم حجر الى نجد ونزل بطن عاقل وكان اللخميون قد ملكوا كثيراً من تلك البلاد ولا سيما بلاد بكر بن وائل فنهض حجر بهم وحارب اللخميين وانقذ أرض بكر منهم . فاجتمعت كلمة القوم على احترامه وما زال كذلك حتى مات ودفن في بطن عاقل.

ملوك كندة

فافضت الحكومة الى ابنه عمرو بن حجر بن عمرو آكل المرار ويسمونه المقصور لانه اقتصر على ملك ابيه . فلما مات خلفه ابنه الحارث بن عمرو وكان شديد الملك واسع الصوت كبير المطامع وفي أيامه فتح الاحباش اليمن واذهبوا دولة حمير فضعف

شأن كندة لانها تنتمي اليها . فوجه الحارث التفاته الى بني لخم وكان يحسدهم على تقربهم من الاكاسرة وما زال يترقب الفرص حتى رأى تغير قباذ على المنذر بن ماء السماء لسبب المزدكية كما تقدم فوافقه الحارث عليها وتولى الحيرة . فعظم في أعين القبائل واستضعفوا بني لخم وتوافدوا اليه وفيهم الاشراف من معد يهنئونه ويتقربون اليه بالطاعة وطلبوا منه ان يولي عليهم من ابنائه من يحكمهم ليبطل ما قام بينهم من القتل مما ستراه في كلامنا عن أيام العرب حتى كاد يفنيهم . ففرق فيهم أربعة من أولاده تولى كل منهم بعض تلك القبائل على هذه الصورة :

١ حجر بن الحارث تولى بني أسد بن جذيمة وغطفان
٢ شرحبيل بن الحارث « بكر بن وائل بأسرها
٣ معدي كرب « « قيس عيلان وطوائف غيرهم
٤ سلمة بن الحارث « تغلب والنمر بن قاسط

اما أبوهم الحارث فلم يطل سلطانه على الحيرة فما هو الا ان مات قباذ وتولى انو شروان حتى ارجع المنذر وفرّ الحارث بماله وأولاده على الهجن فتبعه المنذر على الخيل من تغلب واياد وبهراء فلحق بارض كلب ونجا فانتهبوا ماله وهجانه . وأخذت تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار فيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا وفي ذلك يقول امرؤ القيس :

ملوك من بني حجر بن عمرو يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة اصيبوا ولكن في ديار بني مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل ولكن في الدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم وتنتزع الحواجب والعيونا

اما الحارث فظل في بني كلب حتى قتل فيهم واختلفوا في سبب قتله . وبقي أولاده الاربعة على ما ملكوه ولكن موت أبيهم أضعف نفوذهم . وعمل المنذر صاحب الحيرة على الانتقام لنفسه فسعى في الافساد بينهم بالتحاسد على الهدايا وذلك انه وجه الى احدهم سلمة بن الحارث أمير تغلب بهدايا ودس الى أخيه شرحبيل من قال له « ان سلمة اكبر منك وهذه الهدايا تأتيه من المنذر » فقطع الهدايا عنه ثم أغرى بينهما حتى تحاربا . فقتل شرحبيل في معركة تعرف بيوم الكلاب خرج كل منهما بمن تحت رعايته من قبائل عدنان واقتتلوا فعادت الغائدة على شرحبيل . وخاف الناس ان يخبروا أخاه

سلمة بقتله فلما علم جزع جزعاً كثيراً وأدرك أن المنذر انما اراد ان يقتل بعضهم بعضاً فاصبح لا يأمن على نفسه . وخرج من تغلب والتجأ الى بكر بن وائل فاذعنت له وحسدت عليه وقالوا لا يملكنا غيرك. فبعث اليهم المنذر يدعوهم الى طاعته فأبوا فحلف ليسيرن اليهم فان ظفر بهم ليذبحنهم على قمة جبل اوارة حتى يبلغ الدم الحضيض. وسار اليهم في جموعه فالتقوا باوارة فاقتتلوا قتالا شديداً واجلت الواقعة عن هزيمة بكر واسر يزيد بن شرحبيل الكندي فامر المنذر بقتله فقتل وقتل في المعركة بشر كثير .واسر المنذر من بكر اسرى كثيرة فامر بهم فذبحوا على جبل اوارة فجعل الدم يجمد فقيل له « ابيت اللعن لو ذبحت كل بكري على وجه الارض لم يبلغ دمهم الحضيض ولكن لو صببت عليه الماء » ففعل فسال الدم الى الحضيض . وامر بالنساء ان يحرقن بالنار . وتسمى هذه المعركة في تاريخ العرب يوم اوارة الاول . فلما قتل الاخوان سلمة وشرحبيل وذهب سلطانهما أضعف ذلك نفوذ اخويهما الآخرين حجر صاحب بني اسد ومعدي كرب صاحب قيس عيلان . ورأى بنو اسد تضعضع تلك الدولة فتنكروا بحجر ملكهم وساءت سيرته فيهم . فاجتمعوا على خلافه وبدأوا بنبذ الطاعة وامسكوا عن اداء الاتاوة وضربوا الجباة الذين أرسلهم في طلبها . فحمل عليهم حجر بجند من ربيعة فاعمل فيهم السيف وأباح الاموال وحبس الاشراف ومنهم عبيد بن الابرص الشاعر فقال شعراً يستعطفه فرق لهم فبعث في اطلاق سراحهم فخرجوا وفي نفوسهم غلّ فلما وصلوا اليه قتلوه طعناً وانهزم رجاله . وهو والد امرىء القيس بن حجر الشاعر المشهور

وكان امرء القيس عند مقتل ابيه غائباً فلما علم بقتله رجع وهو يعلم عجزه عن الاخذ بثأره لان عدوه قوي وعلم ايضاً ان ذلك العدو اذا عرف مقره قبض عليه فقضى برهة من الدهر وهو يتجول متنكراً في اليمن ونجد والحجاز يستجير القبائل فلم يجره أحد حتى أتى السموأل صاحب حصن الابلق فاستجاره فاجاره . فاستودعه ادراعه وامتعته وهو لا يرى مرجعاً يستنصره على اعدائه الا قيصر الروم لان ملوك الحيرة عمال الفرس نصروا اعداءه على جاري عادة العرب في ذلك العهد اذا تظلموا من احدى الدولتين استنصروا الاخرى . ولم يكن لامرىء القيس سبيل الى القيصر فوسط الحارث بن ابي شمر الغساني صاحب النفوذ عند الروم يومئذ وطلب اليه ان يوصله اليه ففعل فسار امرؤ القيس الى القيصر. ويقول العرب ان القيصر بعد ان اجاب دعوته وسمع مدائحه وشى به احد بني اسد اعدائه وقال للقيصر « ان امرء القيس شتمك »

فصدق الوشاية والبس الشاعر حلة مسمومة قتلته ولا نعرف سماً يفعل هذا الفعل . وفي كل حال ان امرء القيس قتل ولم ينل أرباً

وتضعضعت دولة كندة ولم يبق من ملوكها غير معدي كرب على قيس عيلان وامراء صغار لهم سيادة على بعض القبائل هي بقية نفوذ آبائهم . وربما حكم الواحد منهم بلداً او وادياً . وأشهر فروع تلك الدولة أربعة في الاماكن الآتية (١) دومة الجندل (٢) البحرين (٣) نجران (٤) غمر ذي كندة . وكل من هذه الفروع دولة صغيرة قائمة بنفسها حتى ظهر الاسلام فذهبت جميعها

أما بداية هـذه الدولة فاذا اعتبرنا اول ملوكها حجر بن عمرو آكل المرار فقد توالى بعده أربعة من أعقابه فيهم امرؤ القيس الشاعر وكان معاصراً للحارث بن جبلة الغساني المتوفى سنة ٥٦٩ م فاذا اعتبرنا وفاة امرىء القيس في وسط القرن السادس سنة ٥٦٠ وحسبنا ما ذكروا من مدات الحكم لحجر وابنه عمرو وجعلنا ما بعدها على تلك النسبة يكون لنا القائمة الآتية عن زمن وفاة كل ملوك كندة على وجه التقريب :

حجر بن عمرو آكل المرار	توفي ٤٥٠ م
عمرو بن حجر بن عمرو	« ٤٩٠ »
الحارث بن عمرو معاصر ابن ماء السماء	« ٥٤٠ »
حجر بن الحارث والد امرىء القيس	« ٥٥٠ »
امرؤ القيس	« ٥٦٠ »

عرب الصفا

امم سبأية في الشمال

فالدول الثلاث التي ذكرناها انما هي نموذج للدول التي نشأت في شمالي جزيرة العرب في اثناء الطور الثاني من عرب الشمال او الطبقة الثالثة من العرب. ولو لم تتحالك بالروم او الفرس ويبق منها بقية الى ظهور الاسلام حتى تناقل القوم خبرها ودونوا ما علموه منها لذهبت آثارها في جملة ما ذهب من آثار الدول الاخرى . وبعض الدول الذاهبة لا يرجى كشف أخبارها لانها لم تخلف آثاراً منقوشة والبعض الآخر خلفت آثاراً تدلُّ عليها فاذا كشفها الناقبون ودرسها الباحثون انجلت حقيقتها واطلعنا على تتمة أخبار العرب منها

وقد اخذ الناقبون يبحثون في شمالي جزيرة العرب من اواسط القرن الماضي ..
وذكرنا ما وفقوا الى كشفه من النقوش النبطية والتدمرية وغيرها من الاقلام الآرامية.
على انهم وفقوا ايضاً الى كشف نقوش حميرية هي فروع من القلم المسند (السبأي)
يدلُّ وجودها في شمالي جزيرة العرب على ان السبأيين والمعينيين توطنوا هذا الجزء
من الجزيرة او كان لهم فيه مستعمرات او فروع او محطات . وأهم ما وفقوا الى كشفه
من تلك الآثار وجدوه في الحراء بجوار حوران وفي العلاء بجوار وادي القرى وفي
اماكن أخرى وكلها تشترك بشكلها الحميري اي قلم المسند . ولكن بينها فروقاً تدل

	السبأي	القلم اللحياني	القلم الثمودي	القلم الصفوي
ا				
ب				
ج				
د				
ذ				
ه				
و				
ز				
ح				
خ				
ط				
ظ				
ي				
ك				
ل				
م				
ن				
س				
ع				
غ				
ف				
ص				
ض				
ق				
ر				
ش				
ت				
ث				

ش ٣٠ ـ القلم السبأي وفروعه في الشمال

على ان كلاً منها لامة مستقلة بآدابها وعاداتها عن الاخرى . وقد سموا كل قلم منها باسم خاص يدل على محل وجوده او القوم الذين يظن انهم استخدموه وهي ثلاثة :

(١) القلم الصفوي : سموه بذلك لانهم عثروا عليه في جبل الصفا بحوران

(٢) القلم اللحياني : نسبة الى بني لحيان لانهم كانوا يستخدمونه على ما يظن

(٣) القلم الثمودي : سموه بذلك لظنهم ان ثموداً كانت تكتبه . وفي الصفحة السابقة جدول للابجديات الثلاث المذكورة وبجانبها الابجدية السبأية الاصلية ليظهر الفرق بينها

على انهم لا يزالون حتى الآن في اوائل البحث ولم يتمكنوا من كشف نقوش توضح لهم حقيقة اصحاب هذه الخطوط ويتوقعون الوصول الى ذلك في المستقبل ويرجون من ورائه كشف حقائق هامة . لكنهم استطاعوا معرفة بعض الشيء عن الكتابة الصفوية واصحابها مما لا يخلو ذكره من فائدة

جبل الصفا

حوران واقعة شرقي الشام تنتهي في الشرق بجبال حوران ووراءها نحو الشرق بقعة وعرة يسمونها « الحراء » ووراءها نحو الشرق الشمالي جبل بركاني الشكل يقال له جبل الصفا وفيه وجد الرواد الآثار التي يسمونها الصفوية وسموا خطها القلم الصفوي . وأول من عثر على تلك الآثار كريلوس غراهم سنة ١٨٥٧ فنبه الاذهان اليها بمقالة كتبها في مجلة الجمعية الجغرافية في لندن

وفي السنة التالية خرج وتستين قنصل بروسيا في دمشق لارتياد حوران وما جاورها وكتب رحلته سنة ١٨٦٠ وفيها نحو ٢٦٠ شكلاً من النقوش الصفوية التي وقف عليها هناك . وبعد سنتين فرغ ودنتون وفوجيه من رحلتهما السورية وكانت خاتمتها وصول فوجيه الى الصفا ونشر في تلك الرحلة نحو ٤٠٠ نقش . ثم توالى الزوار على تلك الاصقاع ومنهم برتن ودراك وستيبل وأوبنهايم وغيرهم

وآخر من عني بارتياد ذلك المكان رينه دوسو فجمع سنة ١٨٩٩ نحو ٤١٢ نقشاً وجمع مع مكلير سنة ١٩٠١ نحو ٩٠٠ نقش . وفعل نحو ذلك أيضاً ليتمن استاذ اللغات السامية في ستراسبورج فبلغ عدد النقوش التي جمعها الى سنة ١٩٠٥ نحو ١٧٠٠ نقشاً . ومع كثرة ما اكتشفوه من النقوش فانهم لم يتيسر لهم قراءتها إلا قريباً وأول من حاول ذلك منهم مولر في المجلة الالمانية (Z. D. M. G.) ثم هاليفي في المجلة الاسيوية الفرنساوية لسنة ١٨٧٧ وبعدهما بريتوريوس وأخيراً ليتمن المتقدم ذكره . وكتب في ذلك فصلا ضافياً

بالالمانية ضمنه تاريخ حل تلك الكتابة [1] وعين لفظ كل حرف ومكانه من الابجدية كما ترى في (ش ٣٠) وكتب دوسو فصلاً ضافياً عن هذه الابجدية فيه انتقاد وملاحظات تتعلق بنسبة هذا الحرف والحرف السبإي الى الاصل الفينيقي أو اليوناني القديم [2] ومن هو السابق الى الوجود وسنعود الى هذا البحث في كلامنا عن الكتابة في بلاد العرب قبل الاسلام

وغاية ما وقفوا عليه بعد هذا العناء قراءة بعض الاعلام ومنها اسماء الاشخاص او الآلهة او الاماكن في عرض الدعاء أو الوقف او نحو ذلك . وقلما قرأوا نقشاً فيه فائدة تاريخية صريحة . ولكنهم استفادوا من قراءة الاعلام فوائد كثيرة اكثرها تتعلق بالآلهة التي كانوا يعبدونها . وقد وفقوا الى استخراج انساب بعض الكهان أو الامراء الذين تعاقبوا في اوائل تاريخ الميلاد نشر دوسو عائلة منهم اسم جدها الاعلى قصي وابنه اسمه روح له ولد اسمه أكاب ولهذا ولدان قصي ومالك ولمالك ولد اسمه روح ولقصي ولد اسمه مالك (الثاني) [3]

ووجدوا بين معبوداتهم عدة من آلهة الجنوب وبعض آلهة الشمال وفي جملة ذلك عشتار واللات وذو الشرى وشمس وغيرها وسنعود الى ذلك في الكلام عن اديان العرب

وفي كل حال فان معرفتنا عن عرب الصفا ضعيفة جدّاً واكثر ما يقال عنهم من قبيل الظنون . والراجح من ذلك كله ان هذه الآثار المنقوشة لامة عربية أقامت في جهات حوران حوالي تاريخ الميلاد ثم اندثرت ولعل موالاة البحث توضح لنا الصحيح وتكشف لنا عن أمم اخرى

أيام العرب

العدنانية والدول المعاصرة

يراد بايام العرب الوقائع التي جرت بين القبائل البدوية في شمالي جزيرة العرب في الطور الثاني أي في الطبقة الثالثة من تاريخ العرب قبل الاسلام . وأهم هذه القبائل من عدنان وقد تفرقت باحيائها وبطونها وقبائلها كما تقدم وكان كل منها مستقلاً باحكامه وأعماله يتخاصمون ويتحاربون على ما تقتضيه طبيعة البداوة ويندر ان يجتمعوا تحت راية واحدة . يدلك على ذلك انهم لم يجتمعوا في الجاهلية كلها الا ثلاث مرات سيأتي ذكرها.

(1) Zur Entzifferung der Safâ-Inschriften (2) Dussaud, 57

(3) Dussaud, 124

على ان بعضها كانت تدخل في رعاية احدى الدول الكبرى المعاصرة لها على يد بعض عمالها من العرب . فتدخل في حوزة الفرس على يد المناذرة أو الروم على يد الغساسنة أو حمير على يد كندة ولكنهم بالحقيقة لم يكونوا يخضعون لدولة الا لمصلحة مشتركة بينهما ولا يثبتون على ولائها الا لمطامع

وكان اكثر خضوعهم لدولة حمير باليمن لانها أكبر دول العرب يؤدون لها الاتاوة كل عام . أما الدول العربية الصغرى فكانت علاقتها معها بالاكثر على سبيل المحالفة . فالمناذرة مثلاً كانوا يقربونهم ليستعينوا بهم على الغساسنة وكذلك كان يفعل هؤلاء للاستعانة بهم على المناذرة شأن الدول المتحضرة في ذلك العهد من الاستعانة بالبداوة على الحضارة والمدنانية كانوا أشداء لو اتحدوا لم تقوَ عليهم دولة . ولكنهم كانوا لا يبرحون في انقسام وخصام فيستظل الضعيف منهم بدولة تحميه من اخيه القوي . وكثيراً ما كانوا يلجأون الى بعض تلك الدول للحكم بينهم في ما يختصمون فيه لاحترامهم علوم الحضارة وقوانينها . فكانت القبيلة من اهل البادية اذا دخلت في رعاية حمير مثلاً طلبت اليها ان تولي عليها اميراً ويغلب ان تختار واحداً من امراء تلك القبيلة أو احد رجال تلك الدولة أو بعض المعروفين بالقوة والسطوة من احدى القبائل التي تعودت السيادة كقضاعة أو غسان أو لخم أو كندة

وأشهر من تولى الرئاسة على بدو الشمال تحت رعاية دولة اليمن زهير بن جناب الكلبي من قضاعة في اواسط القرن الخامس للميلاد وكان شديد البطش باسلاً شجاعاً وله عقل وسداد رأي حتى سموه الكاهن وله وقائع مشهورة سيأتي ذكرها . واتفق في أثناء سيادته على نجد ان صاحب اليمن أتى نجداً فقدم زهير اليه فاكرمه الملك وفضله على من عرفهم من امراء العرب وولاه الامارة على بكر وتغلب وكلاهما من ربيعة فكان يحكم فيهم ويجمع الاتاوة منهم

استقلال عدنان عن اليمن

فرسخ في اعتقاد البدو بتوالي الاجيال ان الاذعان لدولة حمير فرض واجب وكان النزاع بينهم يزيدهم تعلقاً بذلك حتى رأوا ما أصابها في أثناء حروبها مع الحبشة فتبين لهم ضعفها عن حفظ استقلالها وذهبت هيبتها من قلوبهم فاخذوا يفكرون في الخروج من سيطرتها والامساك عن دفع الاتاوة لها واحسوا بالحاجة الى الاتحاد في هذا السبيل

فاتحدوا ولم يطل اتحادهم كما طال في الاسلام اذ لم يكن الباعث عليه من قبيل الوجدان

والفضل الاكبر في كسر قيد الاتاوة والخروج من طاعة اليمن لقبيلة ربيعة لان البادىء بكسر ذلك القيد منهم وهو كليب الفارس الباسل المشهور وكان معاصراً لزهير ابن جناب الذي ولاه صاحب اليمن على بكر وتغلب وهما اكبر قبائل ربيعة . وكان زهير يتقاضى الاتاوة أو الخراج منهم في مقابل النجعة والكلاء والمرعى . وكان يخرج في حاشيته لجمع الاتاوة فاصابهم في اثناء امارته ضيق واحلت ارضهم فتأخروا عن الدفع فجاءهم زهير وألح في مطالبتهم فشكوا عجزهم وأبانوا عذرهم فلم يصغ لشكواهم . ومنعهم النجعة والمرعى أو يؤدوا ما عليهم فصبروا حتى كادت مواشيهم تهلك . وكانت هيبة الدولة قد ذهبت من نفوسهم فلما أصابهم ذلك الظلم شقوا عصا الطاعة ونقموا على زهير ورجاله فدسوا رجلاً منهم اسمه زيابة من بني تيم الله وكان فاتكاً وأوعزوا اليه ان يقتل زهيراً غدراً ولم يقدموا على مناوأته جهاراً لئلا يستنجد جنده . فاتاه زيابة وهو نائم وطعنه ورجع الى قومه وأخبرهم انه قتله والحقيقة ان السيف مر بجانب البطن ولم يصب من زهير مقتلاً . وعلم هذا انه سالم فلم يتحرك لئلا يجهز عليه . فلما انصرف زيابة أوعز زهير لمن معه ان يظهروا موته ويستأذنوا بكراً وتغلب في دفنه فلما أذنوا دفنوا ثياباً ملفوفة وفروا به مجدين الى قومهم فجمع زهير الجموع وفي ذلك يقول ابن زيابة :

طعنة ما طعنت في غلس الليـ ـل زهيراً وقد توافى الخصوم
حين يحمي له المواسم بكر أين بكر وأين منها الحلوم
خانني السيف اذ طعنت زهيراً وهو سيف مضلل مشئوم

وجمع زهير من قدر عليه من اهل اليمن وغزا بكراً وتغلب وقاتلهم قتالا شديداً انهزمت به بكر وقاتلت تغلب بعدها ثم انهزمت وأسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة وأخذت الاموال وكثرت القتلى في بني تغلب وأسر جماعة من وجوههم وفرسانهم

فعظم ذلك على قبائل ربيعة وتجمهروا وولوا عليهم ربيعة والد كليب ومهلهل وخرجوا على زهير وأنقذوا الاسيرين منه . ودالت الايام وعاد زهير الى سطوته فوضع الاتاوة أو الخراج على بني معد جميعاً

وفي أواخر القرن الخامس توفي ربيعة أمير وائل فخلفه ابنه كليب وفي نفسه على اليمن أضغان لما قاساه في أسرهم فجمع معداً تحت لوائه أي ربيعة وقضاعة ومضر واياد ونزار وحارب اليمن في معركة عرفت بيوم خزاز سيأتي ذكرها وهزمهم واستقلوا من

سيطرتهم ولم يدفعوا اليهم اتاوة او خراجاً من ذلك الحين . ونظرت معد الى كليب نظرها الى منقذ عظيم فولوه الملك عليهم وجعلوا له قسم الملك وتاجه وطاعته [١] وكان ذلك آخر عهدهم بسلطة اليمن

على ان خروجهم من هذه السلطة لم يفض الى الاستقلال التام وانشاء الدول المستقلة لتغلب البداوة على طباعهم فكانوا اذا خرجوا من رعاية اليمن دخلوا في رعاية كندة او غسان أو لخم على غير نظام وبلا شروط وهم مع ذلك في خصام ونزاع فيما بينهم او مع سواهم من الامم المعاصرة وتعرف حروبهم المشار اليها بايام العرب

ويريدون بايام العرب ما حفظه التاريخ من الوقائع بين قبائل البادية من عدنان او بينها وبين قبائل اليمن أو بعض الدول . فنقسم تلك الايام الى حروب العدنانية مع سواهم وحروبهم بين انفسهم

أيام العدنانية مع سواهم

١ - يوم البيضاء بين عدنان واليمن

هذا اقدم ما حفظه التاريخ من اخبار تلك الحروب وهو حرب وقعت بين العدنانية ومذحج في اواسط القرن الرابع للميلاد وكانت مذحج قادمة من اليمن طلباً للتوسع في المعاش فنزلوا تهامة وفيها من بني معد قبائل متفرقة ومن جملتها عدوان وكان أمير عدوان يومئذ عامر بن الظرب المشهور بعقله وحكمته فتضايق المعديون من مذحج فاجتمعوا تحت لواء عامر بن الظرب وهي اول مرة اجتمعت كل قبائل معد تحت لواء واحد وهي انما تجتمع لدفع جيش يمني عملاً بالمثل « أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب » وقد فازت معد تحت قيادة عامر وغلبت اليمنيين شر غلبة في مكان يقال له البيضاء وهي اول وقعة بين تهامة واليمن . ولم تجتمع معد في الجاهلية تحت لواء واحد الا ثلاث مرات الاولى تحت لواء عامر بن الظرب المذكور والثانية تحت قيادة ربيعة بن الحارث في قضاعة في يوم السلان المتقدم ذكره [٢] والثالث تحت لواء كليب بن ربيعة في محاربة جيش اليمن كما رأيت

وعامر المذكور هو حكم العرب المشهور الذي كانت العصا تقرع له . ويقولون في

---

(١) ابن الاثير ٢٣٧ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٩٥ ج ١



الخريطة الثامنة — الحجاز ونجد ومشارف الشام بعد تفرق قبائل عدنان

سبب هذا التعبير انه لما شاخ قال له الثاني من ولده « انك ربما اخطأت في الحكم فيحمل عنك » قال « فاجعلوا لي امارة اعرفها فاذا زغت فسمعتها رجعت الى الصواب » فجعلوا قرع العصا امارة ينبهونه بها فكان يجلس قدام بيته ويقعد ابنه في البيت ومعه العصا فاذا زاغ أو هفا قرع له الجفنة فيرجع الى الصواب [1] قالوا وهو أول من جلس على منبر أو سرير وتكلم ولذلك سموه ذا الاعواد

٢ — يوم خزاز بين عدنان واليمن ايضاً

وكان سببه ان أحد ملوك اليمن وقع له اسرى من مضر وربيعة وقضاعة وكلهم من معد فاوفد بنو معد وفداً من وجوههم يكلمونه في اطلاق الاسرى فاطلقهم لكنه استبقى بعض الوفد رهينة وقال للباقين ائتوني برؤساء قومكم لآخذ عليهم المواثيق بالطاعة لي والا قتلت أصحابكم . فرجعوا الى قومهم فاخبروهم الخبر فشق عليهم غدره بهم . وكان اكبر أمرائهم ورجل العصر يومئذ كليب وائل فبعث الى ربيعة وهي قبيلته فجمعها تحت رايته واجتمعت اليه معد كلها كما تقدم . فلما اجتمعوا اليه سار بهم وجعل على مقدمتهم السفاح التغلبي وامره ان يوقد على خزاز ناراً ليهتدوا بها وخزاز جبل ما بين البصرة الى مكة وقال له « ان غشيك العدو فاوقد نارين » وكان ملك اليمن قد أرسل جنداً من مذحج فلما علم هؤلاء باجتماع معد اقبلوا بجيوشهم واستنفروا من يليهم من قبائل اليمن وساروا اليهم فلما سمع أهل تهامة بمسير مذحج انضموا الى ربيعة ووصلت مذحج الى خزاز ليلا فرفع السفاح نارين فلما رأى كليب النارين أقبل اليهم بالجموع فصبحهم فالتقوا في خزاز واقتتلوا قتالا شديداً أكثروا فيه القتل وانهزمت مذحج وانتصر العدنانيون وفي ذلك يقول الفرزدق يخاطب جريراً ويهجوه ويفاخر جداده :

لولا فوارس تغلب ابنة وائل   دخل العدوّ عليك كل مكان
ضربوا الصنائع والملوك واوقدوا   نارين اشرفتا على النيران

٣ — يوم الصفقة او المشقر بين فارس وتميم

سببه ان باذان نائب كسرى برويز باليمن ارسل اليه في أوائل القرن السابع للميلاد احمالا من حاصلات اليمن أو مصنوعاتها فلما بلغت النطاع من ارض نجد اغارت عليها تميم وانتهبتها وسلبوا رسل كسرى واساورته . فعرج هؤلاء على اليمامة وصاحبها هوذة بن

(١) ابن الاثير ٢٣٧ ج ١ والاغاني ٣ ج ٣

علي الحنفي فلما رآهم مسلوبين أحسن وفادتهم وكساهم . وكانت له معهم اياد بيضاء في ما كان الفرس يرسلونه من التجارة الى اليمن ويسمونها « الاطيمة » فكان هوذة اذا مرت به الاطيمة جهز رسلها وخفرهم وأحسن جوارهم وكان كسرى يشتهي ان يراه ليجازيه على فعله . فلما أحسن أخيراً الى هؤلاء الرسل الذين سلبتهم تميم قالوا له « ان الملك لا يزال يذكرك ويحب ان تقدم عليه » فسار معهم اليه فلما قدم عليه أكرمه وأحسن وفادته وحادثه لينظر عقله وأمر له بمال كثير وتوّجه بتاج من تيجانه واقطعه أموالا في هجر كانت تحت سيطرة الفرس وكان هوذة نصرانياً . وامره ان يغزو بني تميم مع حملة عساكر كسرى بقيادة المكعبر فسافروا الى هجر ونزلوا في المشقّر وهو حصن وخافوا ان يدخلوا بلاد تميم لان العجم لا تستطيع فتحها وأهلها يمتنعون فيها . فعمد هوذة والمكعبر الى الحيلة والغدر فبعثا رجالا من بني تميم يدعونهم الى الطعام وكانت سنة شديدة فاقبلوا على كل صعب وذلول فجعل المكعبر يدخلهم الحصن خمسة خمسة وعشرة عشرة وأقل أو أكثر على ان يخرجهم من باب آخر فكل من دخل ضرب عنقه . فلما طال ذلك عليهم ورأوا الناس يدخلون ولا يخرجون بعثوا رجالا يستعلمون الخبر فشد رجل من عبس فضرب السلسلة فقطعها وخرج من كان بالباب فامر المكعبر بغلق باب المدينة وقتل كل من فيها وكان يوم الفصح فاستوهب هوذة منه مائة فكساهم واطلقهم يوم الفصح فقال الاعشى من قصيدة له يمدح هوذة :

بهم يقرّب يوم الفصح ضاحية يرجو الاله بما اسدى وما صنعا

وكان يوم الصفقة في العقد الثاني من القرن السابع للميلاد أي بعد ظهور الدعوة الاسلامية في مكة وقبل مهاجرة النبي الى المدينة (١)

٤ — يوم الكلاب الثاني

هو تابع ليوم الصفقة الذي قتل فيه بنو تميم . وذلك ان رجلا من بني قيس بن ثعلبة قدم نجران على بني الحارث بن كعب وهم اخواله وحدثهم بما اصاب بني تميم وان أموالهم وذراريهم في مساكنهم لا مانع لها فاجتمعت بنو الحرث من مذحج واحلافها من نهد وحزم في جيش عظيم وساروا يريدون بني تميم فحذرهم كاهن لهم ونصح لهم في الخطة التي يتخذونها في نيل ما يريدون . فالتقت سعد والرباب على ماء اسمه الكلاب واقتتل القوم قتالا شديداً وعادت الغلبة على مذحج . واما يوم الكلاب الاول فقد دخل في تاريخ بني كندة

---

(١) ابن الاثير ٢٨٦ ج ١

ايام العدنانية فيما بينهم

ان المعارك الحربية التي جرت بين قبائل عدنان في القرنين الاولين قبل الهجرة تكاد تكون قاصرة على ربيعة ومضر اما بينهما او بين قبائل كل منهما . لان هذين الشعبين كانا في ذلك العهد أقوى شعوب عدنان واكثرها رجالا واشدها بداوة تتنقل في نجد واليمامة والحجاز تعيش بالغزو والحرب . وكانت متجاورة تغتنم كل منهما غفلة صاحبتها وتسطو عليها وقد لا يكون لذلك السطو سبب غير الغزو طمعاً بمال الجار من ابل أو ماشية أو ماء أو متاع او للاخذ بالثار لمثل ذلك الغزو

وتقسم هذه المعارك الى ثلاثة أقسام كبرى . الاول الوقائع التي جرت بين قبائل من ربيعة وقبائل من مضر . والثاني الوقائع بين قبائل ربيعة نفسها . والثالث بين قبائل مضر

١ — الوقائع بين ربيعة ومضر

أهم هذه الوقائع جرت بين قبيلة تميم من مضر وبكر بن وائل من ربيعة . وكانت تميم تخيم بين اليمامة وهجر وبكر في شماليها . فهما متجاورتان ولذلك كثر النزاع بينهما وانتشبت الحروب وتوالت الغزوات . والغالب ان تكون بكر الهاجمة على أثر جدب لحق بمنازلها لان ارض تميم اخصب من أرضها واشهر تلك الوقائع ١٢ واقعة فازت تميم بستٍّ منها وبكر بست

الوقائع التي فازت بها تميم على بكر

(١) يوم النباج وثيتل : وسببه حب الغزو وكان زعيم التميميين فيه قيس بن عاصم المنقري وغيره فغزوا البكريين في مكان يقال له النباج كان البكريون مخيمين فيه فلما وصل التميميون اليه امر قيس ان تسقى الخيول فسقوها ثم اراق ما بقي معهم من الماء وقال لرجاله « قاتلوا فالموت بين أيديكم والفلاة من ورائكم » فاغاروا على من في النباج من بكر صبحاً فقاتلوهم قتالا شديداً وانهزمت بكر وأصيب من غنائمهم ما لا يحد لكثرته

وكان قيس قد انفذ أميراً اسمه سلامة برجال ليغزو مكاناً آخر للبكريين اسمه ثيتل فلما فرغ من النباج سار الى ثيتل فرأى القوم لم يغزوا بعد فاغار عليهم برجاله وهزمهم وأصاب من الغنائم نحو ما أصاب بالنباج وفي ذلك يقول شاعرهم قرة بن زيد بن عاصم

انا ابن الذي شق المرار وقد رأى بثيتل احياء اللهازم حضّرا
فصبحهم بالجيش قيس بن عاصم فلم يجدوا الا الاسنة مصدرا
سقاهم بها الزيفان قيس بن عاصم وكان اذا ما اورد الامر اصدرا
على الجرد يعلكن الشكيم عوابساً اذا الماء من اعطافهن تحدرا
فلم يرها الراؤون الا فجاءة نثرن عجاجاً كالدواخن اكدرا
وحمران ادّته الينا رماحنا فنازع غلاً في ذراعيه اسمرا

(٢) يوم ذي طلوح : ولهذا اليوم سبب غير حب الغزو وذلك ان رجلاً من تميم اسمه عميرة بن طارق اليربوعي (ويربوع بطن من تميم) تزوج امرأة من بكر اسمها مرية بنت جابر العجلي وسار الى أهلها ليبتني بها وخلف في بني تميم امرأة أخرى اسمها ابنة النطف . وكان لمرية أخ اسمه ابجر جاء ليزور أخته وزوجها عميرة عندها فقال لها « اني لأرجو ان آتيك بابنة النطف امرأة عميرة » يريد انه عازم على ان يأخذها منه بدل أخته فغضب عميرة وقال له « ما أراك تبغي عليّ حتى تسبيني أهلي » . فندم ابجر على تفريطه بالكلام بين يديه وكان يجب أن يفعل ذلك سراً فقال ما كنت لاغزو قومك »

وخرج فتجهز ومضى في رجاله لغزو تميم ووكل بعميرة من يحرسه لئلا يسير الى قومه فينذرهم . فاحتال عميرة على الموكل بحفظه وهرب الى قومه فانذرهم فاستعدوا وخرجوا لملاقاة أعدائهم واقتتلوا في ذي طلوح وكان الفوز ليربوع وانهزمت بكر

(٣) يوم جدود : هو بين بني منقر من تميم وبكر بن وائل . وسببه ان الحوفزان الشيباني (من بكر) كانت بينه وبين بني سليط بن يربوع (من تميم) موادعة فهمّ الحوفزان بالغدر وجمع بني شيبان ومن حالفهم وغزا بني يربوع وهو يرجو ان يصيب منهم غرة ولكنهم علموا بقصده فاستعدوا للقائه والتقى الفريقان في جدود . وتصدى من التميميين على الخصوص بنو منقر فقاتلوا البكريين قتالا شديداً فانهزمت بكر وخلوا السبي والاموال وتبعتهم منقر فقتلوا بعضهم واسروا آخرين . وكان رئيس منقر قيس ابن عاصم المتقدم ذكره فجعل همه الحوفزان فتبعه على مهر والحوفزان على فرس فلم يدركه وقد قاربه فلما خاف ان يفوته حفزه بالرمح في ظهره فاحتفز بالطعنة ونجا وبذلك يقول سوار بن حيان المنقري يفاخر رجلاً من بكر ويذكر الايام التي غلبوهم فيها :

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة كسته نجيعاً من دم البطن اشكلا
وحمران قهراً انزلته رماحنا فعالج غلاً في ذراعيه مثقلا

فيا لكِ من أيام صدق نعدُّها | كيوم جؤاثى والنباج وثيتلا
قضى الله انا يوم تقتسم العلا | احق بها منكم فاعطى واجزلا
فلست بمستطيع السماء ولم تجد | لعزّ بناه الله فوقك منقلا

(٤) يوم الاياد : وهو يوم اعشاش ويوم عظالى بين شيبان من بكر وبني يربوع من تميم . وسببه ان بكراً كانوا تحت كسرى أي انهم كانوا يخدمون الفرس في ما يحتاجون اليه في أسفارهم بالبادية فيقرونهم ويجهزونهم وكانوا يراقبون حركات جيرانهم بني يربوع ويتوقعون انحدارهم في السهل ليثبوا بهم ورئيس البكريين بسطام بن قيس الشيباني . والتقى القومان يوماً واحتدم القتال بينهما فانهزمت شيبان بعد ان قتلت من تميم جماعة كبيرة وقتل من شيبان جماعة ايضاً واسر جماعة فيهم هانىء بن قبيصة ففدى نفسه ونجا فقال متمم بن نويرة في هذا اليوم :

لعمري لنعم الحي اسمع غدوة | اسيد وقد جد الصراخ المصدق
واسمع فتياناً كجنة عبقر | لهم ريّق عند الطعان ومصدق
أخذن بهم جنبي افاق وبطنها | فما رجعوا حتى ارقّوا وأعتقوا

(٥) يوم الغبيط : كانت الواقعة فيه بين شيبان وتميم امر فيه بسطام بن قيس الشيباني وسببه أن بسطاماً والحوفزان ومفروق بن عمرو ساروا في جمع من بني شيبان الى بلاد تميم للغزو فاغاروا على عشائر منهم متجاورين في صحراء فلج فاقتتلوا فانهزم التميميون وقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم بنو شيبان أموالهم وساروا بها فمروا بعشيرة أخرى من تميم استاقوا ابلهم . وبلغ ذلك بني يربوع فاكبروا هذا التعدي فمشوا بقيادة عتيبة بن الحارث اليربوعي يقتصون آثار بني شيبان فادركوهم في مكان اسمه غبيط المدرة فقاتلوهم وصبر الفريقان ثم انهزمت شيبان واستعادت تميم ما كانوا غنموه منهم والح عتيبة المذكور في امر بسطام حتى اسره . فاشار اليربوعيون على عتيبة ان يقتله لانه قتل منهم كثيرين قبلا فابى . وسار به الى بني عامر بن صعصعة لئلا يؤخذ فيقتل فلما توسط عتيبة بيوت بني عامر صاح بسطام « واشيباناه ولا شيبان لي اليوم » فبعث اليه عامر ابن الطفيل رئيس بني صعصعة « ان استطعت ان تلجأ الى قبتي فافعل فاني سأمنعك » فعلم عتيبة بذلك فاتى ابن الطفيل وقال له « قد بلغني الذي ارسلت به الى بسطام فانا نخيرك فيه خصالا ثلاثاً » قال « وما هي » قال « اعطني خلعتك وخلعة أهل بيتك فاطاقه لك » قال عامر « هذا لا سبيل اليه » فقال « ضم رحلك محل رحله فلست

عندي بشر منه » فلم يقبل فقال « تتبعني الى هذه الرابية فتقارعني عنه على الموت » فابى فانصرف عتيبة ببسطام فرأى بسطام عتيبة على رحل رث فقال « يا عتيبة هـذا رحل أمك » قال « نعم » قال « ما رأيت رحل أم سيد قط مثل هذا » فقال عتيبة « واللات والعزى لا اطلقك حتى تأتيني امك بهودجها » وكان كبيراً ذا ثمن كثير وهـذا الذي اراد بسطام ليرغب فيـه فلا يقتله فارسل بسطام فاحضر هودج امه وفادى نفسه باربعمائة بعير وقيل بالف بعير وثلاثين فرساً وهودج امه وحدجها وخلص من الاسر . فلما خلص اذكى العيون على عتيبة حتى اغتنم غفلته واغار عليه وأخذ الابل كلها ومالهم جميعاً

(٦) يوم شقيقة : بين شيبان من بكر وضبة من مضر قتل فيه بسطام بن قيس سيد شيبان وكان سببه ان بسطاماً غزا بني ضبة فغلب على أمره وقتل

الوقائع التي فازت بها بكر

(١) يوم فلج : هو غزوة بسيطة سببها ان جمعاً من بكر ساروا الى الصعاب وشتوا فلما انقضى الربيع انصرفوا فمروا بالدو فلقوا اناساً من تميم فاغاروا على نعم كانت لهم ومضوا فنادى التميميون واقبلوا في آثار بكر وساروا يومين وليلتين حتى جهدهم السير وانحدروا في بطن فلج والتقوا هناك وانهزمت تميم وبلغت بكر منهـا ما أرادت وكان في جملة الاسرى عنـد بكر شاعر تميمي اسمه خالد بن مالك فاطلقه رجل من بكر اسمه عرفجة وجزّ ناصيته فقال خالد :

وجدنا الرفد رفد بني تميم	اذا ما قلت الارفاد زادا
هم ضربوا القباب ببطن فلج	وذادوا عن محارمهم ذيادا
وهم منوا عليّ واطلقوني	وقد طاوعت في الجنب القيادا
أليس هم عماد الحي بكراً	اذا نزلت مجللة شدادا

(٢) يوم الوقيط : بين اللهازم من بكر بن وائل وبني تميم سببه ان اللهازم اجتمعوا ومعهم بنو عجل وعنزة من ربيعة للاغارة على بني تميم وكان عندهم اسير تميمي اسمه ناشب بن بشامة فاراد ان يحتال في ايصال الخبر الى قومه فقال للهازم « اعطوني رجلا ارسله الى أهلي اوجهه ببعض حاجتي » فقالوا له « ترسله ونحن حضور » قال « نعم » فاتوه بغلام مولد فقال « اتيتموني باحمق » فقال الغلام « والله ما انا باحمق » فقال « اني اراك مجنوناً » . قال « والله ما بي جنون » قال « اتعقل » قال « نعم اني لعاقل » قال « فالنيران اكثر ام الكواكب » قال « الكواكب وكل كثيرة » فملأ كفه رملا وقال

« كم في كفي » قال « لا أدري فانه كثير » فاومأ الى الشمس بيده وقال « ما تلك » قال « الشمس » قال « ما أراك الا عاقلاً اذهب الى قومي فابلغهم السلام وقل لهم ليحسنوا الى أسيرهم فاني عند قوم يحسنون اليَّ ويكرمونني وقل لهم فليعروا جملي الاحمر ويركبوا ناقتي العيساء وليرعوا حاجتي في بني مالك واخبرهم ان العوسج قد أورق وان النساء قد اشتكت وليعصوا همام بن بشامة فانه مشئوم مجدود وليطيعوا هذيل بن الاخنس فانه حازم ميمون واسألوا الحارث عن خبري » فسار الرسول فاتى قومه فابلغهم فلم يدروا ما أراد فاحضروا الحارث وقصوا عليه خبر الرسول فقال للرسول « اقصص عليَّ أول قصتك » فقصها عليه من أولها الى آخرها فقال « ابلغه التحية والسلام واخبره انا سنتوصى بما أوصى به » فعاد الرسول . وقال الحارث لقومه « ان صاحبكم بين لكم أما الرمل الذي جعله في كفه فانه يخبركم انه قد اتاكم عدد لا يحصى واما الشمس التي اومأ اليها فانه يقول ذلك اوضح من الشمس وأما جمله الاحمر فالصمان فانه يأمركم ان تعروه يعني ترتحلوا عنه واما ناقته العيساء فانه يأمركم ان تحترزوا في الدهناء واما بنو مالك فانه يأمركم ان تنذروهم معكم واما ايراق العوسج فان القوم قد لبسوا السلاح واما اشتكاء النساء فانه يريد ان النساء قد خرزن الشكاء وهي أسقية الماء للغزو » فحذر بنو العبر وركبوا الدهناء وانذروا بني مالك فلم يقبلوا منهم . ثم ان اللهازم وعجلاً وعنزة اتوا وادركوا من بقي وقتلوا منهم مقتلة واسروا كثيرين

(٣) يوم الزويرين : بين بكر وتميم وسببها طبيعي في تلك البادية نعني التنازع على الماء والمرعى والطعام . وذلك ان بلاد بكر اجدبت فانتجعوا بلاد تميم وهي خصبة يلتمسون الكلاء والحنطة حتى تدانوا فجعلوا لا يلقى بكري تميمياً الا قتله ولا يلقى تميمي بكرياً الا قتله أو اخذ ماله حتى تفاقم الشر فخرج الحوفزان بن شريك الذي عرفناه والوادك بن الحارث وكلاهما من شيبان ومعهم قوم من بكر وعليهم ابو مفروق الاصم وغيره ليغيرا على تميم وامير تميم ابو الرئيس فلما تدانوا جعلت تميم بعيرين جللوهما وجعلوا عندهما من يحفظها وتركوهما بين الصفين معقولين وسموها زويرين يعني الهين وقالوا « لا نفر حتى يفر هذان البعيران » فلما رأى ابو مفروق البعيرين سأل عنهما فاعلموه حالها فقال « انا زويركم » وبرك بين الصفين وقال « قاتلوا عني ولا تفروا حتى أفر » فاقتتل الناس قتالا شديداً انهزمت فيه تميم وقتل ابو الرئيس ومعه بشر كثير واجترفت بكر اموالهم ونساءهم واسروا كثيرين وفي ذلك يقول الاعشى :

يا سلم لا تسألي عنا فلا كشف عند اللقاء ولا سوه مقاريف

نحن الذين هزمنا يوم صبحنا يوم الزويرين في جمع الاحاليف
ظلوا وظلت تكر الخيل وسطهم بالشيب منا وبالمرد الغطاريف
تستأنس الشرف الاعلى باعينها لمح الصقور علت فوق الاطاليف
انسل عنها نسيل الصيف فانجردت تحت اللبود متون كالزحاليف

(٤) يوم نعف قشاوة : بين شيبان (بكر) وتميم اغار بها بسطام بن قيس على بني يربوع (تميم) وهم بنعف قشاوة فاتاهم ضحى يوم ريح ومطر فوافى نعمهم حين سرح فاخذه كله وكر راجعاً وتداعت عليه بنو يربوع فلحقوه وفيهم عمارة بن عتيبة بن الحرث فكر بسطام فقتله ولحقهم مالك بن حطان اليربوعي فقتله واتاهم ايضاً بجير بن ابي مليل فقتله بسطام وقتلوا من يربوع جمعاً واسروا جمعاً وعادوا غانمين

(٥) يوم مبايض : بين شيبان وتميم وسببه ان طريفاً العنبري التميمي كان جسيما يلقب مجدعاً وهو فارس قومه حج في عام وبينما هو يطوف لقيه خميصة بن جندل الشيباني وهو شاب قوي شجاع فاطال النظر اليه فقال له طريف « لم تشد نظرك اليّ ؟ » قال « أريد ان اتثبتك لعلي القاك في جيش فاقتلك » فقال « اللهم لا يحول الحول حتى القاه » وكان كذلك فلم يمض العام حتى اختصمت القبيلتان واشتد القتال في مكان اسمه مبايض ودارت الدائرة على تميم وانهزموا ولم تصب تميم بمثلها لم يفلت منهم الا القليل ولم يلو أحد وانهزم طريف فاتبعه خميصة فقتله

(٦) يوم الشيّطين : وقع في ايام النبي قبل الهجرة وسببه ان الشيطين وهما بلد مخصب كانا لبكر بن وائل فلما ظهر الاسلام في نجد سارت بكر الى السواد ولحقهم الوباء والطاعون الذي كان ايام كسرى شيرويه فعادوا هاربين فنزلوا لعلع وهي مجدبة وقد اخصب الشيّطان وفيهما تميم وبلغت اخبار الخصب الى بكر فاجتمعوا وقالوا « نغير على تميم فان في دين ابن عبد المطلب من قتل نفساً قتل بها فنغير هذه الغارة ثم نسلم عليها » فارتحلوا من لعلع واغاروا على المكان فانهزمت تميم فقال العنبري يفخر بذلك :

وما كان بين الشيطين ولعلع لنسوتنا الا مناقل أربع
فجئنا بجمع لم ير الناس مثله يكاد له ظهر الوديعة يطلع

ومن الوقائع بين ربيعة ومضر يوم بارق بين تميم وتغلب في ناحية السواد . ويوم آخر بين سليم وشيبان ويوم اهباد والنقيمة بين ضبة وعبس فازت فيه ربيعة . ويوم ساحوق بين عامر بن صعصعة وذبيان وغيرها . ومنها يوم ذي قار وفيه ظهرت مضر وقد ذكرنا خلاصته في تاريخ ملوك الحيرة

الوقائع بين قبائل ربيعة

او الايام بين بكر وتغلب

نريد بها ما حدث من الوقائع في ربيعة نفسها بين قبائلها واهمها ما جرى بين بكر وتغلب او حرب البسوس بين كليب وجساس وهي مشهورة وهذه خلاصتها :

قد رأيت في ما تقدم ما بلغ اليه كليب بن ربيعة من السيادة ونفوذ الكلمة حتى اجتمعت تحت رايته كل قبائل معد والبسوه التاج وهو من تغلب . فبقي برهة من الدهر في هذه الحال . ثم دخله زهو شديد وبغى على قومه حتى بلغ من بغيه انه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه . ومعنى ذلك في اصطلاحهم ان الرجل اذا اعتز جانبه اتخذ لنفسه بقعة من الارض لا يجسر احدٌ ان يطأها او يوقع الاذى في شيء منها تشبهاً بحرم المعابد في الجاهلية . فاتخذ كليب حرماً او حمى وتجاوز من تقدمه من أصحاب الحمى انه جعل حمايته تشمل أنواع الوحش خارج حماه فيقول « وحش أرض كذا في جواري فلا يصاد » ولا يورد أحد مع ابله ولا يوقد ناراً مع ناره ولا يمر أحد بين بيوته ولا يحتبي في مجلسه

وتزوج كليب امرأة من شيبان (من بكر) اسمها جليلة بنت مرة لها اخ اسمه جساس بن مرة . وكان حمى كليب في أرض اسمها « العالية » لا يقربها الا المحارب.

واتفق ان رجلا يقال له سعد الجرمي نزل ضيفاً على البسوس بنت منقذ خالة جساس المذكور وهي خالة جليلة امرأة كليب . وكان للجرمي ناقة اسمها سراب ترعى مع نوق جساس وكانت نوق جساس ترعى مع نوق كليب . فخرج كليب يوماً يتعهد الابل ومراعيها ومعه جساس فنظر كليب الى سراب وانكرها واستفهم عن أمرها فقال له جساس « هذه ناقة جارنا الجرمي » فقال كليب « لا تعد هذه الناقة الى هذا الحمى » فاستاء جساس من ذلك لان الجرمي نزيله وله عليه حق الجوار ولم يملك غضبه فقال « لا ترعى ابلي مرعى الا وهذه معها » فغضب كليب وقال « لئن عادت لاضعنّ سهمي في ضرعها » فقال جساس « لئن وضعت سهمك في ضرعها لاضعن سنان رمحي في لبتك » وافترقا

فذهب كليب الى امرأته وقال لها « اترين ان في العرب رجلا يمنع مني جاره » قالت « لا اعلمه الا جساساً » فحدثها الحديث فخافت عاقبة ذلك التنافر واصبحت اذا رأت زوجها يريد الخروج الى الحمى منعته وناشدته الله ان لا يقطع رحمه ونهت أخاها جساساً عن ان يسرح ابله فيها

وخرج كليب الى الحمى يوماً وجعل يتصفح الابل فرأى ناقة الجرمي فرمى ضرعها فانفذه فولت ولها عجيج حتى بركت بفناء صاحبها . فلما رأى الجرمي ما حل بناقته صرخ « يا للذل » فسمعت البسوس صراخه فخرجت اليه فلما رأت ما بناقته وضعت يدها على رأسها وصاحت « واذلاه » تشير الى ما لحقها من الذل بسبب اذية جارها لحرمة الجوار عندهم . ورآها جساس تفعل ذلك فخرج اليها وقال لها « اسكتي ولا تراعي » واسكت الجرمي وقال لهما « اني سأقتل جملا أعظم من هذه الناقة » يعني كليباً . وكان لكليب عين يسمع ما يقولون فنقل الحديث الى كليب فاستخف بما سمعه وقال « لقد اقتصر عن عينه » اما جساس فأخذ يترقب الفرص لنيل مرامه

فخرج كليب يوماً آمناً فلما بعد عن البيوت ركب جساس فرسه وأخذ رمحه وادرك كليباً فوقف كليب فقال له جساس « يا كليب الرمح وراءك » فقال له « ان كنت صادقاً اقبل اليَّ من امامي » ولم يلتفت اليه فطعنه جساس فارداه عن فرسه فقال « ياجساس اغثني بشربة من ماء » فلم يأته بشيء وقضى كليب نحبه . فامر جساس رجلا كان معه اسمه عمرو بن ذهل من شيبان فجعل عليه احجاراً لئلا تأكله السباع وانصرف على فرسه يركضه حتى اتى أباه مرة وقال له « طعنت طعنة يجتمع بنو وائل غداً لها رقصاً » قال « من طعنت لامك الثكل » قال « قتلت كليباً » فاجفل مرة وقال « افعلت ؟ » قال « نعم » قال « بئس والله ما جئت به قومك » ولم ير بدًّا من التأهب للحرب فدعا قومه الى نصرته فاجابوه واجلوا الاسنة وشحذوا السيوف وقوموا الرماح وتهيأوا للرحلة

ولما علم قوم كليب بقتله دفنوه وقد شقوا الجيوب وخمشوا الوجوه وخرجت الابكار وذوات الخدور والعواتق وقمن للمأتم وقلن لاخت كليب « اخرجي جليلة (امرأة كليب) اخت جساس عنا فان قيامها فيه شماتة وعار علينا » فقالت لها اخت كليب « اخرجي من مأتمنا فانت اخت قاتلنا » فخرجت تجر عطافها واتت اباها مرة

وكان لكليب أخ اسمه مهلهل وهو الفارس الشاعر المشهور وكان في يوم مقتل كليب مشتغلا بالشرب فما صحا الا وهو يسمع الصياح والعويل فسأل فقالوا « كليب قتل » فقال قصيدته المشهورة التي مطلعها :

كنا نغار على العواتق ان تُرى	بالامس خارجة عن الاوطان
فخرجن حين ثوى كليب حسراً	مستيقنات بعده بهوان
فترى الكواعب كالظباء عواطلا	اذ حان مصرعه من الاكفان

ثم جزّ شعره وقصر ثوبه وهجر النساء وترك الغزل وحرم القمار والشراب وجمع اليه قومه للاثئار . ولكنه رأى ان يبدأ بالمخابرة فبعث رجالا من قومه الى بني شيبان فاتوا مرة والد جساس وهو في نادي قومه فقالوا له « انكم اتيتم عظيماً بقتلكم كليباً بناقة وقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة وانا نعرض عليك خلالا اربعاً لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع . اما ان تحيي كليباً او تدفع الينا قاتله جساساً فنقتله به او همّاماً فانه كفء له او تمكننا من نفسك فان فيك وفاء لدمه » فقال لهم مرة « اما احيائي كليباً فلست قادراً عليه واما دفعي جساساً اليكم فانهُ غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه ولا أدري أي بلاد قصد . واما همام فانه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وكلهم فرسان قومهم فلن يسلموه بجريرة غيره . واما انا فما هو الا ان تجول الخيل جولة فاكون اول قتيل فما اتعجل الموت . ولكن لكم عندي خصلتان اما احداهما فهؤلاء ابنائي الباقون فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم . واما الاخرى فاني ادفع اليكم الف ناقة سود الحدق حمر الوبر » فغضب القوم من جوابه وقالوا « قد اسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللبن من دم كليب » ونشبت الحرب بينهم ولحقت جليلة بابيها وقومها

جرت بين الفريقين عدة وقائع أولها يوم عنيزة عند فلج وكانوا على السواء فتفرقوا ثم التقوا بعد برهة من الزمان بماء يقال له النهى كانت بنو شيبان نازلة عليه وكان رئيس تغلب مهلهلا ورئيس شيبان الحارث بن مرة اخو جساس وكانت الدائرة على بني تغلب ولم يقتل في ذلك اليوم أحد من بني مرة . ثم التقوا بالذنائب وهي أعظم وقعة كانت لهم وقد ظفر بها التغلبيون وقتلوا من بكر مقتلة كبيرة قتل فيها شراحيل بن مرة جد الحوفزان الذي تقدم ذكره وجد معن بن زائدة الجواد الحليم المشهور في الاسلام وقتل غيرهما . ثم التقوا يوماً آخر في واردات فاقتتلوا شديداً وكان الظفر لتغلب ايضاً وكثر القتل في بكر ومن جملة القتلى همام بن مرة اخو جساس وكان مهلهل يحبهُ فلما رآه مقتولا قال « ما قتل بعد كليب اعز عليّ منك وتالله لا تجتمع بكر بعدكما على خير أبداً » والتقوا أيضاً في مواضع أخرى يطول بنا شرحها [١]

ويقال بالاجمال ان الايام التي اشتدت فيها الحرب بين الفريقين خمسة أيام : يوم عنيزة تناصفوا فيه . ويوم واردات كان لتغلب على بكر . ويوم الحنو كان لبكر على تغلب . ويوم القصيبات اصيب بكر حتى ظنوا انهم لن يستقيلوا . ويوم قضة وهو يوم التحالق . وكان بعد ذلك أيام دون هذه منها يومُ النقية ويوم الفصيل ثم لم يكن بينهما مزاحفة وانما

(١) ابن الاثير ٢٤٢ ج ١

كانت مغاورات . ودامت الحرب بينهما أربعين سنة مات في اثنائها الشيوخ وشاخ الشبان وشب الولدان وولدت طبقة من الناس لم تكن في الحسبان

ثم قال مهلهل لقومه « قد رأيت ان تبقوا على قومكم فانهم يحبون صلاحكم وقد اتت على حربكم اربعون سنة وما لمتكم على ما كان من طلبكم بوتركم فلو مرت هذه السنون في رفاهية عيش لكانت تمل من طولها فكيف وقد فني الحيان وثكلت الامهات ويتم الاولاد ونائحة لا تزال تصرخ في النواحي ودموع لا ترقأ واجساد لا تدفن وسيوف مشهورة ورماح مشرعة وان القوم سيرجعون اليكم غداً بمودتهم ومواصلتهم وتتعطف الارحام حتى تتواسوا في قتال القتل اما انا فما تطيب نفسي ان اقيم فيكم ولا استطيع ان انظر الى قاتل كليب وأخاف ان أحملكم على الاستئصال وانا سائر الى اليمن » وفارقهم وسار الى اليمن فقضى فيها حيناً ثم عاد الى ديار قومه فاخذه عمرو بن مالك بن ضبيعة البكري اسيراً بنواحي هجر فاحسن اسره وافرد له بيتاً فمر عليه تاجر يبيع الخمر قدم بها من هجر وكان صديقاً لمهلهل فاهدى اليه وهو اسير زقاً من خمر فاجتمع اليه بنو مالك فنحروا عنده ناقة وشربوا معه في بيته فلما أخذ فيهم الشراب تغنى مهلهل بما كان يقوله من الشعر وينوح على أخيه كليب فسمع منه عمرو ذلك فقال « انه لريان والله لا يشرب ماء حتى يشرب زبيب » وزبيب فحل كان له لا يشرب الا مرة كل خمسة أيام في حمارة القيظ فمات مهلهل عطشاً . وكان لوصية مهلهل تأثير على ربيعة لانهم قلما تحاربوا فيما بينهم بعد ذلك وانما كانت وقائعهم مع مضر كما تقدم الا واقعة جرت بقرب الفرات عرفت بيوم الفرات قبيل الاسلام بين شيبان وتغلب وفاز بنو شيبان

الوقائع بين قبائل مضر

نريد بها ما جرى من الحروب بين القبائل المضرية وهي أكثر مما جرى بين قبائل ربيعة او بين ربيعة ومضر. واكثر قبائل مضر دخلاً في هذه الوقائع عبس وهوازن وذبيان وعامر بن صعصعة واسد وغطفان وقيس عيلان وكنانة وقريش . واهم هذه الحروب بين عبس وهوازن وبين عبس وذبيان تعرف بحرب داحس والغبراء . وبين قريش وكنانة وهي حروب الفجار . وبين عامر بن صعصعة وقبائل مختلفة كما تراه في ما يلي

أيام عبس وهوازن

(١) يوم الرحرحان : كان زهير بن قيس بن جذيمة العبسي سيد قيس عيلان في أوائل القرن الخامس للميلاد وترى من مراجعة جداول الانساب في هذا الكتاب ان قيس عيلان تنطوي على عدة قبائل كبرى منها عدوان وغطفان وعبس وذبيان وهوازن وغيرها . فلذلك كان زهير المذكور ذا شرف ورفعة وكان معاصراً للنعمان ابن امرىء القيس المتوفى سنة ٤٣١ م جد النعمان بن المنذر وقد تزوج النعمان اليه وبعث يستزيره بعض أولاده فارسل اليه أصغر ولده « شاساً » فاكرمه النعمان وحباه. فلما انصرف الى ابيه كساه حللا واعطاه مالا طيباً فخرج شاس يريد قومه فبلغ ماء من مياه غني بن اعصر فقتله رباح بن الاشل الغنوي واخذ ما كان معه وهو لا يعرفه . وبلغ زهيراً ان ابنه اقبل من عند الملك وكان آخر العهد به بماء من مياه غني فبذل زهير جهده في البحث بالحيلة وغيرها حتى اكتشف القاتل وعرف انه من بني غني فجعل يغير عليهم ويقتل منهم وكانوا حلفاء بني عامر بن صعصعة وهم بطن من هوازن فانتشبت الحرب بين عبس وعامر او هوازن

واتفق في اثناء ذلك ان زهيراً خرج في اهل بيته بالشهر الحرام الى عكاظ كجاري العادة فالتقى هناك بخالد بن جعفر سيد هوازن فقال له خالد « لقد طال شرنا منك يا زهير » فقال زهير « اما والله ما دامت لي قوة ادرك بها ثاراً فلا انصرام له » وكانت هوزان تؤتي زهير بن جذيمة الاتاوة كل سنة في عكاظ وهو يسومها الخسف وفي انفسها منه غيظ وحقد . ثم عاد زهير وخالد الى قوميهما فسبق خالد الى بلاد هوزان فجمع اليه قومه وندبهم الى قتال زهير فاجابوه وتأهبوا للحرب وخرجوا يريدون زهيراً وسار زهير حتى نزل على اطراف بلاد هوازن فقال له ابنه قيس بن زهير صاحب حرب داحس والغبراء الآتي ذكرها « انج بنا من هذه الارض فانا قريب من عدونا » فقال له « يا عاجز ما الذي تخوفني به من هوازن وتتقي شرها فانا اعلم الناس بها » فقال ابنه « دع عنك اللجاج واطعني وسر بنا فاني خائف عاديتهم » فلم يطعه

وكان خالد يتجسس اخبارهم وعلم بمكان زهير فركب اليه فالتقيا واقتتلا طويلا فقتل زهير وعادت هوازن الى منازلها وحمل بنو زهير اباهم الى بلادهم . وخالد يعلم ان زهيراً سيد غطفان وعبس وذبيان فخاف ان تطلبه فسار الى للنعمان بالحيرة فاستجاره

فأجاره وضرب له قبة . اما ابناء زهير فجمعوا لهوازن فقال الحارث بن ظالم المري « اكفوني حرب هوازن فاكفيكم خالد بن جعفر » وسار الحارث الى النعمان فدخل عليه وعنده خالد وهما يأكلان تمراً فأقبل النعمان على الحارث يسأله فحسده خالد فقال للنعمان « ابيت اللعن هذا رجل لي عنده يد عظيمة قتلت زهيراً وهو سيد غطفان فصار هو سيدها » فقال الحارث « سأجزيك على يدك عندي » وجعل الحارث يتناول التمر ليأكله فيقع من بين اصابعه من الغضب وكان عروة اخو خالد حاضراً فقال لاخيه « ما اردت بكلامه وقد عرفته فتاكا » فقال خالد « وما يخوفني منه فوالله لو رآني نائماً ما أيقظني » ثم خرج خالد وأخوه الى قبتهما فشرجاها عليهما ونام خالد وعروة عند رأسه يحرسه . فلما اظلم الليل انطلق الحارث الى خالد فقطع شرج القبة ودخلها وقال لعروة « لئن تكلمت قتلتك » ثم ايقظ خالداً فلما استيقظ قال « أتعرفني » قال انت «الحارث» قال « خذ جزاء يدك عندي » وضربه بسيفه المعلوب فقتله ثم خرج وركب راحلته وسار . وخرج عروة من القبة يستغيث حتى اتى باب النعمان فدخل عليه واخبره الخبر فبث الرجال في طلب الحارث — قال الحارث « فلما سرت قليلاً خفت ان اكون لم اقتله فعدت متنكراً واختلطت بالناس ودخلت عليه فضربته بالسيف حتى تيقنت انه مقتول وعدت فلحقت بقومي »

فاصبح الحارث بن ظالم بين طالبين النعمان يطلبه ليقتله بجاره وهوازن تطلبه لتقتله بسيدها فاستجار بتميم فأجاروه فلما علم النعمان بذلك جهز جيشاً حمل به على تميم وأعانهم أهل خالد ببني عامر وأتى قيس بن زهير في بني عبس وذبيان فانهزمت بنو عامر وجيش النعمان[1] بعد معركة كبيرة في وادي رحرحان لم يشتف قيس بها

ايام داحس والغبراء

سببها ان قيس بن زهير سيد عبس المذكور سار الى المدينة يبتاع الاسلحة والادراع وغيرها من مهمات الحرب لقتال عامر والاخذ بثار ابيه . فاتى احيحة بن الجلاح يشتري منه درعاً موصوفة يقال لها «ذات الحواشي» فباعه اياها بابن لبون . وعاد قيس الى قومه وقد فرغ من جهازه فمر بالربيع بن زياد ودعاه الى مساعدته على الاخذ بالثار فأجابه. ولما اراد فراقه نظر الربيع عيبته فقال «ما في حقيبتك» قال «متاع عجيب» واناخ راحلته

(١) تفصيلها في ابن الأثير ٢٥٦ ج ١

فاخرج الدرع وأراه اياها. فابصرها الربيع فاعجبته ولبسها فكانت في طوله فاستبقاها عليه ثم حبسها عنده ومنعها من قيس وترددت الرسل بينهما بشأنها عبثاً. فغضب قيس وأغار على ابل الربيع فاستاق منها ٤٠٠ بعير وسار بها الى مكة فباعها واشترى بها خيلا وكان فيما اشترى من الخيل فرسان اسماهما داحس والغبراء

ثم أقام في مكة وكان أهلها يفاخرونه بما عندهم وكان قيس فخوراً فقال « نحّوا كعبتكم عنا وحرمكم وهاتوا ما شئتم » فقال له عبد الله بن جدعان « اذا لم نفاخرك بالبيت المعمور وبالحرم الآمن فبمَ نفاخرك » فملّ قيس مفاخرتهم وعزم على الرحلة عنهم. وسرّ ذلك قريشاً لانهم كانوا قد كرهوا مفاخرته. فقال قيس لاخوته «ارحلوا بنا من عندهم اولا والا تفاقم الشر بيننا وبينهم والحقوا ببني بدر فانهم اكفاؤنا في الحسب وبنو عمنا في النسب لا يستطيع الربيع ان يتناولنا معهم » فلحق قيس ببني بدر وهم بطن من ذبيان

وسعى الربيع في رد بدر عن اجارته فأبوا فغضب الربيع وغضبت عبس لغضبه. ثم ان حذيفة رئيس بدر كره قيساً وأراد اخراجه عنهم ولم يجد سبباً يستند اليه فاتفق خروج قيس للعمرة في مكة وفي أثناء غيابه تفاخر مالك وحذيفة في الخيل ثم تراهنا على فرسين من خيل قيس وفرسين من خيل حذيفة. ولما عاد قيس وعلم بالرهن كرهه لعلمه انه سيجر الى خصام فركب الى حذيفة وسأله ان يفك الرهن فلم يفعل كأنه رآها فرصة للتخلص من قيس وجواره وقد أضمر ان يغدر به

فاعدوا معدات السباق بين فرسي قيس وهما داحس والغبراء وفرسي حذيفة وهما الخطار والحنفاء وقادوا الخيل الى الغابة وحشدوا ولبسوا السلاح وتركوا السبق على يد عقال بن مروان القيسي وأعدوا الامناء على ارسال الخيل. وأضمر حذيفة الغدر فأقام رجلاً من بني اسد في الطريق وأمره ان يلقى داحساً في وادي ذات الاصاد فاذا وجده سابقاً فيرمي به الى أسفل الوادي. فلما أُرسلت الخيل سبقها داحس سبقاً بيناً والناس ينظرون اليه وقيس وحذيفة جالسان على رأس الغابة في قومها. فلما هبط داحس في الوادي عارضه الاسدي فلطم وجهه فألقاه في الماء فكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج الا وقد فاتته الخيل. أما راكب الغبراء فانه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ وعاد الى الطريق واجتمع مع فرسي حذيفة. ثم سقطت الحنفاء وبقي الغبراء والخطار. واخيراً جاءت الغبراء سابقة وبعدها الخطار فرس حذيفة ثم الحنفاء له ايضاً. ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله فأخبر الغلام قيساً بما فعله الاسدي

فأنكر حذيفة ذلك وادعى السبق ظلماً وقال جاء فرساي متتابعين . ومضى قيس واصحابه . ثم جاء الاسدي واعترف لقيس بما فعله فغضب حذيفة وزاد التنافر بين الاميرين وحذيفة يلح بطلب حقه من السبق وأرسل ابنه الى قيس في ذلك فطعنه طعنة قتله ورجعت فرسه الى ابيه ونادى قيس « يا بني عمي الرحيل » فرحلوا

اما حذيفة فلما أتته فرس ابنه وحدها علم ان ولده قتل فصاح في الناس وركب فيمن معه وأتى منازل بني عبس فرآها خالية ورأى ابنه قتيلاً فنزل اليه وقبله بين عينيه ودفنوه.

وكان مالك بن زهير اخو قيس متزوجاً في فزارة ونازلا فيهم فأرسل اليه قيس يستنجده فاجابه « انما ذنب قيس عليه » ولم يرحل اليه . فارسل قيس الى الربيع ابن زياد يطلب منه العود اليه ويمتّ اليه بالعشيرة والقرابة فلم يجبه . ثم ان بني بدر قتلوا مالك بن زهير اخا قيس وكان نازلا فيهم فبلغ خبره بني عبس وعظم عليهم الامر واسف الربيع ايضاً لموته وكان ذلك سبباً في مصالحته قيساً فاعتنقا وبكيا واجتمع العبسيون يرثون مالكا وفيهم عنترة فقال مرثيته التي مطلعها :

فلله عيناً من رأى مثل مالك عقيرة قوم ان جرى فرسان
فليتهما لم يطعما الدهر بعدها وليتهما لم يجمعا لرهان

وبلغ حذيفة ان قيساً والربيع اتفقا فشق عليه ذلك واستعد للبلاء فجمع قومه من فزارة وتعاقدوا على عبس وجمع قيس والربيع قومهما واستعدوا للحرب والتقوا اولا على ماء يقال له العذق وهي اول وقعة كانت بينهم وانهزمت فزارة وقتلوا قتلاً ذريعاً واسر حذيفة فاجتمعت غطفان وسعوا في الصلح فاصطلحوا على ان يهدر دم بدر بن حذيفة بدم مالك اخي قيس وتساووا في ما بقي فاطلق حذيفة من الاسر . ثم دخل اناس بينهما قبحوا لحذيفة رضاه بالصلح على تلك الشروط وحثوه على النكث والحرب فاغار على عبس واغارت عبس على فزارة وتفاقم الشر فانهزمت فزارة . فماد حذيفة فجمع كل بني ذبيان فعمد العبسيون الى ضم اطرافهم وحدثت بينهم على اثر ذلك عدة وقائع على نحو ما تقدم كانت الحرب فيها سجالا يوماً لذبيان ويوماً لعبس حدث في اثنائها حوادث فتك هائلة من قتل الابناء انتقاماً . ومن اكبر وقائعهم واقعة البوار قتل فيها ٤٠٠ من فزارة واسد وغطفان وعشرون من عبس وكان الفوز فيها لعبس وقال فيها قيس قصيدته التي مطلعها :

تعلم ان خير الناس ميت على جفر الهباءة لا يريم

اقام على الهباءة خير ميت واكرمهُ حذيفة لا يريمُ

وحدثت بعدها واقعة في ذات الجراجر دامت يومين وكان فيها عنترة بن شداد فظهرت شجاعتهُ يومئذ وعلى هذه الوقائع وغيرها مما جرى بين عبس وذبيان تدور قصة عنترة المشهورة . والخلاصة ان القبيلتين ملتا القتل والنهب وعادتا الى المصالحة في حديث طويل (١)

حرب الفجار

بين قريش وكنانة وقيس عيلان

هما واقعتان او يومان سبب اليوم الاول منهما ان رجلاً من كنانة كان عليه دين لرجل من بني نصر من هوازن (من قيس عيلان) فاعدم الكناني فوافى النصري سوق عكاظ بقرد وقال « من يبتغي مثل هذا بمالي على فلان الكناني » فعل ذلك تعييراً للرجل وقومه . فمرَّ به رجل من كنانة فضرب القرد بالسيف فقتله انفة مما قاله النصري . فصرخ هذا في قيس عيلان وصرخ الكناني في كنانة فاجتمع الناس وتحاوروا ثم اصطلحوا ولم تحدث حرب

أما يوم الفجار الثاني فقد وقع بعد عام الفيل بعشرين سنة في اواخر القرن السادس للميلاد ولم يكن في أيام العرب اشهر منه وانما سمي الفجار لما استحله الحيان كنانة وقيس من المحارم . وسببه ان البراض الكناني كان رجلاً فاتكاً خليعاً قد خلعه قومه لكثرة شره فخرج حتى قدم على النعمان بن المنذر ابي قابوس وكان النعمان يبعث كل عام بلطيمة تباع له في عكاظ او ذي المجاز او غيرهما من أسواق العرب بالمواسم — فقال النعمان « من يجيز لي لطيمتي هذه حتى يبلغها عكاظ » فقال البراض « أبيت اللعن انا اجيزها على كنانة » فقال النعمان « انما اريد من يجيزها على كنانة وقيس » وكان عروة بن عتبة الكلابي (من قيس عيلان)حاضراً فقال « أكلبٌ خليع يجيزها لك ؟ أبيت اللعن انا اجيزها على أهل الشيح والقيصوم من أهل تهامة وأهل نجد » فغضب البراض وقال « وعلى كنانة تجيزها يا عروة » فقال عروة « وعلى الناس كلهم » فدفع النعمان اللطيمة الى عروة وسار بها وخرج البراض يتبع اثره

(١) ابن الاثير ٢٥٨ — ٢٦٧ ج ١

وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه . ولكن البراض غدره بضربة بالسيف فقتله فلما رآه رجاله قتيلا انهزموا فاستاق البراض العير الى خيبر وبعث رسولا مستعجلاً الى حرب بن امية في عكاظ وهو كبير قريش يومئذٍ يخبره انه قتل عروة فليحذر قيساً . فنشر حرب بن امية الخبر بين أشراف قريش ومنهم عبد الله بن جدعان وهشام بن المغيرة والد ابي جهل واجتمعوا وتشاوروا وقالوا نخشى ان تطلب قيس بثأر قتيلها ولا ترضى ان يقتل البراض به لانه خليع . واتفق رأيهم أن يخاطبوا عامر بن مالك سيد قيس بذلك فاتوه وقالوا له ذلك فاجاز بين الناس وأعلم قومه ما قيل له وأوشكوا ان يصطلحوا

واتفق ان قوماً من قريش كانوا في عكاظ وبلغهم ما فعله البراض وخافوا ان يكون قومهم في ضيق فركبوا الى مكة لنصرتهم فلما بلغ رئيس قيس ذلك عدَّه غدراً من قريش (او كنانة لانهما فرعان) واقسم ان لا تنزل كنانة عكاظ ابداً . ثم ركبوا في طلبهم حتى ادركوهم في نخلة فاقتتل القوم وكادت قريش تنهزم ولكنها لجأت الى الحرم احتمت به وكان معهم في ذلك اليوم صاحب الشريعة الاسلامية وسنهُ عشرون سنة

فلما دخلت قريش الحرم رجعت قيس عنها وواعدوهم على الالتقاء في عكاظ بالعام المقبل لانهم لا يتركون دم عروة وعادت الى بلادها يحرض بعضها بعضاً على الاخذ بالثأر ثم جمعت جموعها ومعها ثقيف وغيرها وجمعت قريش جموعها وفيهم كنانة والاحابيش وفرقت السلاح فيهم وخرجوا وعلى كل بطن منهم رئيس وعلى الجماعة حرب بن امية (أمير الامراء) لمكانه من عبد مناف سناً ومنزلة . وكانت قيس قد تقدمت الى عكاظ قبل قريش على كل بطن منهم رئيس . ومشت قريش حتى نزلت عكاظ وبها قيس . وكان مع حرب بن امية اخوته سفيان وابو سفيان والعاص وابو العاص بنو امية فعقل حرب نفسه وقيد سفيان وابو العاص نفسيهما وقالوا لن يبرح رجل منا مكانه حتى نموت او نظفر فيومئذ سموا العنابس أي الاسود

واقتتل الناس قتالا شديداً فكان الظفر اول النهار لقيس وانهزم كثير من بني كنانة وقريش وثبت بنو امية ثبات الجبال حتى اذا انتصف النهار عاد الظفر لقريش وقتلوا كثيراً من قيس ثم انهزمت قيس ثم تداعوا الى الصلح على ان يعدوا القتلى فاي الفريقين فضل له قتلى أخذ ديتهم من الفريق الآخر ففعلوا وعادوا الى الوفاق والوئام

الوقائع بين عامر بن صعصعة وقبائل اخرى

عامر بن صعصعة قبيلة من هوازن من قيس عيلان ولها شأن بين قبائل العرب وجاء ذكرها غير مرة في ما تقدم ولها وقائع عديدة جرت لها مع قبائل مضر وهي :

(١) يوم شعب جبلة : بين عامر بن صعصعة وتميم وسبب ذلك ان لقيط بن زرارة عزم على غزو عامر للاخذ بثأر أخ لهُ كان اسيراً عندهم ومات . فبينما لقيط يجهز بلغه ان بني عامر وبني عبس تحالفا فخابر القبائل الاخرى لتحالفه على عبس وعامر فاجابته أسد وغطفان واستوثقوا واستكثروا وساروا وهم لا يشكون انهم ظافرون لانهم سيغتنمون غرة القوم . وكان مع لقيط ابنته دختنوس وكان يغزو بها معه ويستشيرها في اموره . وبينما هم سائرون لقيهم كرب بن صفوان من أشراف سعد لخيامهم وظل سائراً فخافوا ان يكون مسرعاً لاطلاع أعدائهم على خبرهم فاستوقفوه وسألوه لماذا لا يصحبهم بغزوهم فقال انه يبحث عن ابل ضلت منه . فأخذوا منه المواثيق ان لا يخبر أحداً بمسيرهم فعاهدهم ولكنه غضب لهذه المعاملة فلما دنا من عامر وعبس أخذ خرقة وضع بها حنظلة وشوكاً وتراباً وخرقتين يمانيتين وخرقة حمراء وعشرة أحجار سود ثم رمى بها حيث يسقون ولم يتكلم . فاخذها بعضهم وجاء بها الى قيس بن زهير امير عبس فعلم ما يعني الرجل بهذه الامور فقال « هذا رجل قد اخذ عليه عهد ان لا يكلمكم فاخبركم ان أعداءكم قد غزوكم عدد التراب وان شوكتهم شديدة. وأما الحنظلة فهي رؤساء القوم . وأما الخرقتان اليمانيتان فهما حيان من اليمن معهم وأما الخرقة الحمراء فهي حاجب بن زرارة . وأما الاحجار فهي عشر ليال يأتيكم القوم بها قد انذرتكم فكونوا أحراراً واصبروا كما يصبر الاحرار الكرام »

فاثنوا على حكمته واستشاروه في ماذا يعملون فقال « ادخلوا ابلكم هذه الشعب (شعب جبلة) ثم اظمئوها هذه الايام ولا توردوها الماء فاذا جاء القوم اخرجوها عليهم وانخسوها بالسيوف والرماح فتخرج مذاعير عطاشاً فتشغلهم وتفرق جمعهم واخرجوا انتم في آثارها واشفوا نفوسكم » ففعلوا ما أمرهم به وكثر القتل في تميم وأسر جماعة من رؤسائهم وعنترة مع بني عبس وقتل لقيط وتمت الهزيمة على تميم وغطفان

(٢) يوم ذي جنب : هو ملحق بيوم شعب جبلة حدث بعده بسنة لان بني عامر لما اصابوا ما أصابوه من تميم في ذلك اليوم رجوا ان يستأصلوهم ولكنهم فشلوا

(٤) يوم الجفار : حدث بعد يوم النسار بسنة ولا أهمية له

(٥) يوم المروت : وهذا ايضاً بين تميم وعامر

(٦) يوم الرقم : هذا بين عامر وغطفان

وهناك وقائع اخرى بين العدنانية وبين مضر نفسها او غير ذلك أغفلناها لقلة أهميتها

حضر العدنانية في مكة

مكة

اختلف المؤرخون في أصل اسم مكة والارجح عندنا انه أشوري او بابلي لان « مكا » في البابلية « البيت » وهو اسم الكعبة عند العرب . ويدل ذلك على قدم هذه المدينة كانها سميت بذلك من عهد العمالقة على اثر مجرتهم من بين النهرين فسموا المكان بها اشارة الى امتيازها بالبناء الحجري عن سائر ما يحيط بها من البادية . واختلفوا أيضاً في بدء بنائها كما اختلفوا في الامم التي توالت عليها . والاشهر ان اول من سكنها العمالقة وهو يؤيد أصلها البابلي . قالوا وخلف العمالقة عليها جرهم وهي فرقة من القحطانية نزحت من اليمن قديماً . ثم جاءها بنو اسماعيل كما تقدم ثم الازد بعد سيل العرم (على زعمهم) . ثم خزاعة فكنانة فقريش وكانت تتوالى هذه الامم وتتناوب فتنزل الواحدة على اثر الاخرى حتى تغلب عليها وتخلفها وتبقى من تلك بقية مما يطول شرحه فنكتفي بالمعقول منه

لم يرد ذكر مكة او الكعبة في كتب قدماء اليونان الا ما جاء في كتاب ديودورس الصقلي في القرن الاول قبل الميلاد في اثناء كلامه عن النبطيين مما قد يراد به مكة وهو قوله « ووراء أرض الانباط بلاد بني (زومين) وفيها هيكل يحترمه العرب كافة احتراماً كثيراً » فلعله يريد الكعبة واما بنو زومين فربما أراد بهم جرهم او غيرهم من قبائل العرب التي تولت مكة . والغالب انه يريد جرهم التي يسمونها الثانية اذ يؤخذ من اسماء ملوكها انها تولت ذلك المكان حوالي تاريخ البلاد وهذه اسماؤهم عن ابي الفداء :

١	جرهم	٥	نفيلة	٩	الحارث
٢	عبد ياليل	٦	عبد المسيح	١٠	عمرو
٣	جرشم	٧	مضاض	١١	بشر
٤	عبد المدان	٨	عمرو	١٢	مضاض

فوجود اسم عبد المسيح بين ملوك هذه الدولة يدل على قرب عهدها من النصرانية . فاذا صح ذلك خالف ما يقوله العرب عن تزوج اسماعيل في جرهم الثانية واسماعيل قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً . وتخريج ذلك اما ان يكون اسماعيل تزوج في جرهم الاولى أو ان يكون المراد بزواج اسماعيل زواج بعض أعقابه أو قبيلته مما لا سبيل الى تحقيقه لضياع الادلة واختلاط الروايات . وفي كل حال فان الاسماعيلية أو قبيلة منهم والجرهمية اقاموا معاً في مكة وما يليها حتى جاءتهم خزاعة وهي طائفة من عرب اليمن الذين يقول العرب انهم هجروا بلادهم بعد سيل العرم ورئيسها عمرو بن لحي نزلت مكة وأخرجت جرهماً منها . وعمرو بن لحي هذا هو المشهور بادخال الوثنية على عرب الحجاز واليه ينسبون كثيراً من أوابد الجاهلية . وفي الحديث النبوي « رأيت عمرو بن لحي يجر قصبة في النار » يعني احشاءه [١]

وقالوا ليست خزاعة وحدها أخرجت جرهماً من مكة وانما استعانت على ذلك بكنانة بطن من مضر . وقد عرف اليونان كنانة وذكرها بريبلوس في القرن الاول للميلاد وعين حدودها وهي توافق المعلوم عند العرب من سكناها تهامة ولما اجتمعت كنانة وخزاعة على جرهم فرت الى اليمن على ما يقولون . ثم تنازعت خزاعة وكنانة وغلبت خزاعة واستقلت بامر الكعبة وجعلت لمضر أعمالا تتولاها في الحج وهي الاجازة بالناس يوم عرفة والافاضة بهم غداة النحر من جمع الى منى ونسء الشهور الحرام

فاقام بنو خزاعة وبنو كنانة على ذلك مدة والولاية لخزاعة دونهم . وفي أثناء ذلك تشعبت بطون كنانة ومضر كلها وصاروا أحياء وبيوتات متفرقين وهم اذ ذاك يقيمون بظواهرها وصارت قريش فرقتين قريش البطاح وقريش الظواهر فقريش البطاح ولد قصي بن كلاب وسائر بني كعب بن لؤي . وقريش الظواهر من سواهم . وكانت خزاعة بادية لكنانة ثم صار بنو كنانة بادية لقريش ثم صارت قريش الظواهر بادية لقريش البطاح . ويراد بقريش الظواهر من كان على اقل من مرحلة . ومن الضواحي

(١) ابن خلدون ٣٣٢ ج ٢

من كان على اكثر من ذلك وصار من سوى قريش وكنانة من قبائل مضر من الضواحي احياء بادية وظعوناً ناجمة من بطون قيس وخندف من اشجع وعبس وفزارة ومرة وسليم وسعد وعامر وغيرهم كما تقدم

ونظراً لتحضر كنانة وقريش في مكة واستئثارها بمكان الحج كان لها التقدم على سائر مضر ولكن كنانة قبل قريش وكان التقدم في قريش كله لبني لؤي بن غالب بن فهر بن مالك وسيدهم قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي

قصي بن كلاب

لقصي بن كلاب شأن كبير في تاريخ مكة لانه أحدث فيها أموراً مهمة كما يظهر مما يلي :

خلف كلاب ابنه قصياً في حجر امه وهي يمنية فتزوجها ربيعة بن حرام من عذرة وقصي طفل فاحتملته الى بلاد بني عذرة وكان لها من كلاب أيضاً ولد آخر اسمه زهرة تركته في مكة لانه كان كبيراً . ولما شبّ قصي وعرف نسبه رجع الى قومه . وكان الذي يلي البيت (الكعبة) يومئذ رجل من خزاعة اسمه حليل بن حبشية فاعجبه قصي فزوجه ابنتهُ فولدت له عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي . ولما انتشر ولد قصي وكثر ماله وعظم شرفه مات حليل فرأى قصي انه احق بالكعبة ومكة من خزاعة وقد أطمعه بذلك فضلا عما فطر عليه من الانفة وحب الاستقلال ان حليلا حماهُ لما عجز كان يعطي مفاتيح الكعبة لبنته فظلت بيدها وكان قصي ربما أخذها وفتح الباب للناس أو أغلقهُ . فلما مات حليل أوصى بولاية البيت لقصي فابت خزاعة عليه ذلك فمشى برجالات قريش ودعاهم الى نصرته فاجابوه وكتب الى أخيه رزاح في عذرة مستجيشاً بهم فقدم مع اخوته من ربيعة ومن تبعهم من قضاعة في جملة الحاج لنصرة قصي . وحدثت بسبب ذلك حروب وتنافرات انتهت بولاية البيت لقصي واستقر بمكة وجمع قريشاً من منازلهم بين كنانة الى مكة وقطعها أرباعاً فانزل كل رهط منهم في منزله كانه نقلهم من البداوة الى الحضارة . وكان ذلك في أواخر القرن الرابع للميلاد أو أوائل الخامس للميلاد

وقصي أول من أصاب من قريش ملكاً أطاعهُ به قومه فصار له لواء الحرب وحجابة البيت . وتيمنت قريش برأيه فصرفوا مشورتهم اليه فاتخذوا دار الندوة ازاء الكعبة في مشاوراتهم وجعلوا بابها الى المسجد فكانت تجتمع الملأ من قريش في مهامهم . ثم تصدى لاطعام الحاج وسقايته باعتبار انهم أضياف الله وزوّار بيته وفرض على قريش خراجاً يؤدونه اليه وزيادة على ذلك كانوا يردئونه به فخانى شرفهم كله وكانت

له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء

ولما أسن قصي وكان يكره عبد الدار لانه كان ضعيفاً وأخوه عبد مناف قد شرف عليه في حياة ابيه فاوصى قصي لعبد الدار بما كان له من الحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية يجبر له بذلك مانقصه من شرف عبد مناف . وكان امره في قومه كالدين المتبع لا يعدل عنه ثم هلك وقام بامره في قومه بنوه من بعده

أقاموا على ذلك مدة وسلطان مكة لهم ثم ظهر بنو عبد مناف على بني عبد الدار ونافسوهم على ما بايديهم ونازعوهم فافترق أمر قريش وصاروا فرقتين وكانت بطون قريش قد صارت ١٢ بطناً وهي :

(١) بنو الحرث بن فهر (٢) بنو محارب بن فهر (٣) عامر بن لؤي (٤) عدي ابن كعب (٥) سهم بن عمرو (٦) بنو جمح بن عمرو (٧) بنو تيم بن مرة (٨) بنو مخزوم بن يقظة (٩) بنو زهرة بن كلاب (١٠) بنو أسد بن عبد العزى (١١) بنو عبد الدار (١٢) بنو عبدمناف — فاجمع بنو عبد مناف على انتزاع ما بايدي بني عبدالدار مما جعله لهم قصي وزعيمهم في ذلك عبد شمس اسن ولده وانقسمت قريش بين هذين البطنين فكان مع عبد مناف بنو أسد وزهرة وتيم والحرث وانحاز الباقي الى عبد الدار الا عامر والمحارب فاعتزلا الحزبين وتعاقد أصحاب كل حزب حلفاً اكدوه بالطيب فاحضر بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً غمسوا فيها أيديهم فسمي حلف المطيبين . وأجمعوا للحرب وتأهبوا لها ثم تداعوا للصلح وارضوا بني عبد مناف ان تكون لهم السقاية والرفادة ويختص بنو عبد الدار بالحجابة واللواء [1] فرضي الفريقان وتحاجز الناس ورئيس بني عبد مناف هاشم بن عبد مناف

وتوفي هاشم في غزة من أرض الشام وخلف ابنه عبد المطلب صغيراً في يثرب عند أمه وهي من بني عدي فكفله عمه المطلب فاحتمله الى مكة وردفه على بعيره وتوفي المطلب بعد حين فاصبح عبد المطلب خليفته على بني هاشم واقام الرفادة والسقاية للحاج على أحسن ما كان قومه يقيمونها بمكة قبله وكانت له رفادة على ملوك اليمن من حمير والحبشة وكان في جملة الذين وفدوا على ذي يزن الحميري لما تولى الملك

وولد لعبد المطلب عشرة أولاد منهم عبد الله والد محمد صاحب الشريعة الاسلامية وست بنات . ويذكرون انه أراد حفر بئر زمزم لرؤيا رآها فاعترضته قريش ومنعوه ولم يكن له من الولد من ينصره فنذر اذا ولد له عشرة أولاد يبلغون معه حتى يمنعوه لينحرن احدهم عند الكعبة جرياً على عادتهم في ذلك العهد . فلما كملوا عشرة ضرب

(١) راجع تفسير هذه المناصب في تاريخ التمدن الاسلامي الجزء الاول

عليهم بالقداح عند هبل الصنم الاعظم وذلك ضرب من الاستخارة عندهم فخرجت القداح أن يذبح ابنه عبد الله وتحير في امره فاشار عليه بعضهم ان يستشير عرافة كانت لهم في المدينة ففعل فاشارت ان يفتديه بالابل ففداه بمئة منها .

واقعة الفيل

وفي ايام عبد المطلب حدثت واقعة الفيل وعرف ذلك العام بها فقيل عام الفيل وسببها ان ابرهة الحبشي لما اقام في اليمن وبنى القليس كما تقدم أراد ان يجعلها حج العرب فيصرف الناس اليها بدل الكعبة وتحدثت العرب بذلك فغضب رجل من النسأة من بني فقيم فذهب الى القليس ونجسها بالاقذار ورجع . فلما علم ابرهة ان الذي فعل ذلك من اهل الكعبة غضب وحلف ليسيرن اليها ويهدمها وتجهز وركب هو على فيل اسمه محمود ووراءه عدة افيال على عادة الاحباش . ولما تسامع العرب خبر حملته على مكة خافوا وجعلوا يتنافرون من طريقه حتى دنا من مكة فبعث رجالا انتهبوا اموال أهلها وفي جملة ذلك ٢٠٠ بعير لعبد المطلب سيد قريش وانفذ اليه رسولا يقول « لم آت لحربكم بل أتيت لهدم الكعبة » وطلب عبد المطلب مقابلة أبرهة فلما لقيه قال له « لم آت لاحمي الكعبة فان لها رباً يحميها وانما جئت اطلب ابلي » فردها اليه . فرجع الى قريش وامرهم أن يخرجوا من مكة ويتحرزوا في الجبال فاطاعوه

وأما أبرهة فحدث في معسكره اضطراب وأصيبوا بالوباء والعرب يقولون ان طيراً خرجت من البحر يقال لها ابابيل رمتهم بالحجارة فلم يصب احد بحجر الا هلك فتراجعوا عن مكة وزادت الكعبة بذلك كرامة وتقديساً

ورجع عبد المطلب الى مكة وقد زاد رفعة وعلم ان بعض ملوك ساسان كان قد اهدى الكعبة تمثالين من ذهب واسيافاً دفنتها جرهم في زمزم عند خروجها فامر بحفرها واستخرج التمثالين وضربهما حلية للكعبة وضرب الاسياف باب حديد لها .

وكان لقريش خصائص وعادات وآداب تمتاز بها عن سائر العرب سيرد ذكرها في كلامنا عن عادات العرب وآدابهم في الجزء الثاني من هذا الكتاب

المدينة (يثرب)

تاريخها

ومن مدن الحجاز العامرة أيضاً المدينة (يثرب) وأهلها من غير عدنان يزعمون ان أصلهم من اليمن في جملة من هاجرها بعد سيل العرم ولها تاريخ قديم لا يعرف أوله والمشهور عند العرب ان المدينة اول من نزلها العماليق أقام فيها منهم قبائل تسمى هف وسعد بن هفان وبنو مطرويل ثم نزلها اليهود من أقدم أزمانهم . قيل انهم أتوها من أيام موسى في أثناء حروبه مع الكنعانيين ولهم في ذلك حديث طويل قالوا « لما وطىء موسى الشام وأهلك أهلها بعث بعثاً من رجاله الى الحجاز وفيها العماليق وأمرهم أن لا يستبقوا أحداً ممن بلغوا الحلم الا من دخل في دينه فقدموا عليهم فقاتلوهم فاظهرهم الله عليهم فقتلوهم وقتلوا ملكهم الارقم واسروا ابناً له شاباً جميلاً كأحسن من رأى في زمانه فضنّوا به عن القتل وقالوا نستحييه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه فاقبلوا وهو معهم وقبض الله موسى قبل قدومهم فلما قربوا وسمع بنو اسرائيل بذلك تلقوهم وسألوهم عن اخبارهم فاخبروهم بما فتح الله عليهم . قالوا فما هذا الفتى الذي معكم فاخبروهم بقصته فقالوا ان هذه معصية منكم لمخالفتكم أمر نبيكم والله لا دخلتم علينا بلادنا أبداً فحالوا بينهم وبين الشام . فقال ذلك الجيش « ما بلد ان منعتم بلدكم خير لكم من البلد الذي فتحتموه وقتلتم أهله فارجعوا اليه » فعادوا اليها فاقاموا بها » [1]

ذلك ما يرويه العرب عن أول سكنى اليهود المدينة . وكان اليهود أهل مدنية وذكاء وتجارة فما لبثوا ان اقتنوا الضياع والاموال وأصبحت تجارة المدينة وثروتها في أيديهم . فرغب اخوانهم في النزوح اليهم ولا سيما على اثر ما اصابهم من الذل في دولة الروم وخصوصاً بعد ظهور النصرانية وانتصار القياصرة لها . فكان اليهود يتوافدون الى المدينة عشائر وأفراداً فراراً من الاضطهاد او الظلم فتكاثروا في المدينة وظهر منهم عدة قبائل أشهرها قريظة والنضير وهدل

ثم نزلها الاوس والخزرج وهم بطون من الازد الذين يقول العرب انهم من كهلان وانهم نزحوا من اليمن في جملة النازحين بعد سيل العرم وقد ذكرنا رأينا في ذلك عند كلامنا عن الدول القحطانية خارج اليمن . نزل الاوس والخزرج هنا وهم في ضنك من العيش وكان على اليهود ملك شديد استبد باولئك النازحين فاستجاروا بالغساسنة وقيل

(١) ياقوت ٤٦١ ج ٤ والاغاني ٩٤ ج ١٩

بالتبابعة فاغاثوهم وانتقموا لهم بحديث طويل لا فائدة من ذكره [١] خلاصته ان الذين اتوا لاغاثتهم مكروا باليهود وقتلوا رؤساءهم فصارت الاوس والخزرج من يومئذ أعز أهل المدينة وسار ذكرهم وصار لهم الاموال ونزلوا المدينة وبنوا بها القصور والاطام وهم الذين عرفوا بعد الاسلام بالانصار لانهم نصروا النبي لما هاجر اليهم

الحروب بين الاوس والخزرج

ولم يزل الاوس والخزرج في اتفاق واجتماع حتى وقع الاختلاف بينهم وجرت الوقائع وأول حرب جرت بينهم تعرف بحرب سمير وكان سببها ان رجلاً من بني ثعلبة من سعد بن ذبيان يقال له كعب بن العجلان نزل على مالك بن العجلان السالمي فحالفه وأقام معه فخرج كعب يوماً الى سوق بني قينقاع فرأى رجلاً من غطفان معه فرس وهو يقول « ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب » فقال رجل فلان وقال رجل آخر احيحة بن الجلاح الاوسي وقال غيرهما فلان بن فلان اليهودي أفضل أهلها . فدفع كعب الفرس الى مالك بن العجلان فقال كعب ألم أقل لكم ان حليفي مالكاً أفضلكم . فغضب من ذلك رجل من الاوس من بني عمرو بن عوف يقال له سمير وشتمه وافترقا وبقي كعب ما شاء الله . ثم قصد سوقاً لهم بقباء فقصده سمير ولازمه حتى خلت السوق فقتله وأخبر مالك بن العجلان بقتله فارسل الى بني عمرو بن عوف يطلب قاتله فارسلوا « انا لا ندري من قتله » وترددت الرسل بينهم هو يطلب سميراً وهم ينكرون قتله ثم عرضوا عليه الدية فقبلها . وكانت دية الحليف فيهم نصف دية النسيب منهم فابى مالك الا أخذ دية كاملة وامتنعوا من ذلك وقالوا نعطي دية الحليف وهي النصف ولج الامر بينهم حتى آل الى المحاربة فاجتمعوا والتقوا واقتتلوا قتالا شديداً وافترقوا ودخل فيها سائر بطون الانصار . ثم التقوا مرة اخرى واقتتلوا حتى حجز بينهم الليل وكان الظفر يومئذ للاوس فلما افترقوا أرسلت الاوس الى مالك يدعونه الى ان يحكم بينهم المنذر بن حرام النجاري الخزرجي جد حسان بن ثابت بن المنذر فاجابهم الى ذلك فاتوا المنذر فحكم بينهم المنذر بان يدوا كعباً حليف مالك دية الصريح ثم يعودوا الى سنتهم القديمة . فرضوا بذلك وحملوا الدية وافترقوا وقد ثبتت البغضاء في نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم

وتوالت بينهم بعد ذلك عدة وقائع سفكت فيها الدماء هي من قبيل أيام العرب التي قدمناها . فمن أيام الاوس والخزرج ايضاً حرب كعب بن عمرو المازني جرت بين

(١) ياقوت ٤٦٣ ج

بني جحجبا من الاوس وبني مازن بن النجار من الخزرج . وحرب بني عمرو بن عوف من الاوس وبني الحرث من الخزرج وكانت شديدة فاز بها الخزرج . وحرب الحصين ابن الاسلت بين بني وائل بن زيد من الاوس وبني مازن بن النجار من الخزرج فاز بها الخزرج . وحرب ربيع الظفري بين بني ظفر من الاوس وبني مالك بن النجار من الخزرج فاز بها الخزرج ايضاً . ومن أيامهم حرب فارع وحرب حاطب ويوم الربيع ويوم البقيع [1] فازت الاوس في الاخيرين منها . وكانوا اذا فرغوا من المعركة تصالحوا على الديات ولا يلبثون ان يعودوا الى الخصام لاسباب يرجع اكثرها الى الانفة والاريحية من دفاع عن عرض او انتصار لجار او نحو ذلك

الطائف

ومن مدن الحجاز التي يعد أهلها حضراً الطائف وهي بلد حدائق وبساتين وفاكهة ورياحين كان أهلها من عدوان الذين منهم حكم العرب عامر بن الظرب وقد ذكرنا خبره في ما تقدم . وكثر عددهم حتى قاربوا سبعين الفاً بغى بعضهم على بعض فهلكوا وقلّ عددهم وكان قسي بن منبه (وهو ثقيف) صهراً لعامر بن الظرب وكان بنوه بينهم فلما ضعف امر عدوان تغلبت عليها ثقيف وهم فرع من هوازن [2] ولها ذكر كثير في صدر الاسلام وبعده



تمّ الجزء الاول

(1) ابن الاثير ٣٠٣ — ٣١٣ ج ١ (2) ابن خلدون ٣٢٨ ج ٢

فهارس الجزء الاول من كتاب العرب قبل الاسلام

اولا — فهرس الفصول

ثانيا – فهرس الصور

ثالثاً — فهرس الخرائط

تمت الفهارس



(ايضاح) جاء في وصف الخريطة الخامسة صفحة ١٥٣ التباس يجب ان يوضح على هذه الصورة فيقرأ « خريطة سد مأرب أو سيل العرم كما شاهده ارنو وهاليفي وغلازر في أواسط القرن الماضي » ثم « وضعت لتاريخ العرب الخ »